الصبيّة والليل

غيوم ميسو

مكتبة 488

نوفل

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 488

الصبيّة والليل

مكتبة | 488

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة t.me/ktabrwaya

٢٠ ٧ ٢٠١٩

صورة الغلاف: Shutterstock ©
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **سابين طاوقجيان**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-303-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-304-9

Original title:
La Jeune Fille et la Nuit by Guillaume Musso
© Calmann-Lévy, 2018

رواية

مكتبة | 488

الصبيّة والليل

غيوم ميسو

نقلته من الفرنسيّة ناتالي الخوري

نوفل
مكتبة
المركز الثقافي العربي

إلى فلورا،
إلى ذكرى أحاديثنا في ذلك الشتاء،
عند الرابعة فجرًا، موعد رضّاعة الطفل...

«وتبقى مُعضِلة الليل هي هي.
هل ينتهي ويبزغ فجر جديد؟»

هنري ميشو

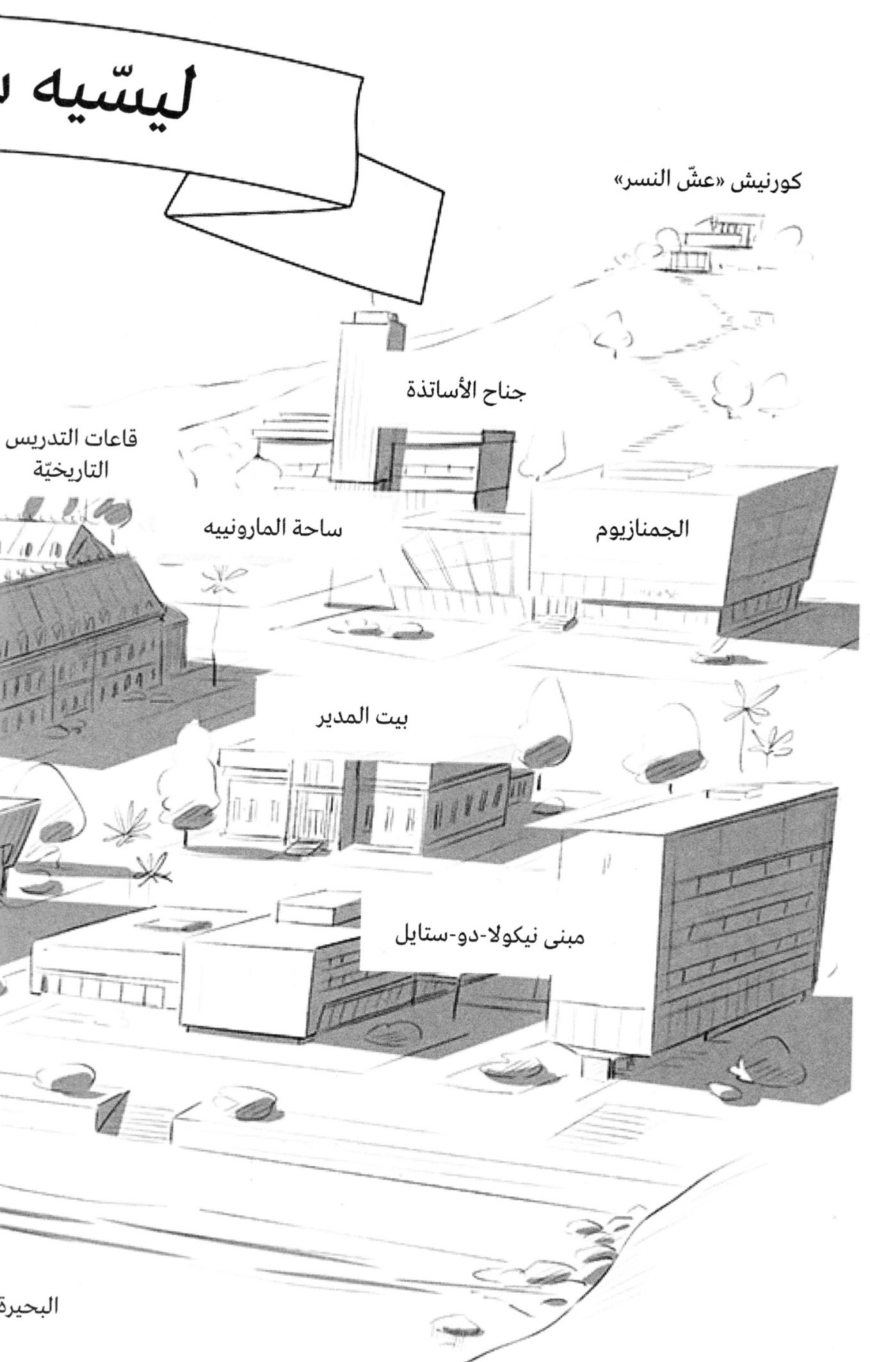
ليسّيه س
كورنيش «عشّ النسر»
جناح الأساتذة
قاعات التدريس التاريخيّة
ساحة المارونييه
الجمنازيوم
بيت المدير
مبنى نيكولا-دو-ستايل
البحيرة

ـت-إكزوبيري
مقهى «شي دينو»
DINO
DINO
المحرَس
مبنى الأغورا
الإدارة
المكتبة
صواري السفن

في ذكرى ٢٢ - ١١

على درب المُهرِّبين

الصبيّة:
ارحَل، آه، ارحَل!
اغرُب عن وجهي، أيّها الطيف الشنيع!
ما زلتُ في زهرة شبابي، اختَفِ!
وإيّاكَ أن تلمسَني!

الموت:
أعطيني يدَكِ، يا جميلتي الرقيقة
أنا صديقكِ، لا داعي للخوف.
استَسلمي ودَعي الأمرَ لي! لا تخافي
تعالَي وارقدي بهدوء بين ذراعيّ.

ماتياس كلاوديوس (1740-1815)
«الصبيّة والموت»

مكتبة t.me/ktabrwaya

2017

الطرف الجنوبي من كاب دانتيب. في 13 مايو.

رَكَـنـت مـانـون أغـوستـيـنـي سـيّـارة الـخـدمـة فـي آخـر طريق «لاغاروب». أغلقَت شرطيّة البلديّة باب السيّارة الـ«كانغوو» العتيقة، وهي تلعَن في سرِّها تسلسل الأحداث الذي قادها إلى هنا.

فحوالى الساعة التاسعة ليلًا، اتّصل حارس أحد المنازل الفخمة في البلدة بمخفر مدينة أنتيب، للإبلاغ عن مفرقعة ناريّة أو ربّما رصاصة – صوت غريب في أيّ حال – أُطلِقَت في اتّجاه الممرّ الصخري المحاذي لمتنزّه المنزل. بيد أنّ المخفر لم يُعِر الشكوى اهتمامًا كبيرًا، وأحالها إلى مركز الشرطة البلديّة، فلم يكن من سبيل آخر سوى الاتّصال بها، هي، على الرغم من انتهاء دوامها.

عندما اتّصل بها رئيسها يطلب منها التوجُّه إلى الممرّ الساحلي لإلقاء نظرة سريعة، كانت مانون تتأهَّب للخروج، وقد ارتدت زيّ السهرة الأنيق. كان في ودّها أن ترسله إلى الجحيم، لكنّها لم تستطِع أن ترفُض له هذا الطلب. ففي صباح اليوم عينه، أذن لها بأن تحتفظ بسيّارة الخدمة إلى ما بعد الدوام، لأنّ سيّارتها كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة. وفي مساء هذا السبت تحديدًا، كانت مانون في أمسّ الحاجة إلى ما يقلّها إلى موعدها الذي يعني لها الكثير.

كان ليسّيه سانت-إكزوبيري، حيث تابَعَت دراستها في الماضي يحتفل بعيده الخمسين، وللمناسبة، تُقام حفلة خاصّة تجمع القُدامى من تلامذة صفّها. كانت مانون تأمَل سرًّا بأن تلتقي مجدّدًا ذلك الفتى الذي ترك أثرًا عميقًا في نفسها، كان فتًى غير الفتيان كلّهم، فتًى تحامقَت وتجاهلته آنذاك، وفضَّلت عليه شبّانًا أكبر سنًّا، تبيَّن لاحقًا أنّهم مجرَّد أغبياء وأوغاد. صحيح أنّ أملها هذا كان بعيدًا من المنطق كلّ البُعد – حتّى أنها لم تكن واثقة في أنّه سيحضر إلى السهرة، والأرجح أنّه نسي وجودها كليًّا – لكنّها كانت في حاجة إلى أن تُصدّق أنَّ جديدًا ما سيطرأ على مجرى حياتها الرتيب. بين تدريم الأظافر وطلائها، وتصفيف الشعر والتسوُّق: أمضَت مانون فترة بعد الظهر كلّها تتهيّأ للسهرة. أنفقت دفعةً واحدة ثلاثمئة يورو على فستان أنيق، مُستقيم القَصّة، من حرير الجيرسي والدانتيلّ الأزرق

الداكن كالليل، وقد استعارَت من شقيقتها عقد لؤلؤ، ومن صديقتها الأعزّ حذاء – من الجلد السويدي الليّن، كان يؤلِم قدميها بشدّة.

ممشوقة القامة وهي تقف على كعب عالٍ رفيع، أضاءت مانون مصباح هاتفها، وشرعت تتقدّم على الدرب الضيّقة الممتدّة أكثر من كيلومترين على طول الساحل، وصولًا إلى فيلّا إيلينروك. كانت تعرف المكان عن ظهر قلب، فقد اعتاد والدها اصطحابها إليه وهي طفلة لصيد السمك في الخلجان الصغيرة. في الماضي، كان أهالي البلدة يسمّون هذا الموقع درب الشرطة الحُدوديّة أو درب المهرِّبين. لكن، في وقت لاحق، ظهر في الدليل السياحي باسم درب «تير بوال» الجذّاب. أمّا اليوم، فقد أصبح اسمه عاديًّا أكثر وهو الممرّ الساحلي.

بعد أن اجتازت مانون حوالى خمسين مترًا، اعترضَها حاجز مفاجئ بلافتة تُنذر بأنّ المنطقة «منطقة خطرة – ممنوع الدخول». ففي منتصف الأسبوع، ضربت المكان عاصفة هوجاء وقد تسبَّب المدّ البحري العنيف والمتكرِّر بانهيارات صخريّة جعلت التنزّه صعبًا وغير ممكن في بعض المواقع.

تردَّدت مانون هنيهةً، وقرّرت اجتياز الحاجز.

1992

الطرف الجنوبي من كاب دانتيب. في الأول من أكتوبر.

مرَّت فينكا روكويل أمام شاطئ «لا جولييت» كالنسمة، رشيقة متراقصة على وقع قفزات قلبها الجَذِل. كانت الساعة العاشرة ليلًا. وقد أقنعت إحدى رفيقاتها في الصفّ التمهيدي-الأدبي، تملك درّاجة سكوتر، بأن تقلّها من حَرَم الليسّيه إلى طريق «لا غاروب».

وفيما كانت تتقدّم على درب المهرِّبين، شعرت بفراشات في بطنها. سوف تلتقي ألكسيس. سوف تلتقي حبّ حياتها من جديد!

كانت الريح تعصف بشدّة إلى حدّ اقتلاع جذور الشجيرات، لكنّ الليل كان ساحرًا والسماء غايةً في الصفاء إلى درجة أنّ الرؤية كانت مكشوفة، كأنّنا في وضح النهار. لطالما عشقت فينكا هذه البقعة، تحديدًا لأنّها بريّة موحِشَة ولا تمتّ بِصِلَة إلى الصورة النمطيّة الصيفيّة التي تشوّه الريفييرا الفرنسيّة. فهنا، تحت أشعّة الشمس، نقف مشدوهين أمام الصخور الكلسيّة المتّشحة بتموّجات وهّاجة من الأبيض الناصع والأمغر اللامع، والخُلجان الصغيرة الغارقة في زرقتها السماويّة المتدرِّجة بتلوينات لازورديّة إلى ما لا نهاية. ذات مرّة، وفيما كانت تنظر في اتّجاه جزر ليرين، لمحت فينكا بعض الدلافين.

لكن، في أيّام الرياح الشديدة، كما في هذا المساء تحديدًا، يتبدّل المشهد كلّيًّا.

الصخور المنحدرة تصبح وعرة خطرة، وأشجار الزيتون والصنوبر تلتوي ألمًا كأنّها تودّ لو تقتلع جذورها من الأرض. لكنّ فينكا ما كانت لتأبه بذلك كلّه. سوف تلتقي ألكسيس. سوف تلتقي حبّ حياتها من جديد! ألكسيس.

2017

تبًّا!

انكسر كعب حذاء مانون من جذوره. اللعنة! عليها الآن أن تعود إلى شقّتها قبل أن تذهب إلى السهرة، وغدًا، ستعاتبها صديقتها بشدّة. نزعت حذاءها، دسّته في حقيبة يدها وتابعت السير حافية.

كانت لا تزال تسير في الممرّ الضيّق المعبّد المُطلّ على المنحدرات الصخريّة. كان الهواء نقيًّا منعشًا، فيما زادت ريح الشمال الباردة صفاء الليل، ورُصِّعت السماء بالنجوم.

المنظر يخطف الأنفاس، إذ كان يمتدّ مترامِيًا من حصون مدينة أنتيب القديمة إلى خليج نيس، مرورًا بالجبال الداخليّة النائية. وخلف ستار أشجار الصنوبر، تتربّع مجموعة من أجمل منازل كوت دازور الفخمة. ومن البعيد، يتناهى هدير الأمواج ترغي وتزبد، وتتفجَّر قوّةً وجبروتًا.

في الماضي، كان المكان مسرحًا للحوادث المأسويّة. فقد جرفت الأمواج العاتية صيّادين وسيّاحًا كثرًا، أو حتّى عشّاقًا كانوا يأتون لتبادل القبلات على ضفاف النهر. تحت وابل الانتقادات، اضطُرّت السلطات المحليّة إلى تأمين سلامة الممرّ ببناء أدراج صلبة في المواقع الوعرة، وتحديد معالم الممرّ، وإقامة حواجز بدرابزينات تكبح أهواء متنزِّهين قد يدنون كثيرًا من الحافّة. وعلى الرغم من ذلك، يكفي أن تثور ثائرة الريح بضع ساعات، ليعود المكان خَطِرًا لا بل غايةً في الخطورة.

وصلت مانون إلى موقع تعترضه شجرة من أشجار الصنوبر الحلبي كانت قد اقتلعتها العاصفة، ما أطاح درابزين الحاجز وسدَّ الطريق. لا مجال للتقدّم خطوة واحدة. فكَّرت مانون في أن تعود أدراجها. ما من أحد هنا. فقد أحبطت شدّة ريح الشمال الباردة عزيمة المتنزِّهين الأكثر استبسالًا.

انصرِفي من هنا يا بنت!

تسمّرت مكانَها تُصغي إلى زمجرة الريح، كأنّها كانت تحمل نواحًا قريبًا وبعيدًا في آن واحد، كأنّه تهديد مكتوم.

رغم أنّها كانت حافية، قفزت مانون على صخرة لتتجاوز العائق، وتابعت مسارها في ضوء مصباح هاتفها.

عند المنحدر الصخري، في الأسفل، ارتَسم طيف قاتم. أنعمت مانون النظر. لا، كانت بعيدة جدًّا لتتمكّن من تخمينه. حاولت

النزول متوخّيةً أقصى درجات الحذر. وفجأةً سُمِع صوت طقطقة! كان زاف فستانها الدانتيلّ يتمزّق، لكنّها لم تعره أيّ اهتمام. فهي ترى الآن ذلك الطيف الذي أثار فضولها. كان جسمًا بشريًّا، بل جثّة امرأة هامدة على الصخور. كلّما دنت أكثر، استبدّ بها الرعب أكثر. لا، لم تكن مجرّد حادثة. لقد سُحق وجه المرأة شرّ سحقة، فغرق في الدماء. يا إلهي! خارت قواها وشعرت بأنّها على وشك الانهيار. فتحت هاتفها لتبلّغ فريق النجدة. لم تجد إشارة إرسال! بيد أنّه كُتب على الشاشة: «اتّصالات طارئة فحسب».

كانت على وشك إطلاق النداء، حين أدركت فجأةً أنّها ليست وحدها. فعلى بُعد أمتار قليلة منها، كان رجلٌ جالسًا يبكي... كان يشهَق ناشجًا، منهارًا، وقد غطّى وجهه بكفّيه.

تجمّدت مانون من شدّة الذعر! في تلك اللحظة تحديدًا، ندمت لأنّها لم تكن تحمل سلاحًا.

اقتربَت بحذر. استقام الرجل. وعندما رفع رأسه، تعرّفت مانون إلى وجهه.

– أنا مَن فعل هذا، أنا. قال وهو يشير بإصبعه إلى الجثّة الهامدة.

1992

بخفّةٍ ورشاقة، راحت فينكا روكويل تقفز من صخرة إلى أخرى. كانت الريح تعصف بشدّة. أكثر فأكثر. لكنّ فينكا كانت تهوى ذلك: الأمواج العاتية، والخطر، ونسيم البحر المُسكِر، والانجرافات الصخريّة الشديدة الانحدار التي تسبّب الدوار. لا شيء في الحياة أفقدها صوابها بقدر لقائها الأوّل بألكسيس. كان هُيامًا عميقًا وجارفًا منذ اللحظة الأولى. حالة ذوبان كامل بين جسدين وروحين. ولو عمّرت مئة عام بعد، لن

يستطيع أيّ شعور في الكون أن يضاهي الشعور في تلك الذكرى. مجرّد فكرة لقاء سرّي جديد مع ألكسيس وتبادُل الحبّ بين الصخور، أثارت في نفسها هيجانًا عاطفيًّا.

شعرت بالنسيم الدافئ يلفّ كيانها، يداعب ساقيها، يلعب في فستانها. أحسَّت ببوادر لذّة مرتقبة: دقّات قلبها تتسارع، وموجة دفء تجرف كيانها وتهزّه، ودمها يتخبَّط في عروقها، كلّ ذرّة من جسدها ترتجف على وقع نبضاتها.

سوف تلتقي ألكسيس. سوف تلتقي حبّ حياتها من جديد!

ألكسيس! العاصفة الهوجاء، الليل، اللحظة. كانت فينكا تُدرك تمامًا في قرارة نفسها أنّها ترتكب حماقة، وأنّ الأمور لن تؤول إلى خواتيم حميدة. لكن، لا يهمّ ما قد يحدُث في ما بعد. فهي لن تتخلّى عن هذه اللحظة المثيرة، مقابل كنوز العالم كلّها. ذلك الانتظار التوّاق، جنون الحبّ، وتلك اللذّة الموجِعة التي تحملنا على أجنحة الليل.

– فينكا!

فجأةً، ظهر ظلّ ألكسيس كشبح في صفو السماء، حيث التمع القمر بدرًا. خطت فينكا بضع خطوات لتلاقي الظلّ. وفي طرفة عين، شعرت بالمتعة تُقبل نحوها. عارمة، حارقة، جامحة، لا رادع لها. جسدان يمتزجان، يتفكّكان جزيئة تلو أخرى إلى أن يذوبا في الموج والريح. صيحات النشوة تُلاقي صيحات النورس. ثمّ الاختلاجات، والبركان النهائي الذي يطرَح أرضًا، والوميض الأبيض المُبهر الذي يغمر الجسد ويُبعثر الكيان حرًّا طليقًا.

– ألكسيس!

حين احتضنت فينكا أخيرًا حبَّها بين ذراعيها، همس صوت في باطنها مجدّدًا بأنّ النهاية لن تكون سعيدة. بيد أنّ الصبيّة الولهى ما كانت لتأبه بالمستقبل. فإمّا أن يكون الحبّ كلّ شيء أو لا يكون.

وحدها اللحظة الحاضرة كانت مهمّة.

وسَهم ليل الإغواء، حارِقًا ومَسمومًا.

أمسِ واليوم

(صحيفة «نيس-ماتان» – الإثنين 8 مايو، 2017)

ليسّيه سانت-إكزوبيري الدولي يُطفئ شموعَه الخمسين

مكتبة t.me/ktabrwaya

المؤسّسة التربويّة الرائدة ومنارة مُجمَّع صوفيا-أنتيبوليس للتكنولوجيا والعلوم، تُطفئ شموعها الخمسين، نهاية الأسبوع المقبل.

تأسّس ليسّيه سانت-إكزوبيري العام 1977 على يد الإرساليّة الفرنسيّة العلمانيّة لتعليم أولاد المغتربين، وهو يعتبر من المؤسّسات الأكثر فرادةً وتميُّزًا في منطقة كوت دازور. فنظامه التعليمي الشهير بمستواه الراقي المتفوِّق، يتمحور أوّلًا وأخيرًا حول تعليم اللغات الأجنبيّة، حيث تتيح فروعه الثنائيّة اللغة الحصول على شهادات دوليّة مرموقة، وهي تستقبل اليوم حوالى ألف تلميذ بين فرنسيّين وأجانب.

ومن المقرَّر أن تستهلّ الاحتفالات يوم الجمعة 12 مايو، بنهار «الأبواب المفتوحة»، حيث سيقدِّم التلاميذ والهيئة التعليميّة أعمالهم الإبداعيّة الفنيّة – معارض صور، وأفلامًا، ونشاطات مسرحيّة – المنظَّمة حصريًّا للمناسبة.

وتُستكمل الفعاليّات ظهر اليوم التالي بكوكتيل يجمع قدامى تلاميذ الليسّيه وموظّفيه. ويتخلَّل الحفل وضع حجر الأساس لمبنى جديد ملقَّب بـ«البرج الزجاجيّ»، والذي سيرتفع بطبقاته

الخمس مكان الجمنازيوم الحالي. وسوف يخصَّص المبنى العصري هـذا، لاستقبال تلاميذ الصفوف التمهيديّة في الـمـدارس العُليا. وهكذا، ستحظى دورات الأعوام 1990-1995 بشرف استعمال قاعة الجمنازيوم آخر مرّة، وذلك مساء اليوم عينه، خلال «حفلة القُدامى الراقصة».

ولمناسبة الذكرى الخمسين، تأمَل السيّدة فلورانس غيرار، مديرة الليسّيه، بحضور أكبر عدد ممكن للمشاركة في الفعاليّات. «أدعو بحماسة كبيرة جميع التلاميذ القدامى وأعضاء فريق العمل إلى مشاطرتنا لحظات الفرح والحنين هذه. فالأحاديث ولمّ الشمل والذكريات تُعيدنا إلى جذورنا، وهي ضروريّة جدًّا لنعرف إلى أين نذهب»، تتابع المديرة متلعثمةً بعض الشيء، قبل أن تُعلن إنشاء مجموعة خاصّة بالحَدَث عبر فايسبوك.

ستيفان بيانيلي

شباب دائم

1

كوكا-كولا بنكهة الكرز

حين نكون في طائرة متهاوية على وشك الارتطام،
ولئن ربطنا أحزمة الأمان، فلن يجدي نفعًا.

هاروكي موراكامي

.1

صوفيا-أنتيبوليس

السبت 13 مايو 2017

ركنتُ السيّارة المؤجّرة في فيء أشجار الصنوبر، قرب محطّة الوقود، على بُعد ثلاثمئة متر من مدخل الليسّيه. كنتُ قد وصلتُ مباشرةً من المطار بعد رحلة من نيويورك إلى نيس، لم أذُق فيها طعم النوم.

فقد غادرتُ مانهاتن أمسِ على جناح السرعة، بعد أن تلقّيتُ بالبريد الإلكتروني مقالةً تذكّر بالعيد الخمسين لليسّيه، مدرستي سابقًا. والواقع أنّ المقالة أرسِلت من خلال بريد دار النشر خاصّتي، بوساطة ماكسيم بيانكارديني، صديقي الأعزّ سابقًا والذي لم أره منذ

خمس وعشرين سنة خَلَت. كان قد ترك لي رقم هاتف خلوي تريّثتُ كثيرًا قبل أن أطلبه بعدما أقررتُ أخيرًا بأنّ لا وسيلة أخرى لديّ.

– هل قرأتَ المقالة يا توماس؟ بادر إليّ من دون مقدِّمات.

– أتّصلُ بكَ لهذا السبب.

– هل تعرف ما يعني ذلك؟

كان صوته يشي بنغمات لطالما ألفتها، لكنّها بدت محمومة الآن، يشوبها الخوف والإلحاح.

لم أجِب على الفور. بلى، كنتُ أدرك جيّدًا ما يعني. يعني أنّها نهاية حياتنا كما اعتدناها حتّى اللحظة. يعني أنّنا سنُمضي الجزء التالي من حياتنا خلف القضبان.

– عليكَ المجيء إلى كوت دازور يا توماس، أردف ماكسيم بعد صمتٍ دام بضع ثوانٍ. علينا أن نضع استراتيجيّة مُحكَمة لتفادي ذلك. يجب أن نتصرَّف.

أغمضتُ عينيّ وأنا أعيد التفكير في عواقب ما قد يحدث: فظاعة الفضيحة، وتداعياتها القانونيّة، ووقع الصدمة وتردُّداتها على عائلتينا.

فقد كنتُ مدركًا تمامًا في قرارة نفسي أنّ ثمّة احتمالًا ولو ضئيلًا في أنّ هذا اليوم سيأتي. عشتُ ما يقارب خمسًا وعشرين سنة – أو بالأحرى تظاهرتُ بأنني أعيش – وسيفُ التهديد هذا مسلَّط على رأسي. كنتُ أصحو منتصف الليل، مرارًا وتكرارًا، وأنا أتصبَّب عرقًا، فيما أستعيد سلسلة الأحداث التي وقعت آنذاك، وأرتجف وأرتعب من فكرة انكشافها ذات يوم. في الليالي المشؤومة تلك، كنتُ أتناول قرصًا منوّمًا بجرعة من الكحول، من دون أن أنجح في مواصلة نومي إلّا نادرًا.

– علينا أن نتصرَّف، كرَّر صديقي.

كنتُ أعي أنّه يخدع نفسه. فتلك العبوّة الخبيثة التي تهدِّد بنسف مسار حياتنا هي مِن صنع أيدينا نحن. نحن مَن ركّبناها ووقّتناها ذات مساء مشؤوم من شهر ديسمبر، العام 1992.

وكلانا يعرف ويُدرك ألّا سبيل إلى نزع فتيلها.

.2

بعد أن أقفلتُ أبواب السيّارة كلّها، خطوتُ بضع خطوات في اتّجاه محطّة الوقود التي تتضمّن متجرًا عامًّا على الطريقة الأميركيّة، معروفًا باسم «شي دينو». خلف مضخّات الوقود، ارتفع بناء من الخشب المطليّ: أعمدة وقناطر تُؤوي محلًّا صغيرًا ومقهًى لطيف الأجواء، إضافةً إلى ترّاس يمتدّ في مساحة واسعة يظلّلها صيوان.

دفعتُ الباب المردود. لم يتبدّل المكان كثيرًا. ما زال يمتاز بذلك الجانب الذي لا يتأثّر بمرور الزمن. في آخر المحلّ، تحلّقت مقاعد طويلة عالية لا ظهور لها، حول بار خشبي مطبّع بالأبيض، تُعرض عليه أجراس زجاجيّة شفّافة تُغطّي كنوزًا صغيرة ممّا لذّ وطاب من الحلوى. وفي باقي القاعة، توزّعت حتّى تخوم الترّاس، مقاعد عريضة مُريحة وطاولات. على الجدار، لوحات دعائيّة قديمة من الخزف المطلي، تروّج لماركات عفّى عليها الزمن، إضافةً إلى مُلصَقات إعلانيّة لريفييرا العشرينيّات الصاخبة. اختفت طاولة البلياردو ومعها ألعاب الفيديو القديمة – التي لطالما أنفقت عليها مصروف جيبي لتُفسح في المجال أمام المزيد من الطاولات. أمّا الناجية الوحيدة فهي طاولة كرة الطاولة وهي عبارة عن بونزيني عتيقة خاصّة بالمباريات، استُنفدَت قاعدتها حتّى القوائم.

رغمًا عنّي، راحت يداي تداعبان إطار طاولة كرة القدم المنحوتة من خشب الزان الخالِص. ففي هذا المكان، استعدنا ماكسيم وأنا ساعات وساعات المباريات المهمّة كلّها التي خاضها فريق نادي أوليمبك مارسيليا. وبدأ وابل ذكريات من الماضي يمطر: ضربة بابين الثلاثيّة خلال كأس فرنسا العام 1989؛ يد فاتا تصدّ بينفيكا؛ الضربة التي سدَّدها كريس وادل مباشرةً من مشط قدمه اليمنى ضدّ أي. سي. ميلان، في ذلك المساء الشهير عندما انقطع التيّار الكهربائي عن مدرَّج الفيلودروم. لسوء الحظّ، لم نستطِع الاحتفال معًا بالنصر الذي لطالما انتظرناه – أي مراسيم تسليم كأس دوري أبطال أوروبا العام 1993. ففي ذلك التاريخ، كنتُ قد غادرتُ منطقة كوت دازور لأكمل دراستي في إحدى كليّات التجارة في باريس.

شيئًا فشيئًا، راحَت أجواء المقهى الدافئة تغمرني. لم يكن ماكسيم الشخص الوحيد الذي اعتاد مرافقتي إلى هنا عند انتهاء الحصص المدرسيّة. فقد ارتبطت الذكريات التي انطبعت فيّ بفينكا روكويل، الصبيّة التي خطفت قلبي آنذاك. الصبيّة التي خطفت قلوب جميع الفتيان آنذاك. كان ذلك أمس. كان ذلك منذ دهر.

وبينما تقدَّمتُ في اتّجاه البار، انتابتني القشعريرة أكثر من مرّة، وراحت تسري في ذراعيّ مع كلّ لقطة تنجلي في ذاكرتي. تذكّرتُ... ضحكة فينكا الصافية، وسِنّيها الأماميَّتين المتباعدَتين، وفساتينها الرقيقة، وجمالها غير العادي، ونظرتها، تلك النظرة المزعومة التي تُريدها دومًا بعيدة ومجرَّدة، متى استقرَّت على الأشياء حولها. تذكّرتُ أنّ فينكا كانت تشرب في هذا المقهى الكوكا بنكهة الكرز صيفًا، وشوكولاتة ساخنة تطفو على وجهها قطع مارشميلوز صغيرة شتاءً.

مكتبة t.me/ktabrwaya

– أتشرب شيئًا؟

لم أصدِّق عينيّ! ما زال المقهى بإدارة الزوجين الإيطاليّين-البولنديّين عينهما – آل فالنتيني – وقد تذكّرتُ اسميهما حالما لمحتهما. قطع دينو (طبعًا...) عمليّة تنظيف آلة الإسبريسّو ليكلّمني، فيما كانت زوجته هانا تتصفَّح الجريدة المحليّة. لقد اكتسَب هو بعض الوزن وفقد شعره، فيما اكتسبَت هي بعض التجاعيد وفقدت شقرتها. لكن مع مرور الوقت، باتا متناغمَين أكثر كزوجين. إنّه تأثير الشيخوخة: يوحِّد ما لا نستطيع جمعه، ويُخفِّف وهجَ الوجوه الجميلة المشرقة ليُضفي في بعض الأحيان رونقًا ولمعانًا على وجوه عاديّة.

– فنجان قهوة، من فضلكَ، إسبريسّو مُضعافًا.

تريّثتُ بضع ثوانٍ، ثمّ تحدّيتُ الماضي واستدعيتُ طيف فينكا:

– وكوكا بنكهة الكرز مع قشّة ومكعّبات ثلج.

في الوهلة الأولى، ظننتُ أنّ أحد الزوجين فالنتيني سيتعرَّف إليّ. فقد عمل والداي مديرين في سانت-إكزوبيري، بين عامَي 1990 و1998: هو يهتمّ بالليسّيه وهي بالصفوف التمهيديّة، لذا، كانا يفيدان من مسكن عمل موقَّت في حرم الكليّة. إذًا، غالبًا ما كنتُ أنتهي قابعًا هنا. مُقابل بضع جولات مجّانيّة من ألعاب الفيديو، كنتُ أساعد دينو بين الحين والآخر في ترتيب القبو أو في تحضير الكاسترد المثلَّج اللذيذ الذي ورث وصفَته عن أبيه. فيما كانت زوجته غارقة كليًّا في الجريدة، استلم الإيطالي العجوز الفكّة منّي وناولني الشرابَين، لكنَّ شرارة واحدة لم تلتمع في نظرته المُرهَقة.

كان ثلاثة أرباع القاعة فارغًا، وهو أمر غريب، حتّى صبيحة يوم السبت. فسانت-إكزوبيري يعدّ تلاميذ مقيمين كثرًا، وفي أيّامي كانوا في معظمهم يلازمون حرم الليسّيه أثناء عطلة الأسبوع. اقتنصت الفرصة لأتّجه صوب طاولتنا المفضَّلة، أنا وفينكا، أي الطاولة الأخيرة، عند طرف الترّاس، في فيء أغصان الصنوبر الفوّاحة. وبما أنّ النجوم

يرصُد بعضها بعضًا، كانت فينكا تختار الكرسي المواجِه الشمسَ. جلستُ وصينيّتي بين يديّ، في مكاني المعهود، ذلك الذي يُدير ظهره للأشجار. حملتُ فنجان القهوة بيد، وبالأخرى وضعتُ كوب الكوكا بنكهة الكرز أمام الكرسي الفارغ.

كان مكبّر الصوت يبثّ أغنية قديمة لفريق «آر إي أم»، بعنوان «نفد صبري» التي لطالما ظنّ ناس كثر أنّها تتحدّث عن الإيمان والدين، لكنّها في الحقيقة تذكُر بكلّ بساطة عذابات حبٍّ غير متبادَل، حبّ من طرف واحد. فتًى يصرخ ألمه لفتاة مُتيَّم بحبِّها: «أنتِ! انظري، أنا هنا! لِمَ لا ترينني؟». قصّة حياتي بالمُختصر المُفيد.

راح نسيم عليل يُراقِص الأغصان، فيما انهمكت الشمس بنثر شعاعها على ألواح الأرضيّة الخشبيّة. في بضع ثوانٍ، وقعتُ أسير سحر غريب عاد بي إلى أوائل التسعينيّات: قُبالتي، في النور الربيعي المتغلغل بين الغصون، بُعِث طيف فينكا حيًّا وعاد صدى حواراتنا المتحمِّسة يطنّ في أذنيّ. سمعتُها. سمعتُها تحدّثني بشغف عن كتبها المفضّلة: «العاشق» و«العلاقات الخطرة»، فأجبتُها بذكر «مارتن إيدن» و«جميلة السيّد». فحول الطاولة هذه، اعتدنا تجاذب أطراف الحديث ساعات وساعات، عن الأفلام التي شاهدناها بعد ظهر أيّام الأربعاء في سينما «ستار» في مدينة كان أو في كازينو أنتيب. كانت تهوى «درس البيانو» و«ثيلما ولويز». كنتُ أحبّ «قلب في الشتاء» و«حياة فيرونيك المزدوجة».

شارفت الأغنية على النهاية. وضعت فينكا نظّارتها الراي-بان، ومصّت بالقشّة من الكوكا، ثمّ بادرتني بغمزة من خلف العدستين الملوّنتين. تلاشت صورتها إلى أن اختفت كليًّا، واضعةً حدًّا للحظات مُستقطعة ساحرة.

لم نعُد في الصيف، صيفنا الدافئ، لم نعد في العام 1992. أنا الآن وحدي، حزين وتعب، أركض خلف أوهام شبابي المفقود. مضت خمس وعشرون سنةً من دون أن أرى فينكا.

خمس وعشرون سنة من دون أن يراها أحد.

.3

يوم الأحد 20 ديسمبر 1992، لاذت فينكا روكويل، البالغة تسع عشرة سنة، بالفرار إلى باريس مع أستاذها في مادّة الفلسفة، ألكسيس كليمان، البالغ سبعًا وعشرين سنة. كانا يقيمان علاقة سريّة. وقد شوهدا معًا آخر مرّة، صباح اليوم التالي في أحد فنادق الدائرة السابعة، قرب بازيليك سانت-كلوتيلد. ثمّ فُقد أثرهما في العاصمة. لم يعاودا الظهور قطّ. لم يتّصلا، لا بعائلتيهما ولا بأصدقائهما. تبخّرا فحسب، بكلّ ما للكلمة من معنًى.

وهذا كلّ شيء، بحسب الرواية الرسميّة.

أخرجتُ من جيبي مقالة نيس-ماتان الذي كنتُ اطّلعتُ عليها المرّة الألف. هي عادية في الظاهر، خبيثة في المضمون، إذ تحتوي معلومة ذات عواقب مأسويّة، معلومة قد تُعيد قلب كلّ المعادلة في شأن ما يعرفه الجميع عن القضيّة. فمجتمع اليوم لم يعُد يُقسِم إلّا بالحقيقة والشفافيّة، بيد أنّ الحقيقة نادرًا ما تكون كما تبدو عليه، وفي هذه الحالة بالذات، لن تعود بالطمأنينة ولا بالعدل والإنصاف، بل ستحمل معها البلاء والتشهير والتنكيل، ويذهب ضحيّتها البشر.

– آه! عفوًا سيّدي!

بضربة واحدة، أطاح تلميذ بحقيبة ظهره كوب الكوكا وهو يمرّ بين الطاولات. بيد أنّ سرعة بداهتي سمحت لي بالتقاط الكوب قبل أن يتحطّم. رحتُ أمسح الأضرار عن الطاولة، مستعينًا بكومة من

المناديل الورقيّة، لكنّ الشراب انتثر على بنطالي. اجتزتُ المقهى متّجهًا نحو المراحيض. استغرقتُ خمس دقائق بالتمام والكمال لأنجز أخيرًا مهمّة التجفيف. فمن الأفضل ألّا أصل إلى لقاء قدامى التلاميذ بمظهر الذي بال في سرواله.

عدتُ أدراجي لأستعيد سترتي التي بقيت معلّقة على ظهر الكرسي. عندما ألقيتُ نظرة على الطاولة، شعرتُ بقلبي يختلج. أثناء غيابي، ثمّة من طوى نسخة المقالة ووضع فوقها نظارة راي-بان شمسيّة، بعدستين ملوّنتين. تُرى مَن صاحب هذا المقلب الرديء؟ تلفّتُّ حولي. كان دينو يتحدّث إلى زبون في محاذاة مضخّات الوقود. أمّا هانا فكانت تسقي شتول الجيرانيوم عند الجهة الأخرى من الترّاس. وما خلا عمّال التنظيفات الثلاثة الذين جلسوا إلى البار يأخذون قسطًا من الراحة، كان الزبن القلائل من تلاميذ الليسّيه، يعملون بصمت أمام الماكبوك، أو يدردشون بهواتفهم المحمولة.

اللعنة!...

أمسكت النظّارة بيدي لأتأكّد من أنّني لستُ أهلوس. وحين رفعتُها عن الطاولة، لاحظتُ أنّ ثمّة ما كُتب على قُصاصة الجريدة. كلمة واحدة، خُطَّت بحروف دائريّة ومُتقَنَة:

الثأر.

2

الشاطر والأشرار

مَن تحكَّم في الماضي أمسك بزمام المستقبل.

ألدوس هاكسلي

.1

فور تخطّي الزوّار عتبة الحرم، كانت أوركسترا المدرسة ترحِّب بهم على طريقتها، عازفةً مقتطفات من أغنيات عرفت نجاحًا كبيرًا آنذاك لفرق على غرار «ستونز» و«رايديو هيد» و«يو تو». كانت الموسيقى الشنيعة والحماسيّة في آن، تواكبهم حتّى داخل الليسّيه، إلى ساحة «المارونييه» حيث تُقام فعاليّات النهار.

تُتاخم صوفيا-أنتيبوليس بلدات عـدّة، بما فيها «أنتيب» و«فالبوني»، وغالبًا ما يعرّف عنها بأنها وادي السيليكون الفرنسي. ولطالما شكّلت متنفّسًا أخضر وسط كتلة الخرسانة الخانقة في كوت دازور. فقد أتـت ألـوف الشركات الناشئة أو مجموعات الأعمال العملاقة المختصّة في أحدث قطاعات التكنولوجيا الحديثة لتتخذ لها مقرًّا وسط غاباتها الصنوبريّة الممتدّة في مساحة ألفَي هكتار. كان المكان يتحلّى بما يكفي من المزايا ليجتذب كبار الإداريّين من

سائر أنحاء العالم: شمس ساطعة على مدار السنة تقريبًا، وجوار زُرقة المُحيط، ومراكز التزلُّج في «مركانتور»، والنوادي الرياضيّة، ومدارس دوليّة رفيعة المستوى يُعتبر ليسّيه سانت-إكزوبيري رأس حربتها. أي ببساطة، قمّة الهرم التربوي في مقاطعة «ألب-ماريتيم»، والمؤسّسة التي يطمح الأهل كافّة إلى تسجيل أولادهم فيها، لتحقيق المستقبل الزاهر الذي يعد به شعارها: «المعرفة هي المقدرة».

بعدما تجاوزتُ المحرَس، واصلت سيري في محاذاة المُجمَّع الإداري وصالة الأساتذة. بدأت مباني المدينة المدرسيّة، التي شُيّدَت في أواخر الستينيّات، تفقد رونقها حاليًا، لكنَّ الموقع بأكمله لا يزال استثنائيًّا مذهلًا. فقد استغلّ المهندس المعماري بذكائه وحذاقته الإطار الطبيعي الفريد الذي تقدّمه بلدة «فالبوني». كان النسيم عليلًا صباح ذلك السبت، فيما اصطبغت السماء بالأزرق الضارب إلى الفيروزي. بين غابة صنوبر وبَراح، وبين منحدرات صخريّة وتضاريس وعرة، بانت المكعّبات والأشكال الهندسيّة المتوازية السطوح من فولاذ وإسمنت وزجاج، متناغمة منسجمة مع المشهد الطبيعي المليء بالتلال والوديان. وفي الأسفل، شبه مخفيّة خلف ستار الأشجار، اختبأت مجموعة مُلوَّنة من المباني الصغيرة بطابقين تتوسّطها بحيرة كبيرة. مباني المدرسة الداخليّة التي يحمل كلٌّ من أقسامها اسم أحد كبار الفنّانين ممّن أقاموا يومًا في كوت دازور: بابلو بيكاسو، مارك شاغال، نيكولا دو ستايل، فرنسيس سكوت فيتزجيرالد، سيدني بيشيت وغراهام غرين...

وأنا أيضًا أقمتُ هنا بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة من عمري. عشتُ هنا، في مسكن العمل الموقَّت الذي شغله والداي آنذاك. ما زالت ذكريات تلك الأيام حيّة داخلي. خصوصًا، ذلك الانبهار الجميل الذي كان يعتريني كلّ يوم عندما أتصبّح بغابة الصنوبر.

لطالما تأمّلت هذا المنظر الأخّاذ من غرفتي عندما كنتُ مُراهقًا، وها أنا أتأمّله اليوم أيضًا: سطح البحيرة المتلألئ، والجسر الخشبي العائم، ومراسي الـزوارق. بعد عقدين من عمري أمضيتهما في نيويورك، توصّلتُ إلى إقناع نفسي بأنّني أفضّل زرقة سماء منهاتن الحادّة على أنشودة ريح الشمال الباردة والزيزان، وصخب الحياة في بروكلين وهارليم المكتظّتين، على أريج الكينا واللافندر. لكن، في النهاية، أما زال هذا صحيحًا؟ رحتُ أتساءل وأنا أدور حول الأغورا (مبنًى زجاجي شُيّد أوائل التسعينيّات حول المكتبة، ويتضمّن مسارح رومانية عدّة، إضافةً إلى صالة سينما). ثمّ مررتُ أمام الصفوف، قاعات التدريس التاريخيّة، عبارة عن أبنية من حجر الطوب الأحمر مستوحاة من الفنّ القوطي وتذكّر ببعض الجامعات الأميركيّة. تلك الأبنية كانت قديمة جدًّا، بل نقيض التناغم الهندسي في المشهد الكلّي، بيد أنّها لطالما شكّلت فخر الليسّيه، فهي تمنح المدرسة صدقيّة رابطة اللبلاب[1]، والأهالي شرف إرسال أولادهم إلى «هارفارد الكوت دازور».

– إذًا يا توماس دو غاليه، هل تبحث عن موضوع يلهمك لتكتب روايتَك المقبلة؟

.2

فاجأني الصوت الآتي من الخلف، فاستدرتُ فورًا لأرى قَسَمات ستيفان بيانيلي الجذلى. كان شعره طويلًا، وسكسوكته بشاربين، ونظّارته مستديرة العدستين مثل نظّارة جون لينون، وقد تدلّت من كتفه حقيبة-جعبة. احتفظ صحافي نيس-ماتان بملامح التلميذ الذي كانه أمس مع فارق بسيط: كان التيشيرت الذي يرتديه تحت جيليه

[1] مجموعة مؤلّفة من ثماني جامعات خاصّة في الشمال الشرقيّ للولايات المتّحدة الأميركيّة، وهي من أقدمها وأفخمها وأرقاها في البلاد.

المُراسِل مزيّنًا برمز «Phi» الشهير، رمز فرنسا العاصية، وحزب جان-لوك ميلانشون.

– مرحبًا ستيفان، أجبته وأنا أصافحه.

مشينا بضع خطوات معًا. كان بيانيلي في سنّي، ومِثلي أنا كان من هنا. فقد تعلّمنا معًا، في الصفّ عينه، حتّى الثانوي الثالث. أذكُره ثرثارًا بامتياز، ولامعًا في فنّ الخطابة مع مهارة متقدِّمة في الجَدَل الشكلي غالبًا ما أوقع أساتذتنا في ورطات. كان من تلامذة الليسّيه القلائل الذين يتمتّعون بالوعي السياسي. بعد البكالوريا، ومع أنّ نتائجه كانت تخوِّله دخول سنة أولى تمهيديّة في العلوم السياسيّة، في سانت-إكزوبيري، إلّا أنّه فضّل متابعة دراسته في كليّة الآداب في نيس. كليّة كانت بحسب والدي، «تُصنِّع عاطلين من العمل»، وبحسب والدتي والأكثر جذريّة، «بؤرة متسكِّعين يساريّين». لكنّ بيانيلي لطالما أخذ على عاتقه جانبه التمرُّدي هذا. ففي كارلون – حرم كليّة الآداب – راح يماطل مُسوِّفًا بين صندوق التعاضد الوطني لطلّاب فرنسا وحركة الشباب الاشتراكي، ليشهد أولى لحظات أمجاده ذات مساء من ربيع العام 1994، خلال أحد برامج قناة فرانس 2، «الغد للشباب». برنامج قدّمه ميشال فيلد، وقد أتاح فرصة الكلام مباشرةً عبر الأثير وعلى مدى ساعتين أو أكثر، لعشرات الطلّاب المُعادين قانونَ الحدّ الأدنى لأجور الشباب، الذي حاولت حكومة بالادور فرضه آنذاك. كنتُ قد عاودتُ أخيرًا مشاهدة البرنامج عبر موقع المعهد الوطني للسمعيّات والبصريّات، وقد أذهلتني رباطة الجأش التي أظهرها بيانيلي. الواقع أنّه سُلّمَ المذياع مرّتين فاستغلّ الوضع لمواجهة شخصيّات محنَّكة مثل آلان مادلين وبرنار تابي بأسئلة محرجة، وتوبيخها شرّ توبيخ. عنيد، بل متمرِّس في العناد، يأبى الإذعان لأحد.

– ما رأيك في انتخاب ماكرون؟ رماني بالسؤال على الفور.

(إذًا، ما زال يثرثر مسهبًا في مجال السياسة!) إنّه خبر سارّ لأمثالك، أليس كذلك؟

– تعني الكتّاب أمثالي؟

– لا، الأثرياء الفاسقين! أجابني والمكر يلتمع في عينه.

كان بيانيلي صاحب طُرفة، ولكنه سيّئ النيّة في الأغلب، ومع ذلك كنتُ أستلطفه. كان تلميذ سانت-إكزوبيري الوحيد الذي التقيتُه مجدّدًا ومرارًا، فكلّما أصدرتُ رواية، هرع ليجري مقابلة صحافيّة معي. بحسب علمي، لم يطمح يومًا إلى مستقبل زاهر في الصحافة الوطنيّة، بل فضّل أن يبقى صحافي المهمّات والميادين كلّها، «سكّينًا سويسريًّا» كما كان يصف نفسه بنفسه. ففي نيس-ماتان، يستطيع أن يكتب حول أيّ موضوع يحلو له – سياسة، وثقافة، وحياة المدينة – وهو يقدِّر تلك الحريّة فوق كلّ شيء. لكنّ تحمّل مسؤوليّاته كصائد سباقات صحافيّة وصاحب قلم يهابه الجميع، لم يمنعه من أن يكون رجلًا نزيهًا. لطالما قرأتُ وباهتمام كبير تقاريره حول رواياتي، فهو يُتقِن القراءة بين السطور. لم تكن مقالاته مفعمة بالمديح طوال الوقت، ومع ذلك، عندما يبدي تحفّظًا ما، لا ينسى أبدًا أنّ الرواية تختبئ خلفها – والقول يصحّ أيضًا عن الأفلام أو المسرحيّات – سنوات من العمل الدؤوب، والشكوك، والمراجعات، وإعادة النظر، يمكن نقدها، وإنّما من الغرور والوحشي أن نقضي عليها بجرّة قلم. «إنّ أسوأ الروايات تمتلك قيمة أكبر من قيمة النقد اللاذع الذي يصفها بالسوء»، أسرّ لي ذات يوم، وقد أضفى صيغة أدبيّة على العبارة الشهيرة التي أطلقها أنتون إيغو، ناقد الفيلم «راتاتوي».

– دعنا من المزاح، لِمَ أنتَ هنا، سيّدي الفنّان؟

كان الصحافي يجسّ النبض، رغم تظاهره بعدم التدخُّل، فيرشقني بتلميحاته، فيما يهمّ بتوجيه ضربته القاضية. هو يعرف نتفًا من ماضيّ. وربّما يستشفّ توتّري فيما أقلِّب في جيبي نظّارة فينكا والتهديد الذي تلقّيته منذ ربع الساعة.

– لا ضرر في العودة إلى الجذور، لا؟ مع التقدّم في السنّ، نُـ...

– كفّ عن الهراء هذا، قاطعني مقهقهًا هازئًا. اجتماع قدامى التلامذة، هذا أكثر ما تمقتُه يا توماس. انظُر إليكَ، بقميصك من ماركة «شارفيه» وساعتك من طراز «باتيك فيليب». لن تقنعني بأنّك تحمّلت عناء السفر من نيويورك إلى هنا، فقط لتنشد نشيد غرندايزر وتقضم السكاكر برفقة فتيان تحتقرهم.

– أنتَ مخطئ تمامًا. لا أحتقر أحدًا.

وكنتُ أقول الحقيقة.

رمقني الصحافي بارتياب. لقد تبدّلت نظرته وإنّما بشكل غير ملحوظ. راحت عيناه تلمعان كأنّه أطبقَ على فريسة.

– فهمتُ، قال أخيرًا وهو يهزّ رأسه. جئتَ إلى هنا لأنّكَ قرأتَ مقالتي!

جوابه هذا خطف أنفاسي، كأنّما تلقّيتُ ركلة مباشرة في معدتي. كيف له أن يعلم؟

– عمّ تتحدّث يا ستيفان؟

– لا تدّعِ البراءة.

تبنّيتُ نبرة لامبالية:

– أنا أقيم في تريبيكا، وأقرأ صحيفة «نيويورك تايمز» وأنا أرتشف قهوتي، وليس خرقتك المحليّة البالية. إلى أيّ مقالة تلمّح؟ تلك التي تذكر سنوات المدرسة الخمسين؟

أمام تكشيرته وحاجبيه المقطّبين، أدركتُ أنّنا لا نتحدّث عن الموضوع عينه. بيد أنّ ارتياحي لم يدم، إذ سرعان ما بادر إليّ:

– ألمَح إلى المقالة حول فينكا روكويل.

هذه المرّة، صُعِقتُ!

– إذًا، هذا صحيح، لستَ على علم بالأمر! قال مُستنتجًا.

– لكن... على علم بماذا؟ اللعنة!

هزّ رأسه مجدّدًا، ثمّ أخرج من جعبته دفتر ملاحظاته.

– عليّ العودة إلى العمل الآن، قال فيما نحن ندنو من الساحة الرئيسيّة. لديّ مقالة أحرّرها للخرقة المحليّة.

– مهلًا ستيفان!

كان الصحافي مسرورًا بالوقع الذي خلّفه، فتركني وهو يومئ لي بحركة من يده:

– نتحدّث لاحقًا.

راح قلبي يخفق بشدّة في صدري. ثمّة أمر واحد أكيد: لن تكون المفاجأة الأولى ولا الأخيرة.

.3

كانت ساحة «المارونييه» تهتزّ متراقصة على إيقاع الأوركسترا وأحاديث المجموعات الصغيرة التي زادت حماستها. ولئن وُجدت أشجار شامخة هنا في الماضي، فلا بدّ من أنّ الطفيليّات قد أودَت بقممها. صحيح أنّ المكان احتفظ باسمه، لكنّه بات الآن مليئًا بأشجار نخيل من جزر الكناري، والتي يذكّر قوامها النحيل بأوقات العطل وحياة التكاسل واللهو. تحت خيم كبيرة من القماش الخام البيج، أُعِدّت مائدة متنوّعة، وصُفّت الكراسي وعُلّقت أكاليل من الزهر الملوّن. وعلى المنصّة المكتظّة بالناس، حركة مكّوكيّة من ندل بقبّعات القشّ

الأبيض والجيليهات البحريّة، منهمكين في تزويد المدعوين بشتّى أنواع المشروبات.

التقطتُ كأسًا عن صينيّة. لم أكد أذُقها حتّى بصقتُ مزيجها المُريب في حوض للزهور. لمناسبة الكوكتيل، لم تجد الإدارة أفضل من خليط مقزِّز من ماء جوز الهند والشاي المثلَّج بنكهة الزنجبيل. دنوتُ من المائدة. هنا أيضًا، من الواضح أنّها اختارت أنموذج المائدة الخفيفة والصحّيّة. كأنّنا في كاليفورنيا أو في بعض نواحي بروكلين، حيث تسود التغذية الصحّيّة بامتياز. فلننسَ الأطباق التي تشتهر بها مدينة نيس من الخضار المحشوّة، وزهرة الكوسى المقليّة، وفطيرة يالفيتزيانو بالأنشوفة والزيتون. لم ألمح سوى شرائح خضار لا لون لها، إلى جانب أكواب زجاجيّة من الكريما الخفيفة وقطع خبز محمَّص مع الجبن كُتب عليها طبعًا: «خالٍ من الغلوتن».

ابتعدتُ من الطاولات وصعدتُ الدرجات الكبيرة ذات الإسمنت المصقول، والتي كانت تحيط بجزء من الساحة، على شكل الأوديتوريوم. وضعتُ نظّارتي الشمسيّة وهناك في خباء موقعي المُطلّ، رحت أراقب زملائي بفضول.

كانوا يتبادلون التهاني، وتربيتات الظهر، والقبلات، ويعرضون أجمل صور لأطفالهم أو أولادهم المراهقين، كما يتبادلون أيضًا عناوين البريد الإلكتروني لكلّ منهم، وأرقام هواتفهم المحمولة، أو يضيفون أسماء بعضهم بعضًا إلى لائحة «الأصدقاء» على مواقع التواصل الاجتماعي. لم يخطئ بيانيلي قَطّ: كنتُ خارج هذا كلّه. كنت عاجزًا عن التمثيل حتّى. أوّلًا، لأنّني ما كنتُ أشعر بأيّ حنين حيال سنواتي الدراسيّة في الليسّيه. وثانيًا، لأنّني كنتُ مفطورًا على الوحدة والانعزال، وفي جعبتي دائمًا كتاب، لا حساب فايسبوك. لأنّني كنتُ طائر شؤم أسود، ومُفسد متعة، لا يتكيّف مع توقّعات

العصر المنهمك في النقر على زرّ «أعجَبني». وفي إيجاز، لأنّ الزمن الذي يمرّ بغمضة عين لم يقلقني يومًا. فأنا لم أرتع ولم أرتعب حين نفختُ شموعي الأربعين، ولا حتّى حينَ بدأت خيوط الشيب تُزهِر على صدغيّ. ولأكون صادقًا، انتظرتُ حلول بوادر الشيخوخة بفارغ الصبر، فهذا يعني أن أرسم مسافة بيني وبين ماضٍ لا يشبه الجنّة المفقودة في أيّ شيء، بل يبدو محور مأساة عنيدة، مأساة حاولتُ الهروب منها طوال حياتي.

.4

الملاحظة الأولى التي تبادرت إليّ وأنا أتأمّل القدامى من التلاميذ، كانت أنّ معظم الذين تكبّدوا عناء المجيء، يعيشون في الأوساط الميسورة، حيث يحرُص المرء على عدم اكتساب وزن. ولكن في المقابل، كان الصلع، أو بوادره، الآفة الرقم واحد عند الذكور. أليس هذا نيكولا دو بوا؟ يبدو أنّه لم يوفَّق في عملية زرع الشعر. أمّا أليكساندر موسكا فكان يحاول إخفاء صلعه تحت خصلة طويلة أسدلها من طرف إلى طرف من جمجمته. أمّا رومان روسيل، فقد اختار الحلّ الجذري: حَلَقَ شعر رأسه كلّه.

فاجأتني ذاكرتي إيجابًا: بين المدعوّين من أبناء جيلي، استطعتُ ربط كلّ وجه باسم صاحبه. من بعيد، كان مشهدًا طريفًا، بل ومذهلًا أحيانًا. فبالنسبة إلى البعض، كان هذا الاحتفال خير وسيلة للثأر من الماضي. مانون أغوستيني على سبيل المثال. لقد تحوّلت التلميذة البشعة والخجولة امرأة حسناء تمشي وتتكلّم بثقة واعتداد، شأنها شأن كريستوف ميركوفيك الذي خضع للتحوُّل عينه. فالتلميذ الكادِح، مهووس المعلوماتيّة، ولو أنّ اللفظة هذه لم تكن تستعمل آنذاك، لم يعد يُشبه كبش المحرقة الذي كانت بثور حَبّ

الشباب تملأ وجهه، وصاحِب الوجه الشاحِب الحالِم كما انطبع في ذاكرتي. وهذا ما سرّني. سررتُ حقًّا من أجله. ها هو يتبجّح على الملإ بنجاحه، من دون أيّ عُقدة، على الطريقة الأميركيّة، متباهيًا بمزايا السيّارة «تيسلا» خاصّته، متحدِّثًا بالإنكليزيّة إلى حبيبته التي تصغره بعشرين سنة، وتجتذب أنظارًا كثيرة.

في المقابل، قد جار الدهر على إيريك لافيت وفق ما يبدو. لطالما تذكّرته كشبه إله. أو ربّما نوع من الملاك الأسمر: آلان ديلون في الفيلم «الظهيرة القرمزية». أمّا اليوم، فقد بات المَلِك إيريك مجرّد امرئ كئيب، منتفِخ البطن، مُجدَّر الوجه، أشبه بهومير سمبسون أكثر منه بطل الفيلم «روكو وإخوته».

كان هيرفي وكاتي لوساج قد أتيا يدًا بيد. بدآ يتواعدان منذ الصفّ الثانوي الثاني-العلمي، وقد تزوّجا مع انتهاء أعوام الدراسة. والواقع أنّ كاتي (وهو اسم تدليل أطلقه زوجها عليها) كانت تُدعى كاترين ديلانو. تذكَّرتُ ساقيها الساحرتين آنذاك – ما زالتا ساحرتين على الأرجح، مع أنّها استبدلت تنّورتها القصيرة الاسكتلنديّة بطقم من سترة وبنطال – ولغتها الإنكليزيّة الممتازة المنمّقة بالصيغ الأدبيّة. لطالما تساءلتُ: كيف لفتاة مثلها أن تقع في حبّ هيرفي لوساج. كان آنذاك ملقَّبًا بـ«ريجيس» – وكانت تلك الحقبة الذهبيّة لبرنامج «المغفّلون» وشعاره الشهير «ريجيس مُجرَّد مغفَّل» – كان هيرفي عادي المظهر، بليد الذهن، يُمطر الآخرين بملاحظات غير لائقة، وتعليقات غير ملائمة. ويبدو أنّه كان يُدرِك أنّ حبيبته تتمتَّع برُقي يفوق مئة ضعف ما قد يحلُم هو بأن يتمتّع به يومًا. وها هوذا ريجيس اليوم، بعد خمس وعشرين سنة، في سترته المصنوعة من الجلد السويدي الليّن وتعابير وجهه القَنوع الراضية، يبدو مجرّد مغفّل،

أكثر من ذي قبل، بل وليزيد وضعه سوءًا، أتى مُعتمرًا كَسكيت فريق باريس سان جيرمان. لا تعليق.

لكن في ما يخصّ الموضة والأزيـاء، يمكن القول أنّ فابريس فوكونييه هو مَن يفوز بالجائزة الأولى. كان فابريس، الملقّب بالنسر، يعمل طيّارًا في الخطوط الجويّة الفرنسيّة، وقد حضر متبخترًا بزيّ قبطان الطائرة الرسمي. رحتُ أتأمّله يستعرض قوامه وسط كومة الشعور الشقراء والكعوب العالية والصدور المُجمَّلة. والواقع أنّ الفتى الوسيم آنفًا، لم يُهمل مظهره مع التقدّم في العمر: ما زالت بنيته رياضيّة، لكنّ شعره المخطّط بالشيب ونظرته الملحّة وغروره الجلي، دمغَتهُ منذ الآن بمواصفات «الكهل الوسيم». كنتُ قد صادفته منذ أعـوام، في إحـدى الرحلات الجوّيّة الوجيزة. آنـذاك، ظنّ حقًّا أنّني سأطير فرحًا لأنّه دعاني إلى مقصورة القيادة لأشهد عمليّة الهبوط، كأنّني طفل في الخامسة من عمره...

.5

– آه تبًّا، شاخَ عزيزنا «النسر»!

غمزَتني فاني براهيمي قبل أن تقبّلني بحرارة. هي أيضًا تغيّرت للغاية: كانت فاني متحدِّرة من أصـول قبائليّة، شقراء منمنمة، ذات عينين فاتحتين وشعـر قصير، وقـد انتعلت حـذاء جميلًا، دقيق الكعب، وارتدَت جينز ضيّقًا جدًّا أبرز انحناءات ساقيها. كان الـزرّان المفتوحان في أعلى قميصها، يكشفان محاسنها، ومعطفها الترينشكوت المشدود على خصرها يضفي بعض الطول على قامتها. في حقبة أخرى، قد عرفتُها من هواة الروك وأزيائه، تجرّ خطاها في حذاء «دكتور مارتنز» من الجلد المهترئ، غارقةً في قمصان فضفاضة لا شكل لها، ومُرقّعة وجينزات 501 ممزّقة.

كانت فاني أكثر مهارة وحنكة منّي لأنّها نجحت في إيجاد كأس شمبانيا.

– في المقابل، لم أنجح في الإطباق على علبة فشار، أسرّت لي وهي تجلس قربي على الدرجة، كأنّنا نهمّ بمشاهدة فيلم على الشاشة الكبرى.

كما في أيـام الليسّيه، كانت تعلّق في رقبتها كاميرا، وقد شرعت تلتقط صورًا للحشد.

كنتُ على معرفة بفاني منذ الأزل. فماكسيم وأنا وهي ارتدنا معًا المدرسة الابتدائيّة في حي «لا فونتون»، تلك التي كانت تُدعَى «المدرسة العتيقة»، بمبانيها الجميلة العائدة إلى الجمهوريّة الثالثة، والتي تختلف كلّيًا عن مباني مدرسة رينيه-كاسين الجاهزة الصُنع، والتي افتتحَتها مدينة أنتيب في وقت لاحق. أيّام المراهقة، كانت فاني صديقتي المقرَّبة. كانت الصبيّة الأولى التي واعدتها في الثانويّة، في الصفّ المتوسّط الرابع على وجه التحديد. ذات سبت، في فترة بعد الظهر، ذهبنا إلى السينما لنشاهد فيلم «رجل المطر». وفي طريق العودة، في الباص الذي كان يقلّنا إلى «لا فونتون»، وبينما دسّ كِلانا في أذنه إحدى سمّاعتَي جهاز الووكمان خاصّتي، تبادلنا بضع قبلات خرقاء. تلتها أربع أو خمس قبلات واثقة بين أغنيتَي «بما أنك ذاهبة» و«لعلّكِ تكونين سعيدة». بقينا معًا حتّى الصفّ الثانوي الثاني، وافترقنا ولكنّنا بقينا أصدقاء. كانت من أولئك الفتيات الناضجات والمتحرِّرات اللواتي بدأن منذ الثانوي الثالث يغازلنَ الفتيان، من هنا وهناك، من دون أن يتعلّقنَ بأحد. الأمر النادر في سانت-إكزوبيري، وقد أخذ كثر يدينونها. أمّا أنا فكنتُ أحترمُها إذ لطالما جسّدَت في نظري شكلًا من أشكال الحرّيّة. كانت من صديقات فينكا، وكانت تلميذة لامعة وفتاة لطيفة، حسنات ثلاث

كنتُ أقدّرها فيها. بعدما أنهت دراسة الطبّ، راحت تتنقَّل بين مداواة جرحى الحرب والمهمّات الإنسانيّة. وقد التقيتُها مجدّدًا منذ أعوام خلَت، مصادفة، في فندق في بيروت، حيث كنتُ أزور معرض الكتاب الفرنكوفوني، فأسرّت لي بأنّها تنوي العودة إلى فرنسا.

– هل لمحتَ أساتذة قدامى؟ سألتني.

بحركة من ذقني، أشرتُ إلى الأستاذين ن. دونغ وليمان، إضافة إلى السيّدة فونتانا: أساتذة الرياضيّات والفيزياء والعلوم الطبيعيّة، بالتسلسل.

– مجموعة متناسقة من الساديّين، أردفت فاني وهي تلتقط لهم صورًا.

– لا يسعني أن أغالطكِ في هذا. هل تعمَلين في أنتيب؟

هزّت رأسها إيجابًا.

– منذ عامين. أعمل في قسم الأمراض القلبيّة في مستشفى «لا فونتون». أعالِج والدتكَ هناك. ألم تُخبرك؟

أمام صمتي المطبق، فهمَت أنّني لم أكن على علم.

– يتابعونها هناك مُذ تعرَّضت لتلك الجلطة البسيطة، لكنّها بخير الآن، أكّدت فاني.

صُعِقت.

– والدتي وأنا، حسنًا، إنّها مسألة معقَّدة، قلتُ مُتجاهلًا الموضوع.

– هذا ما يقوله الأبناء كافّة، لا؟ سألت من دون أن تحاول معرفة المزيد.

ثمّ هتفَت وهي تشير بإصبعها إلى معلِّمة أخرى:

– هي، كانت رائعة بِحقّ!

مرّت بضع ثوان قبل أن أتعرّف إليها. كانت الآنسة دوفيل. معلّمة أميركيّة تدرّس الأدب الإنكليزي في الصفّ التمهيدي-الأدبي.

– وما زالت جذّابة أيضًا! همست فاني. نسخة طبق الأصل عن كاثرين زيتا جونز!

كانت صاحبة قامة فارعة، تُناهِز المتر والثمانين سنتيمترًا. كانت تنتعل حذاء بكعب عالٍ، وتلبس بنطالًا جلديًّا ضيّقًا وسترة من دون ياقة، وكان شعرها طويلًا يتدلّى على كتفيها خصلًا قاسية ومستقيمة كالعيدان. بقوامها النحيل الممشوق، كانت تبدو أصغر سنًّا من بعض تلميذاتها السابقات. كم كان عمرها حين وصلت إلى الليسّيه؟ خمسًا وعشرين؟ أو ثلاثين سنة في الأكثر. بما أنّني كنت آنذاك في الصفّ التمهيدي-العلمي، لم تكن معلّمتي، لكنّني أذكر أنّ التلاميذ جميعهم كانوا يقدّرونها، وتحديدًا بعض الفتيان الذين كانوا يجلّونها، بل ويبجّلونها نوعًا ما.

واصلنا أنا وفاني بضع دقائق مراقبة زملائنا السابقين ونحن نستعيد ذكرياتنا. وفيما كنتُ أستمع إليها تتحدّث، تذكّرتُ سبب تقديري إيّاها. فهي توحي بالإيجابيّة والحيويّة. كما أنّها تتمتّع بحسّ الدعابة، الأمر الذي يزيد حسناتها. مع ذلك، لم تكن انطلاقتها في الحياة سهلة. فوالدتها كانت شقراء جميلة، كامدة البشرة، وصاحبة نظرة رقيقة وقاتلة في آن، وكانت تعمل بائعة في أحد متاجر الألبسة في جادّة الكروازيت في مدينة كان. كنّا لا نزال في الصفّ التمهيدي، حين هجرت زوجها وأولادها الثلاثة لتلتحق بربّ عملها في أميركا الجنوبيّة. وقبل أن تقبلها المدرسة الداخليّة في سانت-إكزوبيري، عاشت فاني عشر سنوات تقريبًا مع والدها، الذي أصيب بالشلل نتيجة حادث عمل في إحدى الورش. وقد أقامت فاني ووالدها برفقة شقيقيها الأكبرين – وصدقًا، لم يكونا من العباقرة – في أحد

المساكن الحكوميّة الوضيعة المُتداعية، في شارع فال-كلاريه، الذي لا يظهر البتّة في صفحات دليل أنتيب جوان-لي-بان السياحي.

أطلقَت طبيبة القلب بضع تعليقات ناسفة أخرى، مبتذلة لكن ممتعة («إيتيان لابيت، ما زال يبيت في المواخير»)، ثمّ رمقتني بنظرة وقد ارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيها.

– لقد أعادت الحياة توزيع بعض الأدوار، أمّا أنتَ، فما زلتَ تحتفظ بدورك المعهود. صوّبت عليّ عدسة الكاميرا والتقطت لي صورة من قُرب، فيما واصلت خطابها:

– الأوّل في الصفّ، بورجوازي لائق، نظيف ومُحترَم، بسترته القطنيّة وقميصه الأزرق السماوي.

– بما أنّكِ أنتِ مَن يقول هذا، أدرِك تمامًا أنّه ليس بإطراء.

– أنت مخطئ تمامًا.

– لا تُعجَب الفتيات إلّا بالفتيان الأشرار، لا؟

– بلى، في سنّ السادسة عشرة، لا في الأربعين!

هززتُ كتفيّ باستخفاف، طارفًا بعينيّ فيما رفعتُ يدي أحميهما من الشمس الحادّة.

– هل تبحث عن أحد؟

– ماكسيم بيانكارديني.

– نائبنا الموعود؟ دخّنتُ سيجارة معه قرب الجمنازيوم، حيث ستقام أمسية قُدامى دورتنا. لم يبدُ على عجلة من أمره لإطلاق حملته. تبًّا، هل رأيتَ شكل أود بارادي؟ لقد تغّيرت ملامحها بشكل جذري، المسكينة! متأكّد أنّه ما من فُشار، يا توماس؟ قد أبقى جالسة هنا ساعات. هذا ممتع بقدر مُسلسل «صراع العروش»!

بيد أنّ حماستها بردت فجأةً حين لمحت عاملَين يهمّان بتركيب منصّة صغيرة ومذياع.

– آسفة، قرّرتُ الاستماع إلى الخطابات الرسميّة، قالت لي وهي تقف.

في الجهة المقابلة من المدرّجات، رأيتُ ستيفان بيانيلي يدوِّن ملاحظات في دفتره وهو في خضمّ حوار مع نائب المدير. حين التقت نظراتنا، أومأ صحافي نيس-ماتان إليّ بحركة من يده. حركة تعني على الأرجح «لا تتحرّك، سآتي إليك».

نفضت فاني الغبار عن جينزها وعلى طريقتها الفريدة والخاصّة بها، رمتني بتعليق ناسف أخير:

– أتَعرِف؟ أظنّك أحد الرجال القلائل هنا في هذه الساحة الذين لم أمارس الجنس معهم.

أردتُ أن أجيب بعبارة حاذقة، لكن لم تراود ذهني كلمة واحدة مناسبة، فأقوالها هذه لم تكن تبتغي الطرافة ولا الدعابة، بل كانت كئيبة، مُغالية.

– آنذاك، كنتَ مبهورًا بفينكا، تجثو عند قدميها، أردفَت بعدما تذكَّرت.

– هذا صحيح، اعترفتُ. كنتُ مُغرمًا بها. شأني شأن الجميع هنا، أليس كذلك؟

– أجل، لكنّك لطالما صوّرتَها الصبيّة المثاليّة.

تنهّدتُ. بعد اختفاء فينكا وانكشاف علاقتها الرومانسيّة بأحد أساتذة الليسّيه، ثارت ثائرة الإشاعات والقيل والقال، لتصبح الشابّة نسخة جديدة من لورا بالمر، إنّما مِن كوت دازور. دراما الرعب في بلد بانيول.

– أرجوك فاني، أنتِ أيضًا؟

– كما تشاء. من الأسهل أن تطمر رأسك في الرمل، وتتجاهل الموضوع.

دسّت علبة الكاميرا في حقيبتها، نظرت إلى ساعتها ثمّ ناولتني كأسها، نصف مليئة بالمشروب.

– أناوِب في المستشفى بعد ظهر اليوم. الوقت ينفد وأنا منهكة، وما كان يجدر بي شرب هذا الشيء. إلى اللقاء توماس.

مكتبة t.me/ktabrwaya

6.

كالببغاء، تلت المديرة خطابها الطويل علينا، وكان عبارة عن سلسلة من الكلمات الجوفاء التي يتقنها بعض كبار الإداريّين في حقل التربية الوطنيّة، التي اختصّوا فيها. كانت السيّدة غيرار من أصول باريسيّة، ولم تشغل منصبها هذا منذ وقت طويل. بالتالي، ما كانت على معرفة بالمؤسّسة إلّا نظريًّا، فراحت تسرُد عموميّات تكنوقراطيّة. أخذتُ أتساءل وأنا أستمع إليها عن سبب تغيُّب والديّ. لا بدّ أنّهما تلقّيا الدعوة بوصفهما مديرين سابقين. بحثتُ عنهما وسط الحشود، من دون جدوى، وقد حيّرني غيابهما.

بعدما أنهت مقطعها حول «القيم الكونيّة الشاملة من تسامح وقبول الآخر، ومن تساوي الفرص والحوار بين الثقافات التي تحمل مؤسّستنا التربويّة رايتها منذ البدء»، راحت المديرة تعدِّد «الشخصيّات المرموقة» التي ارتادت الليسّيه ذات يوم. وأنا كنتُ من بين عشرات آخرين. عندما ذُكر اسمي وفاز بالتصفيق، التفتت بعض العيون صوبي. رسمتُ ابتسامة مرتبكة بعض الشيء قبل أن أومئ بحركة خاطفة من رأسي لأشكر أصحابها.

– حسنًا، قضي عليك أيّها الفنّان، أنذرني ستيفان بيانيلي وهو يجلس إلى جانبي. بعد دقائق معدودة، سيأتون إليك بالكتب لتوقِّعها. وسيسألونك عمّا إذا كان كلب ميشال دروكير ينبح بين لقطة وأخرى،

وما إذا كانت آن-صوفي لابيكس تحافظ على لطفها وجذلها متى أُطفئت الكاميرات.

حرصتُ على عدم تشجيع بيانيلي، لكنّه واصل مونولوجه:

– وسيسألونكَ لماذا تركتَ البطل يموت في نهاية رواية «بعض الأيّام برفقتك»، ومن أين تستَلهم و؟...

– أعتقني بعض الوقت يا ستيفان. عن أيّ موضوع أردتَ أن تكلّمني؟ وما قصّة المقالة؟

تنحنح الصحافي، قائلًا:

– ألم تكن في كوت دازور الشهر الماضي؟

– لا، وصلتُ هذا الصباح.

– حسنًا، هل سمعتَ يومًا بما يُعرف بـ«خيّالة مايو»؟

– لا، لكن أتصوّر أنّنا لن نراهم يعدون في ميدان سباق كاني-سور-مير.

– طريف جدًّا. في الواقع، هي ظاهرة طبيعيّة، عبارة عن انخفاض الحرارة يحدث أحيانًا في منتصف الربيع ويتسبّب في فترات صقيع متأخّرة...

أخرج سيجارة إلكترونيّة من جيب سترته وهو يواصل خطبته:

– في فصل الربيع هذا، كانت الأحوال الجويّة مزرية هنا على الساحل. بدايةً، أتانا البرد الشديد، ثمّ انصبّت علينا سيول غزيرة من الأمطار أيّامًا عدّة.

لكنّني سرعان ما قاطعتُه:

– اختصِر يا ستيفان. لن تقرأ عليّ النشرة الجويّة للأسابيع الفائتة!

بحركة من ذقنه، أشار الصحافي إلى المدرسة الداخليّة التي امتدّت مبانيها الملوّنة في البعيد، تلتمع متوهّجةً تحت أشعّة الشمس.

– تعرّضت أقبية عدّة إلى فيضانات.

– ليس بالخبر الجديد. أرأيتَ انحدار الأرض! في أيّامنا حتّى، كان ذلك يحدث مرّة كلّ عامين.

– أجل، لكنّ هذه المرّة ارتفع مستوى المياه حتّى بلغ أروقة المدخل. وقد اضطرّت الإدارة إلى استهلال ورشة ترميم طارئة وإخلاء الطوابق تحت الأرض، بأكملها.

سحب بيانيلي أنفاسًا عدّة من سيجارته، ثمّ نفث نوعًا من البخار برائحة الكريب فروت والفيربينا. مقارنةً بالسيجار الكوبي المعتاد، بدا مشهد الراديكالي الثائر وهو يعبّ نفسًا تلو آخر من نُقاعته العشبيّة مثيرًا للضحك.

– كما أنّ المؤسّسة تخلّصت على وجه التحديد من عشرات خزائن الأمتعة المعدنيّة التي تآكلها الصدأ، والتي كانت مكدَّسة في الأقبية منذ منتصف التسعينيّات. فقد انتدبت شركة مختصّة في المتاع الثقيل، لكي تنقلها إلى مطمر النفايات، لكن قبل أن تبدأ العمل، تلهّى بعض التلامذة في فتحها. ولن تحزر أبدًا ماذا وجدوا فيها.

– أنتَ قُل لي.

أطال الصحافي لحظات التشويق إلى أقصى حدّ ممكن.

– حقيبة جلد رياضيّة، تحتوي مئة ألف فرنك بأوراق من فئتي المئة والمئتين! ثروة مخفيّة هناك منذ أكثر من عشرين سنة...

– إذًا، حضرت الشرطة إلى الليسّيه؟

رحتُ أتخيّل عناصر الشرطة يقتحمون المكان والجلبة الشديدة التي سبّبها تدخّلهم على الأرجح.

– يمكنك القول، نعم! ووفق ما أروي في مقالتي، كانوا متحمّسين إلى أقصى حدّ. قضيّة مزمنة، مال كثير، وليسّيه راقٍ: لم

يحتاجوا إلى مَن يشجّعهم ليمشّطوا المكان تمشيطًا دقيقًا وينقّبوا في كلّ زاوية.

– والنتيجة؟

– لم يُنشر الخبر بعد، لكنّني أعرف أنّهم وجدوا على الحقيبة بصمتَين واعدتين.

– و...؟

– وإحداهما موجودة في سجلّاتهم.

حبستُ أنفاسي، فيما كان بيانيلي يُحضّر طعنته الجديدة. وأمام بريق الحماسة في عينيه، أدركتُ أنّها ستكون موجِعة جدًّا.

– كانت بصمة فينكا روكويل.

طرفتُ عينيّ مرّات عدّة، وأنا أتلّقى الخبر. حاولتُ الخروج بفكرة أو مغزى لكنّ دماغي راح يفتل ويدور من دون جدوى.

– وما هي استنتاجاتك يا ستيفان؟

– استنتاجاتي؟ كنتُ محقًّا منذ البداية! قال الصحافي، وهو يستشيط غيظًا.

إلى جانب السياسة، كانت قضيّة فينكا روكويل هاجس ستيفان بيانيلي الأكبر. فمنذ خمس عشرة سنة، كتب حول الموضوع كتابًا يذكّر بمؤلّفات شوبرت بالعنوان «الصبيّة والموت». كان عملًا تحقيقيًّا حثيثًا، جادًّا ومُوسّعًا، لكنّه لم يكشف أيّ حقيقة مُذهلة حول قضيّة اختفاء فينكا وعشيقها.

– لو أنّ فينكا هربت حقًّا مع ألكسيس كليمان، تابع يقول، لأخذت المال معها! أو في الأقلّ، جاءت تبحث عنه!

وجدتُ تحليله بسيطًا، لا بل سطحيًّا:

– لا شيء يؤكّد أنّه مالها هي في الأساس، قلتُ له. أن تكون بصماتها موجودة على الحقيبة، لا يعني بالضرورة أنّ المال لها.

وافقني الرأي، لكنّه عاد ليردّ بهجوم مضادّ:

– مع ذلك، عليك الاعتراف، إنّه لأمر جنوني. مِن أين أتى هذا المال؟ مئة ألف فرنك! آنذاك كان يُعتبر مبلغًا مهولًا.

لم أفهم يومًا ماهية أطروحته هذه حول قضيّة روكويل، لكن بالنسبة إليه، لم تكن فرضيّة الهروب معقولة. بغياب الأدلّة الملموسة، كان بيانيلي مقتنعًا تمامًا بأنّ عدم ورود أيّ خبر من فينكا، وإنّما يعني أنّها لقيت حتفها منذ زمن طويل. وأنّ ألكسيس كليمان هو مَن قتلها على الأرجح.

– وماذا يعني ذلك على الصعيد القضائي؟

– لستُ أدري، أجابني بعبوس يشوبه شيء من الغموض.

– أُقفل ملفّ التحقيق في اختفاء فينكا منذ أعوام عدّة. وإذا اكتشفوا أيّ دليل حاليًّا، فسيُهمَل، أليس كذلك؟

راح يحكّ لحيته بظهر يده، وهو مستغرق في التفكير.

– ليس بالضرورة. ثمّة مجموعة معقَّدة من الاجتهادات القانونيّة حول المسألة. فاليوم وفي بعض الحالات الاستثنائيّة، لم تعُد مهلة الإهمال وقفًا على ارتكاب الفعلة، بل على اكتشاف جثّة.

فيما أخذ يحملق فيّ، قرّرتُ تحدّيه ونظرتُ مباشرةً في عينيه. صحيح أنّ بيانيلي كان من صيّادي السبق الصحافي، إلا أنّني كنت أتساءل عن مصدر هوسه بتلك القضيّة القديمة. فوفق ما أذكر، لم يكن من أصدقاء فينكا المقرَّبين. لم يعاشر أحدهما الآخر، ولم يكن هناك قواسم مشتركة بينهما.

كانت فينكا ابنة ممثّلة متحدِّرة من أنتيب، هي بولين لامبير. صهباء فاتنة ذات شعر قصير – نسخة شبيهة وشبه متكاملة عن مارلين جوبير – أدّت في السبعينيّات أدوارًا ثانويّة في بعض أفلام إيف بواسيه وهنري فيرنوي. ذروة مسيرتها السينمائيّة: مشهد من

عشرين ثانية تظهر فيه شبه عارية مع جان-بول بلموندو في فيلم «الحظّ السيّئ». في العام 1973، في أحد ملاهي جوان-لي-بان، تعرَّفت بولين بمارك روكويل، سائق سباق أميركي قاد سيّارة فورمولا 1 وقتًا قصيرًا لدى لوتوس، وشارك مرارًا في سباق إنديانا بوليس الـ 500 ميل. لكن، وفي شكل خاصّ، كان روكويل الابن الأصغر والأخير لسلالة شديدة النفوذ في ماساتشوستس، وصاحب الأسهم الرئيسيّة في سلسلة سوبرماركت شهيرة جدًّا في الشمال الشرقي، إذ أدركت أنّ مسيرتها المهنيّة في تعثُّر، لحقت بولين بحبيبها في الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث تزوّجا. وفي خضمّ تلك المغامرة، ولدت فينكا، ابنتهما الوحيدة، في بوسطن، حيث أمضت سنواتها الخمس عشرة الأولى قبل أن تُسجَّل في سانت-إكزوبيري عقب وفاة والديها المأسويّة. فقد كان الزوجان روكويل من الركّاب الذين لقوا حتفهم نتيجة كارثة جويّة خلال صيف 1989. انفجرت الطائرة بفعل هبوط مفاجئ في الضغط الداخلي، أثناء إقلاعها من مطار هاواي. يومذاك، انطبعت المأساة الأليمة في الأذهان، فقد فُتح مستودع الأمتعة عَرَضًا، ما أدّى إلى تمزُّق صفوف المقاعد الستّة في مقصورة رجال الأعمال، وانقذافها من الطائرة. أودَت الحادثة باثنَتي عشرة ضحيّة مرّة واحدة ليس إلّا، يمكن القول أنّ الأثرياء قد «شربوا الكأس حتّى الثمالة» في مقصورتهم الفخمة. دُعابة لم تكن لتزعج بيانيلي بالطبع.

إذًا، كانت فينكا تُجسِّد في الظاهر، سواء من خلال جذورها العائليّة أو سلوكها، كلّ ما يمقته بيانيلي: فتاة سرّ أبيها، مدلَّلة، من الطبقة البورجوازيّة الأميركيّة الراقية، وريثة نُخبويّة وألمعيّة، تعشق الفلسفة الإغريقيّة وسينما تاركوفسكي، وتهوى شِعر لوتريامون. فتاة متباهية بعض الشيء، ذات جمال ليس من العالم، لا تعيش في

العالم، بل في عالمها. فتاة تكاد في النهاية تحتقِر، ولو من غير قصد، الشبّان أمثاله.

– أهذا ردّ فعلك، اللعنة؟! وبّخني فجأةً.

تنهّدتُ، وأنا أهزّ كتفيّ، متظاهرًا باللامبالاة.

– هذا كلّه بات من الماضي البعيد يا ستيفان.

– بعيد؟ لكنّ فينكا كانت صديقتك. كنتَ تجثو عند قدميها، كنتَ...

– كنتُ في الثامنة عشرة، مجرَّد ولد. وقد طويت الصفحة منذ زمن بعيد.

– هل تسخر منّي حضرة الفنّان؟ لم تطوِ شيئًا. قرأتُها كلّها، رواياتك: فينكا موجودة في كلّ سطر. نراها في معظم بطلاتك!

لقد بدأ يزعجني حقًّا.

– علم نفس مهترئ، بل يليق بزاوية علم التنجيم في جريدتك الهابطة!

الآن وقد تصاعدت حدّة النقاش، بدا بيانيلي كَمَن تلقّى شحنة كهربائيّة. كانت حماسته جليّة في بريق عينيه. لقد أصابته فينكا بالجنون، كما فعلت برجال كثرٍ قبله من دون شكّ، ولو لأسباب أخرى.

– قُل ما تشاء يا توماس. سأعيد فتح التحقيق، إنّما جديًّا هذه المرّة.

– لكنّك حاولتَ منذ خمس عشرة سنة، وخرجتَ بأضرار جسيمة، تابعتُ معلّقًا.

– لكنّ اكتشاف المال يبدّل المعطيات كلّها! مبلغ طائل كهذا عدًّا ونقدًا، ماذا يخفي في رأيك؟ في رأيي أنا، ثمّة احتمالات ثلاثة فحسب: تهريب مخدِّرات، أو فسادًا، أو ابتزازًا ضخمًا.

رحتُ أدلِّك جفنيّ.

– أنتَ تُركِّب فيلمًا من صنعك يا بيانيلي.

– أي بالنسبة إليك، قضيّة روكويل غير موجودة؟

– فلنَقُل أنّها تُختصر بقصّة عاديّة: فتاة هربت مع الرجل الذي تُحبّ.

تغضَّنت سحنته:

– حتّى أنتَ لا تسلِّم بالفرضيّة هذه، ولو ثانية، حضرة الفنّان. احفَظ جيّدًا ما أقوله: اختفاء فينكا أشبَه بكرة من الصوف. وذات يوم، سيأتي مَن يسحب الخيط المناسب فتُفَكّ الكرة بأكملها.

– وما الذي سيُكتَشف؟

– أمر أفظع من كلّ ما تصوّرناه حتّى الآن.

وقفتُ لأضعَ حدًّا للحديث.

– أنتَ مَن يجدر به أن يكتب الروايات. أستطيع مساعدتك إن كنتَ تبحث عن ناشر.

نظرتُ إلى ساعتي. من الضروري أن أجد ماكسيم. هدأ الصحافي فجأةً، ووقف بدوره ليمنحني تربيتة سريعة على الكتف.

– أراك لاحقًا يا فنّان. واثق في أنّنا سنتقابل مجدّدًا.

كانت نبرته نبرة شرطي فكّ للتوّ أسر موقوف. زرّرتُ سترتي ونزلتُ درجة. تردّدتُ بضع ثوانٍ ثمّ استدرتُ إلى الخلف. حتّى الآن لم يزلّ لساني. يجب أن أبقى حريصًا فلا أزوّده بأيّ معلومة قد تغذّي شكوكه. بيد أنّ سؤالًا كان يُحوم في ذهني. حاولتُ طرحه بأقصى حدّ ممكن من الحياديّة.

– قلتَ لي أنّهم عثروا على المال في إحدى خزائن التلاميذ القديمة، صحيح؟

– نعم.

– أيّ واحدة بالضبط؟

– خزانة مطليّة بالأصفر الفاقع. لون مبنى هنري-ماتيس.

– هذا ليس المبنى الذي كانت تسكنه فينكا! هتفتُ بنبرة الظافرين. كانت حجرتها في الجناح الأزرق: مبنى نيكولا-دو-ستايل.

هزّ بيانيلي رأسه موافقًا:

– أنتَ مُحقّ، لقد تحقّقتُ من الأمر. لديك ذاكرة استثنائيّة، لا؟ أعني، بالنسبة إلى شخص طوى الصفحة.

مجدّدًا، تحدّاني بنظرة تلتمع حماسة ومكرًا كأنّه نال منّي، لكنّني حدّقتُ مباشرةً في عينيه، بل ولعبتُ ورقة أخرى.

– والخزانة؟ هل كانت تحمل اسم؟

هزّ رأسه:

– بعد هذه السنوات كلّها؟ تدرك طبعًا أنّ كلّ شيء امّحى مع مرور الوقت.

– ليس هناك من أرشيف عن تقسيمات الخزائن وتوزيعها؟

– آنذاك، ما كان الأمر ليستأهل هذا العناء، قال مقهقهًا. في بداية العام الدراسي، كان التلاميذ يملكون الخزانات التي تحلو لهم: يسبق من يصل أوّلًا.

– وفي تلك الحالة تحديدًا، أيّ خزانة كانت؟

– ولِمَ تريد أن تعرف؟

– مجرّد فضول. تعرف، ذلك الشيء الذي يتميّز به الصحافيّون.

– نشرتُ الصورة في مقالتي. ليست في حوزتي الآن، لكنّها الخزانة أ 1. القسم الأوّل في الأعلى، إلى اليسار. هل يعني لكَ أيّ شيء؟

– أبدًا. إلى اللقاء يا ستيفان.

ثمّ استدرتُ وحثثتُ الخطى لأغادر الساحة قبل نهاية الخطاب الرسمي.

على المنصّة، كانت المديرة تختم كلامها وهي تذكر الآن عمليّة هَدم الجمنازيوم الوشيكة، فوضع حجر الأساس في «الورشة الأكثر طموحًا وتحدّيًا التي عرفتها مؤسّستنا منذ زمن بعيد». ثمّ راحت تشكر المتبرِّعين الكرماء الذين بفضلهم سيبصر المشروع التالي النور بعدما بقي مدفونًا في الأذهان أكثر من ثلاثين سنة: «تشييد مبنى مخصَّص للصفوف التمهيديّة، وإنشاء حديقة طبيعيّة كبرى، وبناء مركز رياضة جديد مزوَّد بمسبح أولمبي».

كانت الشكوك لا تزال تساورني حول ما ينتظرني، فقد تبدّدت نهائيًّا. لقد كذبتُ جهارًا، في وجه بيانيلي. فأنا أعرف تمامًا إلى مَن تعود تلك الخزانة القديمة التي وجدوا المال داخلها.

كانت خزانتي أنا.

3

هذا ما فعلناه

أكثر لحظة يحتاج فيها الناس إلى محامٍ
هي لحظة يقولون فيها الحقيقة.

ب. د. جايمس

1.

كان الجمنازيوم عبارة عن شكل إسمنتي متوازي السطح، مشيّدًا على منبسط وهاد ضيِّق، متاخم غابة الصنوبر. كنّا نأتي إليه عبر ممرّ شديد الانحدار تحفّ بجانبيه صخور كلسيّة ضخمة، تصطفّ بيضاء، لتعكس أشعّة الشمس المبهرة. عند وصولي إلى موقف السيّارات، لمحتُ شاحنة بصندوق قلّاب وجرّافة، مركونتين في محاذاة بناء مؤلَّف من أجزاء متساوية، فازداد قلقي للحال. كانت المجموعة تحوي ترسانة كاملة من الأدوات: مطارق، مدكّات للإسمنت، مقصّات جزّ للمعادن، كُلّابات ومجارف للهدّ. لم تتفوّه المديرة بالأكاذيب: كان الجمنازيوم يشهد ساعاته الأخيرة. فمن الواضح أنّ بداية ورشة الأشغال باتت وشيكة، ومعها بداية سقوطنا.

درتُ حول قاعة الرياضة بحثًا عن ماكسيم. صحيح أنّني لم أبق على تواصل معه، لكنّني كنت قد تابعت مساره من بعيد، بذهول شديد وبشيء من الفخر. فقضيّة فينكا روكويل قد طبعت مسار صديقي بتأثير مناقض لذلك الذي خلّفته في دربي. ولئن ساهمت تلك الحوادث في تهشيمي وقطعت انطلاقتي ومعها أنفاسي، فقد أدّت في المقابل إلى تخلخل المسامير في نعش ماكسيم، وما لبثت أن حرّرته من كفن ثقيل، فأعادت له الحريّة المطلقة، ليكتب بنفسه قصّته.

بعد الذي فعلناه، لم أعُد كما كنتُ على الإطلاق. فقد عشتُ في هلع فكري وفوضى ذهنيّة، قاداني في نهاية المطاف إلى فشل ذريع: الرسوب في الرياضيّات العُليا منذ السنة الأولى. فور حلول صيف 1993، كنت قد غادرتُ كوت دازور إلى باريس، وبدّلت مَساري جذريًا لأتّجه إلى كليّة للعلوم التجاريّة من الدرجة الثانية، مخيّبًا بذلك ظنون والديّ. بعدما بلغتُ العاصمة، أمضيتُ سنوات أربعًا في عيش الكسل والخمول. رحتُ أفوّت صفًّا من اثنين فيما أمضي بقيّة نهاراتي بين مقاهي سان-ميشال، ومكتبة جيبير جون، وفناك–مونبارناس وسينما 14 جوييه-أوديون.

خلال السنة الرابعة، كانت الكليّة تُلزم الطلّاب السفرَ إلى الخارج مدّة ستّة أشهر. وفيما استهلّ زملائي في معظمهم دورة تدريبيّة في إحدى الشركات الكبرى، كان عليّ الاكتفاء بمنصب متواضع: سكرتير لدى إيفلين وارين، سيّدة نيويوركيّة مناصرة لحقوق المرأة. في تلك الفترة، كانت وارين على الرغم من سنينها الثمانين، لا تزال تلقي المحاضرات الجامعيّة في جميع أرجاء الولايات المتّحدة. كانت شخصيّة فذّة لامعة، لكنّها كانت أيضًا امرأة متسلّطة ومزاجيّة تتشاحن مع الجميع. بيد أنّها كانت تحبّني والله أعلم لماذا. ربّما

لأنّني ما كنتُ آبه لتقلّباتها المزاجيّة ولأنّها كانت أعجَز من أن تؤثّر فيّ. إذًا، في طبيعة الحال ومن دون أن تتقمّص شخصيّة جدّتي، طلبت منّي أن أبقى في خدمتها بعد إنهاء دراستي، وساعدتني في الحصول على إقامة دائمة. وهكذا بقيتُ سكرتيرها ومعاونها حتّى وفاتها، مُقيمًا في جناح من شقّتها الفخمة، في الجهة الشرقيّة الراقية من نيويورك.

خلال أوقات فراغي – وكانت كثيرة – كنتُ أقوم بالشيء الوحيد الكفيل بتهدئتي وطمأنتي: أكتب القصص. بما أنّني فشلتُ في التحكُّم بمجريات حياتي، رحتُ أبتكر عوالم خياليّة مشرقة، خالية من الهموم والاضطرابات التي تتآكلني. فالعصا السحريّة ليست مجرّد خرافة، بل بالنسبة إليّ، كانت ترتدي شكل قلم الحبر الجافّ الكريستال. لقاء فرنك واحد وخمسين سنتًا، كان يُسمَح لك آنذاك بشراء أداة صغيرة وإنّما قادرة على تبديل الواقع، وتصحيحه أو حتّى نفيه.

أصدرتُ روايتي الأولى العام 2000؛ رواية أُدرجت في خانة الأكثر مبيعًا، وذلك بفضل الدعاية الشفهيّة التي تناقلتها الألسن مباشرةً. ومنذ ذلك الحين، كتبتُ حوالى عشرة كتب. وقد شغلت كتابة القصص فالترويج لها، كامل نهاراتي. كان نجاحي حقيقيًّا، ملموسًا، لكن في نظر عائلتي، ما كانت كتابة الروايات الخياليّة لتندرج في خانة المهن الجديّة. «حين أفكّر في أنّنا كنّا نأمل بأن تصبحَ مهندسًا»، بادرني والدي ذات يوم، بلياقته المعهودة طبعًا. وهكذا، تباعدَت زياراتي إلى فرنسا شيئًا فشيئًا، وباتت تقتصر حاليًّا على أسبوع واحد يمرّ بين حملة دعائيّة وتواقيع. كان لديّ شقيق وشقيقة أكبر سنًّا منّي، مع أنّني لم أكن أراهما إلّا نادرًا، لئلّا أقول قَطّ. كانت ماري قد اختصَّت في المدرسة الوطنيّة العليا وتشغل منصبًا

مهمًّا لدى الإدارة الوطنيّة للإحصاءات والتجارة الخارجيّة. لم أكن أعرف ماهية وظيفتها في الواقع، لكنّني تخيّلتُها لا متعة فيها. أمّا في ما يتعلّق بجيروم، فقد كان بطل أسرتنا الحقيقي: جرّاحًا مختصًّا في طبّ الأطفال، يعمل في هاييتي، منذ العام 2010 – تاريخ وقوع الزلزال – حيث تولّى تنسيق عمل منظمة «أطبّاء بلا حدود».

.2

ومن ثمّ، كان لديّ ماكسيم.

أفضل صديق سابق وصديق لم أستبدله يومًا، بل توأم روحي. فأنا على معرفة به منذ الأزل: كانت عائلة والده وعائلة والدتي تتحدّران من القرية الإيطاليّة عينها، مونتالديسيو، في بييمون. قبل أن يحصل والدايّ على مسكن عملهما في الليسّيه، كنّا أنا وماكسيم جارَين في أنتيب، على طريق لا سوكيت. كان منزلانا المبنيّان الواحد ملاصقَ الآخر، يُطلّان على منظر بانورامي لجزء من البحر الأبيض المتوسّط. لطالما تجاورت مرجتانا، لا يفصل بينهما إلّا جدار منخفض من الحجارة الجافّة، فاستضافتا معًا مباريات كرة القدم التي خضناها جنبًا إلى جنب، وحفلات الشواء التي أقامها أهلنا.

في الليسّيه، وخلافًا لي، لم يكن ماكسيم من التلاميذ المجتهدين. لكنّه لم يكن من الفاشلين، بل مجرّد فتى يعاني نقصًا في النضوج، هاجسه الرياضة والأفلام وألعاب الفيديو، أكثر منه رهافة رواية «التربية العاطفية» ودقّة سطور مانون ليسكو. في الصيف، كان يعمل حارس شاطئ في كاب دانتيب، ضمن مجموعة موقع غرايون الساحليّة. ما زلتُ أذكر مظهره البهيّ الجذّاب: صدرًا بارزًا، وشعرًا طويلًا كشعور أبطال ركوب الأمواج، ولباس بحر رياضيًّا من الماركة «ريب كورل»، وحذاء فانز رياضيًّا من دون شريط. كان يتمتّع بشيء

من الصدق الساذج والحالِم، وبتلك الشقرة المُبكرة، شقرة مُراهقي غاس فان سانت.

كان ماكسيم الابن الوحيد لفرنسيس بيانكارديني، متعهِّد بناء شهير في المنطقة، قد نجح في إنشاء إمبراطوريّته المحليّة الخاصّة، في عصر كان أكثر تسامحًا ومرونة منه اليوم، مع قوانين تحديد الأسواق العامّة والمنافسة وتوزيعهما. ولأنّني أعرفه خير معرفة، كنتُ أعلم أنّ فرنسيس شخص مُتعدّد السِمات، مُنغلق وازدواجي. لكن في نظر العالم، كان يظهر بمظهر البنّاء الفظّ الهمجي، بيديه الضخمتين، وكيلوغراماته الزائدة، وهيئته القرويّة الوضيعة ومفرداته الركيكة التي غالبًا ما كانت تُكرِّر خطابات الجبهة الوطنيّة الطنّانة وتجترّها. لم يكن يحتاج إلى الكثير من التشجيع ليطلق لنفسه العنان، أكثر فأكثر، فيصوِّب على المسؤولين عن تقهقر البلاد، والذين تطول لائحتهم تحت سيل تجريحاته: «العَرَب، الاشتراكيّون، النِسوة، المثليّون». كان ذلك الفَحل الأبيض الغالِب المُسيطِر نسخة من حمار كبير أبله، لم يفهم أنّ عالمه قد غرق وغاب منذ زمن.

لطالما جاهد ماكسيم وقتًا طويلًا ليجد مكانًا له بعدما سحقه ظلّ والده، ذاك الوالد الذي كان مصدر عاره ومحطّ إعجابه في آن واحد. والواقع أنّه لم ينجح في التحرُّر من قبضة تأثيره إلّا بعد وقوع المأساة. استغرق التحوُّل الجذري عشرين سنةً وقد تحقّق مرحلة تلو أخرى. تلميذ دون المستوى في السابق، راح ماكسيم يكدّ ويدأب فحصل على دبلوم في هندسة البناء والأشغال العامّة. ثمّ عاود استلام مؤسّسة والده وحوّلها شركة محليّة رائدة في مجال البناء الإيكولوجي. بعد ذلك، أخذ مبادرة المشاركة في بلاتفورم 77، أكبر منصّة انطلاق للشركات والمؤسّسات الناشئة الواعدة في جنوب فرنسا. وفي موازاة ذلك، تحمّل ماكسيم مسؤوليّة مثليّته بأكملها. فمنذ صيف 2013،

وبعد مرور بضعة أسابيع على تبنّي قانون الزواج للجميع، عقد قرانه في دار بلديّة أنتيب، على رفيقه أوليفييه مون – من قدامى تلامذة الليسّيه، هو الآخر – الذي كان يدير المكتبة السمعيّة البصريّة في المدينة. لدى الثنائي اليوم طفلتان مولودتان من أمّ بديلة في الولايات المتّحدة.

كنتُ قد جمعت هذه المعلومات كلّها، نتفًا نتفًا، من موقع الإنترنت التابع لجريدة نيس-ماتان والصحيفة العلميّة «تشالنجز»، إضافة إلى مقالة في مجلة «موند» يتناول «أبناء جيل ماكرون»، إذ كان حتّى الآن مجرّد مستشار بلدي، ها هو ماكسيم ينضمّ إلى حزب «إلى الأمام» منذ نشوئه، ويصبح بين أوّل مَن دعموا رئيس الجمهوريّة المستقبلي، بعدما تولّى تفعيل لجنته المحليّة خلال الحملة الانتخابيّة. أمّا اليوم فهو يطمح إلى منصب نائب عن الدائرة السابعة في ألب-ماريتيم تحت راية «الجمهوريّة إلى الأمام» مترشّحًا أبًا عَن جدّ في حزب اليمين، قد عكف الشعب منذ عشرين سنة على انتخاب جمهوري معتدل، إنساني النزعة ويُحسِن وظيفته، وذلك من الدورة الأولى. ومنذ ثلاثة أشهر خلت، ما كان أحد ليتصوّر أن تبدِّل الدائرة لونها السياسي، لكن في ربيع العام 2017، ضَخّت طاقة جديدة في البلاد. وأخذت موجة ماكرون تهدِّد بجرف كلّ ما قد يقف في طريقها. إذًا، ستُجرى الانتخابات لا محالة وسط تنافس شديد، ولكن يبدو أنّ ماكسيم يمتلك الفرص كلّها، إزاء النائب السابق.

.3

حين لمحتُ ماكسيم، كان لي تجاذب أطراف الحديث مع الشقيقتين دوبريه، عند مدخل الجمنازيوم. رحتُ أتفحّص هندامه من بعيد: بنطالًا من القماش الصيفي، قميصًا أبيض وسترة من الكتّان. كان

وجهه قد اكتسب سمرة شديدة، فبدت ملامحه شبه منحوتة، فيما برز لون عينيه الفاتح تحت خصلات شعره التي ما انفكّ لونها ينصل ويتلاشى بفعل الشمس. كانت ليوبولدين (ملكة الشعر المَعصوب) وجيسيكا (ملكة الموضة المبتذلة) تعبّان كلامه عبًّا، كأنّه رودريغ يتلو مونولوجه على حبيبته شيمان، والواقع أنّه كان يحاول إقناعهما ليس إلّا، بأنّ الزيادة المقبلة على حصّة المساهمة الاجتماعيّة المعمَّمة ستؤدّي بدورها إلى زيادة القدرة الشرائيّة عند الموظّفين والأجراء.

– انظروا مَن هنا! هتفت جيسيكا حالما وقع نظرها عليّ.

قبّلتُ الأختين التوأمين – اللتين راحتا تشرحان لي بالتفاصيل المملّة كيف أوكلت إليهما مهمّة تنظيم الحفلة الراقصة التي ستقام هذا المساء – فيما عانقتُ ماكسيم على عجل. ربّما كنتُ واهمًا، لكنّني كدتُ أشتَمّ رائحة جوز الهند، تلك الرائحة الشهيرة التي لطالما تميّزت بها مادّة الجَل التي كان يغدقها على شعره آنذاك.

وجب علينا الخضوع لحديث الأختين المملّ خمس دقائق إضافيّة. وذات لحظة، كرّرت ليوبولدين على مسامعي كَم تهوى رواياتي وعلى وجه التحديد «ثلاثية الشرّ».

– وأنا كذلك، أُحبّ تلك الرواية، قلتُ لها مع أنّني لستُ مَن كتبها. لكنّني سأمرِّر طبعًا تهانيك الحارّة إلى صديقي تشاتام.

مع أنّني قلتها بدافع المزاح، يبدو أنّ ملاحظتي هذه أهانت ليوبولدين. خيّم الصمت ثواني علينا، وإذ تذرَّعت بأنّ تعليق شرائط اللمبات الملوَّنة يحصل ببطء غير معهود، جرّت معها أختها إلى ما يشبه السقيفة، حيث كُدِّست زينة الحفلة كومًا كومًا.

وأخيرًا، أصبحنا على انفراد، أنا وماكسيم. بعيدًا من نظرات التوأمين، شحب وجهه وتجهّمت ملامحه، قبل أن يتسنّى لي الوقت لأسأله عن أحواله.

– أنا منهار.

وما لبث أن ازداد عبوسًا وقلقًا حين أريته النظّارة الشمسيّة والرسالة التي وجدتُها في مقهى «شي دينو» بعد عودتي من المرحاض: الثأر.

– تلقّيتُ الرسالة عينها خلال دوامي البارحة، أسرّ إليّ وهو يدلِّك صدغيه مهمومًا. كان عليّ أن أخطرك بذلك عبر الهاتف. سامحني، لكنّني ظننتُ حينذاك أنّ الأمر قد يثنيك عن المجيء.

– هل لديك فكرة عن مُرسلها؟

– أبدًا، لكن وإن عرفنا هويّته، فلن يتبدّل شيءٌ في المعادلة.

أشار برأسه نحو الجرّافة والمستودع، حيث وضّبت عدّة العمل.

– سوف يباشرون أعمال الهدم يوم الإثنين. ومهما حاولنا، فقد قُضي علينا.

أخرج هاتفه المحمول ليريني صور ابنتيه: لويز، أربع سنوات، وأختها إيمّا، سنتان. هنّأته بحرارة رغم الظروف. فماكسيم قد نجح حيث فشلتُ أنا: إنشاء أسرة، ورسم درب وهدف لهما مغزى، والعودة على المجتمع بالمنفعة.

– لكن... سأخسر كلّ شيء، هل تفهم؟! صرخ وقد استبدّ به الهلع.

– مهلًا، دعنا من البكاء قبل الجنازة، قلت له محاولًا طمأنته بلا جدوى.

ثمّ تريّثتُ قليلًا قبل أن أضيف:

– هل عدتَ إلى هناك؟

– لا، أجابني وهو يهزّ رأسه، كنتُ أنتظرك.

4.

دخلنا الجمنازيوم معًا.

ما زالت قاعة الرياضة ضخمة وواسعة كما أتذكّرها. تمتدّ في مساحة ألفي متر مربَّع، مقسومة جزءين منفصلين: قاعة لمختلف أنـواع الرياضات فيها جـدار للتسلّق، وملعب لكرة السلّة تحيط به المدرّجات. تحسُّبًا لحفلة المساء – «حفلة القدامى الراقصة» المقزِّزة التي أتت المقالة على ذكرها – كانت بسط الجمباز قد أُزيحت، وشِباك المرمى وعارضاته وسلاله، لتُشيّد حلبة الرقص والمنصّة التي ستستقبل الفرقة الموسيقيّة، بينما زيّنت مفارش موائد ورقيّة، طاولات كرة الطاولة المتفرِّقة. أمّا اللمسة الأخيرة فقد أضفتها شرائط الزينة الملوَّنة والزخارف الحِرَفيّة. وأنا أتقدَّم في أرجاء القاعة الرئيسة على أرضيّة الفينيل الحديثة، لم أستطع منع نفسي من التفكير: هذا المساء، وعلى أنغام أغاني فرق الأيّام الخوالي الشهيرة سيرقص العشرات، اثنين اثنين، بجانب... جثّة.

واكبني ماكسيم حتّى الجدار الذي يفصل القاعة المتعدِّدة الاستعمالات عن ملعب كرة السلّة ومدرّجاته. كان صدغاه يتعرّقان، وقد برزت تحت إبطيه لطختان داكنتان على سترته من الكتان. ما لبث أن خطا بضع خطوات مترنِّحة، ثمّ تجمّد كليًّا كأنّه بات عاجزًا عن التقدُّم. وكأنّ البناء الإسمنتي أمامه قد تحوّل مغناطيس يدفعه إلى الخلف بقوّة مضادّة. وضعت يدي على الجدار وأنا أحاول كبت انفعالاتي. لم يكن مجرّد حاجز فاصل، بل كان جدارًا ضخمًا مدعَّمًا بأكمله، لا تقلّ سماكته عن المتر، ويمتدّ في طول عشرين مترًا، قاطعًا الجمنازيوم من الطرف إلى الطرف الآخر. مجدّدًا، عاودتني لقطات خاطفة من الماضي، وامضةً في ذهني مزعزعةً عزيمتي: صور كثيرة وسريعة لأجيال من المراهقين، ممّن أتوا يتدرّبون في القاعة هذه

وتصبّبون عرقًا من دون أن يشكّوا حتّى في وجود جثّة مدفونة بين جدرانها.

– بوصفي مستشارًا بلديًّا، استطعتُ التحدّث إلى المتعهِّد الذي سيهدم الجمنازيوم، أعلَن ماكسيم.

– لكن كيف سيتمّ ذلك، أعني على الأرض؟

– ابتداءً من يوم الإثنين، تنطلق عجلة المجارف الآليّة وكمّاشات الهدم. وهؤلاء الناس من المحترفين. لديهم العدّة والعتاد من أحدث الآلات. لن يحتاجوا إلى أكثر من أسبوع لتسوية المبنى بالأرض.

– نظريًّا إذًا، قد يعثرون على الجثّة ما بعد الغد.

– نعم، أجابني هامسًا، وقد حثّني بحركة من يده على خفض صوتي.

– هل ثمّة احتمال، مثلًا، ألّا يلاحظوها؟

– هل تمزح؟ ولا واحدًا في المئة، قال متنهِّدًا.

ثمّ راح يفرك جفنيه.

– كانت الجثّة ملفوفة بشادر سميك، شادر للورش. حتّى بعد مرور خمس وعشرين سنة، سيعثرون لا محالة على عظام كثيرة. وعندئذٍ، سيعلّقون أعمال الترميم على الفور ليستهلّوا التنقيب عن أدلّة أخرى.

– كم يلزم من الوقت للتأكّد من هويّة الجثّة؟

هزّ ماكسيم كتفيه.

– لستُ شرطيًّا، لكن بين الحمض النووي ومسألة تحليل عيّنات الأسنان وغيرها، قد يكون أسبوعًا كاملًا على الأرجح. المشكلة أنّهم في غضون ذلك، يكونون قد عثروا على سكّيني وعلى القضيب الحديد الذي استعملتَه أنتَ! وغيرهما من الأغراض من دون شكّ.

فقد استعجَلنا العمليّة برمتّها، اللعنة! والآن بفضل وسائل التفتيش العصريّة، سيعثرون حتمًا على آثار حمضنا النووي، وربّما على بصماتنا أيضًا. حتّى ولو لم تكن واردة في سجلّاتهم أساسًا، سيقودهم اسمي المحفور على مقبض السلاح إليّ أنا مباشرةً...

– أي هديّة والدك... عدتُ فتذكّرتُ.

– أجل، مِدية الجيش السويسري.

قَرَص ماكسيم عنقه بتوتّر واضح.

– عليّ أخذ المبادرة! قال نائحًا. منذ بعد ظهر اليوم، سوف أعلن عزوفي عن الترشّح. يجب أن أمنح الحركة الوقت الكافي للترويج لمرشَّح آخر. لا أودّ أن أشكِّل الفضيحة الأولى في عهد ماكرون.

قلتُ وأنا أحاول تهدئته:

– أمهِل نفسك بعض الوقت. لستُ أقول أنّنا سنسوّي المشكلة في عطلة أسبوع واحدة، لكن، يجب أن نفهم في الأقلّ ما يَحدُث لنا.

– ما يحدث لنا؟ تبًّا لكَ، لقد قتلنا رجلًا! ودفنّاه في الجمنازيوم اللعين!

4

باب اللعنات

ومن ثمّ، أطلقتُ النار أربع مرّات أخرى على
جثّة هامدة [...].
وكأنّني أطرق طرقات أربعًا على باب اللعنات.

ألبير كامو

مكتبة t.me/ktabrwaya

.1

قبل خمس وعشرين سنة

السبت 19 ديسمبر، 1992

ما انفكّ الثلج يتساقط منذ الصباح. الأحوال الجويّة مفاجئة وغير معهودة، يوم عطلة عيد الميلاد، زرعت الحيرة والفوضى في النفوس. «فوضى فظيعة» كما يقولون هنا. فعلى ساحل كوت دازور، قليل من النفناف الأبيض الناعم أكثر من كافٍ لشلّ دورة الحياة العادية. بيد أنّها لم تكن مجرّد ندف قليلة هذه المرّة، بل عاصفة فعليّة. مشهد لم نره منذ يناير العام 1985 وفبراير العام 1986. توقّعت النشرة الجويّة أن تبلغ كثافة الثلج 15 سنتم في أجاكسيو،

و10 سنتم في أنتيب و8 سنتم في نيس. وقد شُلَّت حركة الطائرات، التي باتت تدّخر مواعيد إقلاعها كَمَن يدخّر ماله الثمين، وحدّث ولا حرج عن القطارات التي ألغت رحلاتها كاملة، فيما غدت الطرقات غير سالكة في معظمها. ناهيك بالتيّار الكهربائي الذي راح ينقطع في شكل مكثَّف، ما عاث فسادًا في دورة الحياة المحليّة.

أخذتُ أتأمّل من نافذة غرفتي، حرم الليسّيه الذي جمّده الصقيع، فبدا كتلة من الزجاج الشفّاف. كان مشهدًا سورياليًّا. فقد محا الثلج البراح ليستبدله بمساحة ناصعة، فيما أحنت أشجار الزيتون والحمضيّات رؤوسها إجلالًا أمام «الجنرال الأبيض». أمّا أشجار الصنوبر فبدت كأنّ يدًا سحريّة اقتلعتها لتعيد غرسها في مشهد حالِم من حكايات أندرسن، يلفّه زغب أبيض ناعم.

لحسن الحظّ، كان تلامذة المدرسة الداخليّة في معظمهم قد غادروا مساء أمس. فعطلة عيد الميلاد غالبًا ما تكون الفترة الوحيدة في السنة التي يفرغ فيها الليسّيه من سكّانه. فلا يبقى في حرمه إلّا النادر من النزلاء ممّن طلبوا إذنًا استثنائيًّا ليظلّوا في غرفهم أثناء العطل. هؤلاء كانوا من تلاميذ الصفوف التمهيديّة الذين ينوون خوض امتحانات انتقائيّة جدًّا، إضافة إلى ثلاثة أو أربعة من الأساتذة المقيمين الذين فوّتوا طائراتهم أو قطاراتهم الصباحيّة، بسبب اشتداد العاصفة الثلجيّة.

منذ نصف الساعة، وأنا جالس إلى مكتبي شارد الذهن، أحملق بنظرات كئيبة يائسة في بيان مسألة جبريّة.

التمرين 1:

فلنفترض أنّ (a) و(b) قيمتان في شكل أنّ: $0 < a < b$...

كنتُ مُقبِلًا على عامي التاسع عشر. وكنت في الصفّ التمهيدي-العلمي. منذ سبتمبر، شهر العودة إلى مقاعد الدراسة، وأنا أعيش جحيمًا حقيقيًا، غارقًا وسط سيل الدروس الذي يكاد يخنقني، لا أنام إلّا أربع ساعات في الليل. كان النمط الدراسي هذا يضنيني ويثبط عزيمتي. أخيرًا، استسلم خمسة عشر تلميذًا من أصل أربعين في صفّنا، وولّوا هاربين. أمّا أنا فكنتُ أكابد وأجاهد للبقاء، لكن من دون جدوى. فأنا أكره الرياضيّات والفيزياء، وبسبب خياراتي في المرحلة التوجيهيّة، وجدتُ نفسي مرغمًا على تكريس معظم وقتي لهاتين المادّتين. ومع أنّ اهتماماتي الحقيقيّة تصبّ في خانة الفنون والأدب، فقد رأى أهلي أنّ الدرب الملوكيّة – تلك التي سلكها قبلي أخي وأختي – يجب أن تمرّ بكليّة الهندسة أو الطبّ.

صحيح أنّ الصفّ التمهيدي كان يُذيقني أشدّ العذابات، بيد أنّه لم يكن الوحيد. فما كان يُميتني حقًّا، وما سحق قلبي سحقًا، كان تلك الصبيّة التي تجاهلت حُبّي.

.2

كانت فينكا روكويل تسكن تفكيري ليل نهار. كنّا قد تعرّف واحدنا بالآخر منذ أكثر من عامين. منذ قرّر جدّها آلاستير روكويل إرسالها لتكمل دراستها في فرنسا، وذلك بهدف إبعادها من بوسطن بعد وفاة والديها. كانت فتاة غير الفتيات كلّهنّ، مثقّفة ومفعمة بالحيويّة وحُبّ الحياة، صهباء، رقيقة الملامح، تكتسب عيناها لونين مختلفين. ربّما لم تكن الصبيّة الأجمل في الليسّيه، بيد أنّها كانت تتمتّع بهالة ساحرة، ويلفّها غموض يجعلكَ تُدمن هواها قبل أن يفقدك صوابك. جاذب غير مفهوم يرسّخ في ذهنك تلك الفكرة الواهمة بأنّك إذا ما توصّلت إلى امتلاك فينكا، فسوف تنجح في امتلاك العالم.

لطالما كنّا ثنائيًّا متناغمًا، لا ينفصل، وذلك خلال مرحلة طويلة جدًّا. فقد جعلتُها تكتشف الأماكن كلّها التي أهواها في المنطقة – حدائق منتون، فيلّا كيريلوس، متنزّه مؤسّسة مايت، أزقّة توريت-سور-لو... تنزّهنا في كلّ زاوية وناصية وكنّا نمضي ساعات وساعات نتجاذب أطراف الحديث. لقد تحدّينا الصخر الوعر في الكولميان، وتلذّذنا بالتهام أطباق السوكا الساخن في سوق أنتيب الشعبيّة، وتجادلنا وتناقشنا في أمور الدنيا كلّها أمام برج جنوى على شاطئ الأوند.

كان أحدنا يقرأ أفكار الآخر، حرفيًّا، بكلّ ما للكلمة من معنى، ولم ينفكّ انسجامنا يفاجئني ويذهلني. نعم، كانت فينكا المرأة التي لطالما انتظرتها من دون جدوى مُذ بلغتُ سنًّا تخوّلني انتظار أحد. بحسب ذكرياتي الأكثر قِدمًا، لطالما شعرتُ بأنّني وحيد، أو حتّى غريب عن العالم، عن ضجيجه، عن رداءته التي تتفشّى عدواها فينا على غرار المرض الفتّاك. في وهلة، ظننتُ أنّ الكتب قد تشفيني من إحساس العزلة والتخلّي والخمول، ومع ذلك يجدر بنا ألّا نتوقّع الكثير منها. صحيح أنّها تروي لنا القصص، وتجعلنا نعيش بالوكالة نتفًا من الحياة، بيد أنّها لن تأخذنا يومًا بين ذراعيها لتواسينا متى استبدّ بنا الخوف.

ومع ذلك، وهي تزرع حياتي ورودًا ونجومًا، نشرَت فينكا معها طيف القلق والخشية: الخشية من أن أخسرها ذات يوم. وهذا تمامًا ما حصل.

منذ عودتنا إلى المدرسة – كانت هي في الصفّ التمهيدي-الأدبي، وأنا في صفّ الرياضيّات العُليا – لم تتسنّ لنا فرصة التقابل من جديد. حتّى أنّني كنتُ أشعر بأنّ فينكا تتهرّب منّي. فهي لم تعد تردّ على اتّصالاتي ولا على الرسائل التي كنتُ أبعث بها إليها، فيما لم

تلق دعواتي إلى خروجها معي أيّ صدى. كان زملاء لها في الصفّ قد نبّهوني إلى أنّها مفتونة بألكسيس كليمان، أستاذ الفلسفة الشابّ في الصفوف التمهيديّة. حتّى أنّ إحدى الشائعات أكّدت أنّ مداعباتهما تطوّرت إلى علاقة غراميّة حقيقيّة. لم أشأ أن أصدّق بادئ ذي بدء، لكن، سرعان ما تآكلتني الغيرة وبات عليّ أن أقطع الشكّ باليقين، مهما كلّف الأمر.

.3

قبل ذلك بعشرة أيّام، بعد ظهر يوم أربعاء تحديدًا، وفيما كان تلامذة الصفّ التمهيدي-الأدبي يخضعون لامتحان تدريبي، تحيّنت ساعة فراغ لأزور بافيل فابيانسكي، حارس الليسّيه. كان بافيل يكنّ لي مودّة خاصّة، وكنتُ أمرّ به كلّ أسبوع، لأعطيه عدد فرانس فوتبول متى انتهيتُ من قراءته. يومذاك، وتعبيرًا عن امتنانه، ذهب يجلب لي عبوّة صودا من ثلّاجته، فاستغللت الموقف لأسرق مجموعة المفاتيح الخاصّة بغرف التلاميذ.

متسلّحًا بمفتاح الباب العمومي، هرعت إلى جناح نيكولا-دو-ستايل، ذلك المبنى الأزرق الذي تسكنه فينكا، وأخذتُ أنقّب في زوايا غرفتها كلّها.

أجل، أعرف أنّ الوقوع في الحبّ لا يمنح العاشق المتيّم الحقوق كلّها. وأعرف تمامًا أنّني مجرّد نذل رديء وكلّ ما شئتم أن تنعتوني به من مساوئ. لكنّ شأني شأن معظم الذين يعيشون قصص حبّهم الأول، اعتقدتُ أنّني لن أشعر بهذا الهُيام العميق تجاه أحد بعد الآن. وللأسف، سوف يبرهن المستقبل القريب صحّة قولي هذا.

وكذلك الأمر، ثمّة ما قد يُضاف إلى أسبابي التخفيفيّة: لقد توهّمتُ بأنّني أعرف الحبّ ومسائله خير معرفة فحسب لأنّني أتقنتُ

قراءة الروايات الغراميّة. بيد أنّ ما يلقّننا أمور الحياة الواقعيّة يبقى بلا ريب كلّ ما نتلقّاه من خيبات وضربات من دون سابق إنذار. ففي شهر ديسمبر من العام 1992، كنتُ قد هجرتُ ضفاف الحبّ البسيط والشعور الرقيق لأنغمسَ في أنهار الشغف والعشق. وأمّا العشق فلا يمتّ بصلة إلى الحبّ. العشق أرض اللاأحد واللامكان، منطقة نزاع تُقصَف باستمرار، وتقع على مُفترق الألم والجنون والموت.

فيما كنتُ أبحث عن براهين تثبت وجود علاقة بين فينكا وألكسيس كليمان، تصفّحت كتب صديقتي في مكتبتها الصغيرة، واحدًا واحدًا. وإذا بورقتين مطويّتين أربع طيّات تسقطان من إحدى روايات هنري جايمس. كانتا مدسوستين بين الصفحات. انحنيتُ لألتقطهما بيدين مرتجفتين، فغزت أنفاسي رائحة مفاجئة: مزيج من العطور الحادّة، مُنعشة، ومفعمة بأريج الشجر والتوابل في آن. فتحتُ الورقتين: رسالتين من كليمان. كنتُ أبحث عن براهين، وها أنذا أجد أدلّة دامغة.

في 5 ديسمبر

حبيبتي فينكا،

أيّ مفاجأة رائعة قدّمتِها لي أمس؛ أن تكابدي الأخطار كلّها لتأتي وتمضي الليل معي! حين فتحتُ باب شقّتي وطالعني وجهكِ الجميل، ظننتني سأموت من شدّة الفرح.

يا حبّي، هذه الساعات القليلة ألهبت كياني، بل وكانت أكثرها شغفًا في حياتي. سهرنا وتغازلنا طوال الليل على وقع دقّات قلبي المجنونة، فيما استسلم جسدي لقبلاتكِ وتأجّج الدم في عروقي. وعندما صحوت هذا الصباح، كانت نكهة قبلاتكِ الممزوجة بهواء البحر المالح مطبوعة على بشرتي. وقد استبقت الملاءات عطرك

الحلو، أريج الفانيلّا اللذيذ، لكنّكِ كنتِ قد اختفيتِ. كدتُ أبكي من شدّة حسرتي! فكم تمنّيتُ أن أستيقظ بين ذراعيكِ، أن يمتزج جسدانا ليصبحا واحدًا، أن أتنفّس أنفاسكِ، وأستشفّ رغبتكِ الشغوف في لهاثك ونبرتك! من جديد أردتُ ألّا يفلت إنش من بشرتي من لهب قبلاتكِ الرقيقة.

أودّ ألّا أصحو أبدًا من سكرتي. وأبقى إلى الأبد في سكرٍ، أسكر فيكِ، في قبلاتكِ ولمساتكِ.

أحبُّكِ.

ألكسيس

في 9 ديسمبر

فينكا حبيبتي،

لقد استحوذتِ على أفكاري كلّها، على كلّ ثانية من نهاري. عشتُ يومي هذا في تظاهُر وادّعاء: تظاهرتُ بأنّني أعطي الدروس، وادّعيتُ بأنّني أحادث زملائي، وبأنّني أهتمّ بالمسرحيّة التي قدّمها تلاميذي... نعم، تظاهرتُ بيد أنّ ذهني كان غارقًا في الذكريات، ذكريات ليلتنا الفائتة، رقيقة ولاهبة.

مع حلول موعد الظهر، ما عدتُ أتحمّل. خلال التبديل بين صالة وأخرى، شعرتُ بحاجة ماسّة إلى الخروج لتدخين سيجارة على ترّاس قاعة الأساتذة، وهناك... رأيتكِ من بعيد، جالسة على مقعد تدردشين مع أصدقائكِ. حين لمحتِني، أومأتِ لي سرًّا بحركة خاطفة غمرت قلبي المحطَّم بالدفء. كلّما نظرتُ إليكِ، اهتزّ كياني وتلاشى العالم من حولي. ضربتُ الحذر والرويّة بعرض الحائط، وكدتُ أسير نحوكِ لأضمّك إلى صدري، وأعلن حبّنا على الملإ. لكن ما زال علينا أن نكتم سرّنا بعض الوقت. لحسن الحظّ

أنّ الحريّة باتت وشيكة. فينكا، لقد محوتِ الظلمة التي كانت تحاصرني فأعدتِ إلي الإيمان، الإيمان بمستقبل مشرق. يا حبّي، قبلاتي كلّها باقية إلى الأبد. كلّما لمسكِ فمي، دمغك بنار الحبّ ورسم حدود أرض جديدة. أرض الحريّة، أرض خضراء خصبة، وعليها سنبني بيتنا وأسرتنا عمّا قريب. وسيأتي ولدنا ليوحِّد مصيرنا إلى الأبد. وستكون له ابتسامتكِ الملائكيّة وحدقتاك الرماديّتان الملتمعتان كالفضّة الخالصة.

أحبّكِ.

ألكسيس

4.

هدّني الاكتشاف هذا هدًّا. ما عدتُ آكل ولا أنام. كنتُ مُحطّمًا. أغرقني عذاب شديد كاد يفقدني صوابي. أمّا علاماتي فراحت تهبط وتهبط إلى حدّ أثار قلق أساتذتي وتوجُّس عائلتي. أمام أسئلة أمّي، لم يبق لي من حلّ سوى مفاتحتها بما يثقل فؤادي. كلّمتها عن مشاعري تجاه فينكا وعن الرسالتين اللتين اكتشفتهما. وأتى جوابها باردًا: لا فتاة تستحقّ أن تفسد سنواتك الدراسيّة لأجلها. وقد أمرتني بأن أستعيد رباطة جأشي في أسرع وقت.

أنبأني حدسي بأنّني لن أخرج يومًا من الهوّة التي رميتُ بنفسي فيها. ولو كنت بعيدًا كلّ البعد من تصوُّر حقيقة الكابوس الذي كان يتربّص بي.

فلأكن صريحًا. كنتُ أتفهّم جيّدًا أن تشعر فينكا بانجذاب حيال كليمان. كان أستاذي في الصفّ الثانوي الثالث العام الفائت. لطالما وجدته سطحيًا، لكنّني أعترف بأنّه يُتقن التخفّي وخداع الجميع. في تلك المرحلة من حياتي وفي سنّي هذه، كان التنافس غير

منصف، بل والقتال جائرًا. إلى يميني، ألكسيس كليمان، عمره سبع وعشرون سنة، فائق الوسامة، يحتلّ المرتبة 15 في كرة المضرب، يقود ألبين 130 ويقتبس كلامه من شوبنهاور. وإلى يساري، توماس دو غاليه، ثماني عشرة سنة، يكدّ ويدأب على الرياضيّات العُليا، ويأخذ مصروف جيبه من أمّه، سبعين فرنكًا عدًّا ونقدًا كلّ أسبوع، يقود درّاجة موبيليت صغيرة، بيجو 103 (بمحرِّك لم يعدَّل ليواكِب سرعة العصر) ويمضي معظم أوقات فراغه القليلة في اللهو بلعبة الأتاري.

لم أعتبر فينكا ملكًا لي أنا يومًا. لكنّها ولدت لتكون معي كما ولدتُ لأكون معها. كنتُ واثقًا في أنّني الشخص المناسب وإن لم يكن الوقت مناسبًا. مع ذلك، كنت أحدس بأنّ اليوم المنشود سيأتي، حيث سأحقّق ثأري من الرجال أمثال ألكسيس كليمان، ولو تطلّب قلب المعادلة سنوات. في انتظار حلول اليوم المذكور، راحت المشاهد الأليمة تتراكم في ذهني: حبيبتي تغازل ذلك الرجل، فتاتي تداعب ذلك الرجل وتقبّله... وهذا ما لم أكن أتحمّله على الإطلاق.

حين رنّ جرس الهاتف بعد ظهر ذلك اليوم، كنت في البيت، وحدي. فالبارحة، أي عشيّة بداية العطلة الرسميّة، غادر والدي إلى بابيت برفقة أخي وأختي. كان والدا أبي يقيمان في تاهيتي منذ عشر سنوات تقريبًا وكنّا نمضي عطلة عيد الميلاد في منزلهما، كلّ عامين. لكنّ نتائجي المدرسيّة الرديئة جعلتني أتخلّى عن الرحلة العائليّة المعهودة ذلك العام. أمّا والدتي فقد كانت تنوي تمضية عطلة نهاية السنة الدراسيّة في مقاطعة اللاند، عند شقيقتها جيوفانا التي كانت في طور التعافي بعد جراحة عسيرة. بيد أنّ أمّي كانت سترحل غدًا، لذا استلمت موقّتًا زمام إدارة المدينة الدراسيّة ومعها، دفّة السفينة العالقة في مهبّ الريح.

ما انفكّ هاتفي يرنّ منذ الصباح، وذلك بسبب تساقط الثلوج. في صوفيا-أنتيبوليس، وتحديدًا في تلك المرحلة من العام، كان الاتّكال على ناثرات الملح أو جرّافات الثلوج لفتح الطريق، من سابع المستحيلات. استُدعيت أمّي على جناح السرعة قبل نصف ساعة. فقد انزلقت شاحنة بفعل الجليد المتراكم، معترضةً الطريق المؤدّي إلى مدخل الليسّيه، تمامًا عند المحرَس. وفي غياب الحلّ، طلبت أمّي المساعدة من فرنسيس بيانكارديني، والد ماكسيم، الذي وعدها بالحضور في أسرع وقت ممكن.

عليه، رفعتُ السمّاعة وأنا أفكّر في الحالة الطارئة الألف نتيجة رداءة الطقس، أو ربّما هي مكالمة من ماكسيم يلغي فيها موعدنا.

كنّا اعتدنا أن نلتقي بعد ظهر كلّ سبت في مقهى «شي دينو» لنلهو بالبيبي فوت، كرة القدم المصغَّرة، أو نشاهد مسلسلات الفيديو، أو نتبادل الاسطوانات المدمجة، أو نتسكّع بهواتفنا المحمولة أمام الماكدونالدز، في موقف متجر كارفور-أنتيب، قبل أن نعود إلى الداخل لمتابعة الأهداف المسجَّلة ضمن بطولة فرنسا في كرة القدم، ضمن برنامج «يوم مع كرة القدم».

– تعال يا توماس، أرجوك!

شعرتُ بقلبي ينقبض في صدري. لم يكن صوت ماكسيم، بل كان صوتها هي، شبه مكتوم، صوت فينكا. كنتُ أظنّها عادت إلى عائلتها في بوسطن، لكنّها راحت تشرح لي أنّها ما زالت في الليسّيه، وأنّها ليست على ما يرام، وتريد مقابلتي.

كنتُ مدركًا تمام الإدراك أنّ سلوكي هذا يثير الشفقة، لكن كلّما نادتني فينكا، أو كلّمتني، استعدتُ بصيص أمل وهرعتُ مسرعًا إليها. وهذا بالطبع ما فعلته من جديد، هذه المرّة أيضًا، لاعنًا ضعفي

وشاتمًا قلّة اعتدادي بالنفس، نادمًا على عدم تمتُّعي بالقوّة النفسيّة الكافية لأتظاهر بعدم المبالاة.

.5

كانت الأرصاد الجويّة توقّعت بعض التحسّن في الطقس مع أولى ساعات المساء، ومع ذلك طال الانتظار: فالبرد القارس ما انفكّ يشتدّ، تدعمه عواصف من النفناف الأبيض. في عجلة من أمري، نسيت انتعال الجزمة أو الحذاء المضادّ للانزلاق، وراح حذائي الخفيف يغرز في الثلج ويغرق فيه. دأبتُ على التقدّم بخطى بطيئة، مستدفئًا بسترتي السميكة المضادّة للبرد، وحانيًا جذعي للاحتماء من الرياح، كأنّني جيريميا جونسون يطارد شبح دبّ أشهب. على الرغم من لهفتي، ومع أنّ مباني المدرسة الداخليّة لا تبعد سوى مئة متر تقريبًا من مسكن والديّ في الحرم، استغرقتُ حوالى عشر دقائق لأبلغ جناح نيكولا-دو-ستايل. تحت وابل العاصفة، كان المبنى قد فقد زرقته الزاهية ليستحيل كومة رماديّة وظلالًا باهتة يكتنفها ضباب أبيض برّاق.

كان البهو مهجورًا بقدر ما فيه من صقيع. حتّى أنّ الأبواب الزلّاقة التي تُفضي إلى قاعة التلميذات المشتركة كانت موصدة. نفضتُ الثلج الملتصق بنعليّ وصعدت الدرجات، أربعًا أربعًا. حين بلغتُ الرواق، طرقتُ باب فينكا مرّات عدّة. وحينَ لم ألقَ جوابًا، دفعتُ الباب ودخلتُ حجرة نيّرة عابقة بعطر الفانيلّا والبلسمينة، أي تلك الرائحة الخاصّة بورق أرمينيا.

كانت فينكا مستلقية في سريرها، غارقة فيه، وقد أغمضت عينيها. أمّا شعرها الأصهب الطويل فقد اختفى تمامًا تحت اللحاف الخفيف، الذي راح يعكس لمعان السماء المثلجة، شذرات قشديّة. دنوتُ منها. لمستُ وجنتها. وضعتُ يدي برفق على جبينها.

كان حارقًا. تمتمت فينكا بضع كلمات غير مفهومة في شبه سباتها، من دون أن تفتح عينيها. فقرّرتُ تركها تنام فيما ألقيتُ نظرة على الصيدليّة في الحمّام، بحثًا عن أقراص مضادّة للحمّى. كانت صيدليّتها الصغيرة تفيض بالأدوية الثقيلة: منوِّمات، ومضادّات اكتئاب، ومسكِّنات، بيد أنّني لم أجد بينها أيّ قرص من الباراسيتامول.

خرجتُ من جديد لأطرق باب الغرفة الأخيرة في الرواق، فبدا وجه فاني براهيمي من شقّ الباب. كنتُ أدرك أنّها جديرة بالثقة. وإن لم نعد نتقابل كثيرًا منذ بداية العام الدراسي، فكلٌّ منّا كان منهمكًا بدروسه، بيد أنّها كانت صديقة وفيّة.

– مرحبًا توماس، قالت لي وهي تنزع نظّارتها الطبيّة عن عينيها.

كانت ترتدي جينز ممزّقًا، وتنتعل كونفرس مُستَنفدًا، وكنزة موهير قياسًا كبيرًا. أمّا الكحل الكثيف الفاحم الذي حاولَت رسم عينيها به فلم يفعل سوى إطفاء بريق نظرتها ورِقّتها. ماكياج صارخ يُحاكي ألبوم فريق «ذاكيور» الذي كانت أنغامه تتصاعد صافرةً مقرقعة من مُسجِّل الأسطوانات.

– مرحبًا فاني، أحتاج إلى بعض العون.

ثمّ شرحتُ لها الوضع وسألتُها عمّا إذا كان لديها باراسيتامول. فيما ذهبَت تجلب الأقراص، أشعلتُ موقد الغاز الصغير في الحجرة لأسخّن بعض الماء.

– وجدت أقراص دوليبران، قالت لي وهي تتّجه صوبي.

– شكرًا، هل في وسعكِ تحضير بعض الشاي لها؟

– أجل، مع سكّر كثير لئلّا تصاب بالجفاف. سأتدبّر الأمر.

عدتُ إلى غرفة فينكا. فَتَحت عينيها قبل أن تستقيم وتستند إلى وسادتها.

– خـذي، قلت لها وأنـا أناولها قرصين. تشتعلين من شدّة الحمّى.

لم تكن تهلوس، لكنّها كانت في حال مزرية. حينَ سألتُها لِمَ أرسلَت في طلبي؟ أجهَشَت بالبكاء. حتّى وهي محمومة، ووجهها شاحب مُتعَب، والدموع تسيل على وجنتيها، كانت تحتفظ بقدرة إغراء جذّابة قلّ مثيلها، وتحيط بها هالة من الغموض الشفّاف الحالِم، هالة يصعب تفسيرها: لحن عذب ونقيّ لقيثارة سماويّة وسط معزوفة شعبيّة من التسعينيّات.

– توماس،... غمغمت متلعثمة.

– ما بالكِ؟

– أنا قبيحة ورديئة.

– هراء. لِمَ تقولين ذلك؟

انحنَت صوب الطاولة الخفيضة المحاذية السريرَ لتلتقط من عليها شيئًا ظننتُه في الوهلة الأولى قلم حبر سائل قبل أن أدرك أنّه أنبوب اختبار الحمل.

– أنا حامل.

وقع نظري على الخطّ العمودي الصغير الذي غالبًا ما يشير إلى أنّ الاختبار إيجابي، تذكّرتُ مقتطفات من رسائل ألكسيس، رسائل أصبتُ بالغثيان عند قراءتها: «سنبني بيتنا وأسرتنا عمّا قريب. وسيأتي ولدنا ليوحّد مصيرينا إلى الأبـد. وستكون له ابتسامتكِ الملائكيّة وحدقتاك الرماديّتان الملتمعتان كالفضّة الخالصة».

– عليكَ أن تساعدني يا توماس.

كنتُ مضطربًا إلى حدّ أنّني لم أفهم أيّ نوع من المساعدة تتوقّع منّي.

– لم أشأ ذلك، تعرِف... لم أشأ، عادت تتمتم.

فيما هممتُ بالجلوس قربها على السرير، أسرَّت لي بين شهقة وأخرى:

– لستُ المسؤولة عن ذلك! بل ألكسيس.

صُعقتُ وطلبتُ منها أن تكرِّر ما قالت، فأوضحت لي:

– كانت فكرة ألكسيس. أنا لم أشأ أن أعاشره!

تلك كانت العبارة التي تفوّهت بها. حرفيًا. لم أشأ أن أعاشره. ألكسيس كليمان النذل قد أجبرها على ممارسة أمور عنوةً، أشياء لم تكن ترغب فيها.

قمتُ من على السرير بدفعٍ من عزم جديد.

– سأصلح الوضع، أكّدتُ لها وأنا أتّجه صوب الباب. سأعود لأراك لاحقًا.

ومن ثمّ خرجتُ على عجل، فاصطدمتُ بفاني، حاملة صينيّة الشاي.

كنتُ أجهل ذلك، بيد أنّ عبارتي الأخيرة هذه تضمّنت كذبتين. أوّلًا، لن أتمكّن من إصلاح الوضع، بل على العكس. وثانيًا، لن أعود لرؤية فينكا. أو على الأرجح حين أعود، تكون هي قد اختفت إلى الأبد.

.6

كان الثلج قد توقّف عن التساقط في الخارج، ومع ذلك أرخت بعض السحب الرماديّة بظلالها القاتمة على المكان. بدت السماء مكفهرّة، ثقيلة، كأنّها ستُسحق على الرؤوس؛ نذيرة ليل وشيك.

رحت أتخبّط في مشاعر متضاربة. فقد غادرتُ تلك الغرفة غاضبًا وثائرًا نتيجة الحقيقة التي رمتها فينكا في وجهي، إنّما مدفوعًا بشيء من العزيمة. فجأةً، استعادت الأشياء كلّها معناها: ألكسيس

كان مجرّد محتال، غشّاش ومغتصب. وأنا ما زلتُ أعني لفينكا فقد استدعتني أنا، وأنا وحدي لكي أساعدها.

لم يكن المبنى الذي يقيم فيه الأساتذة بعيدًا. كان ألكسيس كليمان من والدة ألمانيّة ووالد فرنسي. وقد نال شهادته من جامعة هامبورغ وهو يعمل في الليسّيه سانت-إكزوبيري بموجب عقد قانوني محلّي. وبوصفه أستاذًا مقيمًا، كان يحقّ له في مسكن عمل موقّت في مبنى صغير مُطلّ على البحيرة.

بغية الوصول إليه، سلكتُ طريقًا مختصرًا عبر ورشة الجمنازيوم. كانت مجموعة البلاط المركَّب، والركائز، وخلّاطات الإسمنت، وجدران الطوب، قد اختفت في معظمها، إذ طمرتها طبقة سميكة من الثلج الناصع البياض.

أخذتُ وقتي كلّه لانتقاء سلاحي، فوقع خياري أخيرًا على قضيب حديد قد نسيه العمّال في مِنقَلة، في محاذاة كومة من الرمل. لن أدّعي أنّ مبادرتي تلك لم تكن مدروسة، وعن سابق تصوّر وتصميم. فثمّة ما استيقظ فيّ فجأةً. عنف بدائي، غريزة مُستمدّة من أجدادي الأقدمين غمرتني كالطوفان. وتلك حالة لم أعرفها إلّا مرّة، مرّة واحدة يتيمة في حياتي.

ما زلتُ أذكر حتّى اليوم ذلك الهواء المُسكِر، جليديًّا وحارقًا في آن، نقيًّا ومالحًا يسري في عروقي كصعقة كهربائيّة. فأنا لم أعد الآن ذاك الطالب المصاب بالربو الذي لا يفعل سوى التنهُّد بحسرة أمام مسألة حسابيّة، بل أصبحتُ مُحاربًا عنيدًا، جنديًّا يسير إلى الجبهة من دون خوف أو اضطراب.

حين وصلتُ أخيرًا إلى مبنى الأساتذة، كان الليل قد هبط تقريبًا. وفي البعيد، كانت صفحة البحيرة الداكنة تعكس وجه السماء المرتجف في تموُّجات فضيّة.

في وضح النهار – بما في ذلك أيّام عطلة الأسبوع – كان في إمكاننا الدخول إلى ردهة المدخل من دون الاضطرار إلى قرع الجرس أو استعمال المفتاح. على صورة المدرسة الداخليّة، كان المبنى باردًا، صامتًا، لا روح فيه. صعدتُ الدرج بخطى حثيثة. كنتُ أعلم أنّ أستاذ الفلسفة في غرفته، فقد سمعتُ أمّي تجيبه بالهاتف هذا الصباح حين اتّصل بها ليخبرها بأنّ الرحلة إلى ميونيخ قد ألغيت بسبب رداءة الأحوال الجويّة.

طرقتُ الباب الذي تصاعد من خلفه صوت الراديو، ففتح لي ألكسيس كليمان من دون أن يشكّ في شيء.

– توماس! مرحبًا!

كان يشبه سيدريك بيولين، بطل كرة المضرب: أسمر، طويلًا، أجعد الشعر، وقد ترك خصله تنمو وصولًا إلى أسفل عنقه. كان يتجاوزني بحوالى عشرة سنتيمترات ويتمتّع ببنية أقوى وأمتن من بنيتي، ومع ذلك، لم يؤثّر ذلك فيّ البتّة في تلك اللحظة.

– أرأيتَ الطقس المزري! قال مستنكرًا. وأنا الذي كنتُ أنوي الذهاب إلى برشتيسغادن للتزلّج برفقة أصحابي. واثق في أنّ الثلج هناك أقلّ سماكة من هنا!

كانت الغرفة مفرطة التدفئة. لمحتُ جعبة سفر كبيرة قرب الباب، فيما تناهى إلى مسمعي صوت جان-ميشال داميان، دافئًا ساحرًا، عبر جهاز ستيريو هاي-فاي: «وبهذا، نأتي إلى ختام فقرة اليوم، لكن ابقوا معنا عبر أثير «فرانس موزيك»، سوف يوافيكم بعد قليل آلان جيبير وموسيقاه الجاز...».

فيما همَّ يدعوني إلى الدخول، لاحظ كليمان القضيب الحديد في حوزتي.

– ولكن ما الذي تـ...، قال متلعثمًا، وقد اتّسعت عيناه من شدّة الذهول!

ما عاد الوقت مناسبًا للتفكير ولا للحوار.

انطلقَت الضربة الأولى تلقائيًا، كأنّ أحدهم سدّدها عنّي: أصابت الأستاذ مباشرةً في صدره، فتركَته مترنّحًا، مقطوع الأنفاس. فيما نسفَت الثانية ركبته، فأطلق صرخة شديدة أشبه بالعويل.

– لماذا اغتصبتَها أيّها المخبول؟!

حاول ألكسيس كليمان التشبُّث بالبار الذي كان يفصل بين الحجرة الأساسيّة والمطبخ الصغير، لكنّه لم يوفَّق فتهاويا معًا: تهشَّمت كومة من الصحون وزجاجات مياه سان بيليغرينو وتطايرت شظاياها على البلاط، من دون أن تردعني.

فقدتُ صوابي. كان الأستاذ طريح الأرض لا حول له ولا قوّة، بيد أنّني واصلتُ ضربه بلا هوادة. رحتُ أُتبع كلّ ضربة بأخرى، بإيقاع منتظم، رتيب، بدفع من قوّة تتجاوز التوقّعات كلّها. حلّت الركلات محلّ ضربات الأداة الحادّة، فيما راحت مَشاهد ذلك النذل وهو يعتدي على فينكا تتدافع في ذهني، فتصبّ زيتًا على نار غضبي وحنقي. لم أعد أرى كليمان. لم أعد أنا نفسي. كنتُ أدرك تمامًا أنّني أرتكبُ ما لا يمكن تصحيحه. ومع ذلك، عجزتُ عن استعادة صوابي. أصبحتُ سجين دوّامة مميتة، دمية يحرِّك خيوطها إله الثأر والإبادة.

أنا لستُ سفّاحًا.

ردَّد صوت في ذهني. صوت واهن. محاولة إنقاذ أخيرة. النداء الأخير قبل بلوغ نقطة اللاعودة. تركتُ القضيب الحديد يسقط من يدي التي جمدت فجأةً.

استغلّ كليمان لحظة التردُّد هذه، ليستجمع قواه ويطبق على ربلتي، وطبعًا بسبب نعليّ الشديدي الانـزلاق، تمكّن من إفقادي

التوازن. فانطرحتُ أرضًا أيضًا. كان الأستاذ في حالة مزرية، بيد أنّه انقضّ عليّ بلمح البصر، متحوّلًا فجأةً من طريدة إلى صيّاد. راح يضغط عليّ بكلّ ثقله، فيما حاصرتني ركبتاه بإحكام كفكّي كمّاشة شلّت حركتي.

فتحتُ فمي لأصرخ، لكنّ كليمان كان أمسك بإحدى الشظايا الزجاجيّة. عاجزًا لا حول لي ولا قوّة، رأيت ذراعه ترتفع ثمّ تهوي لتطعنني بقطعة الزجاج المكسور الطويلة. عندذاك، تقلّص الزمن وشعرتُ بحياتي تُفلِت منّي. حدث ذلك في ثانية واحدة، لكنّها طالت دهرًا. ثانية من تلك الثواني التي تقلب حياة أشخاص عدّة رأسًا على عقب.

ومن ثمّ تسارعت الأمور دفعة واحدة. اندفق سيل فاتر من الدم الأحمر المائل إلى البنّي، ليغرق وجهي. شعرتُ بجسم كليمان يتداعى ويتراخى فاغتنمتُ الفرصة لأخرج ذراعي من تحته وأمسح جفنيّ. حين فتحتُ عينيّ مجدّدًا، كان نظري ضبابيًّا مشوَّشًا، ومع ذلك، استطعتُ تمييز قامة أو طيف قامة يعلو الأستاذ الذي استحال كومة داكنة؛ قامة ماكسيم وإن غير واضحة الخطوط وشبه متلاشية. ماكسيم بشعره الفاتح، ولباسه الرياضي الـ«تشالنجر»، وسترته الـ«تيدي»، سترة من الصوف الرمادي والجلد الأحمر.

.7

لم يحتَج ماكسيم إلى أكثر من طعنة واحدة بسكّينه: حركة خاطفة، نصل لامع قصير، لا يكاد يتجاوز طول قاطِع صغير، كأنّه بالكاد لمس الوريد الوداجي في عنق ألكسيس كليمان.

– يجب استدعاء فريق الإطفاء! قلتُ وأنا أعاود النهوض.

بيد أنّني كنتُ أدرك أنّ الأوان قد فات. كليمان قد مات. أمّا أنا، فتغطّيني الدماء: وجهي، شعري، كنزتي، حذائي. حتّى أنّها بلغت شفتيّ وطرف لساني.

لبث ماكسيم واقفًا هنيهة، مصعوقًا مثلي: كان مهزومًا، جامدًا، مُتقطّع النفس. عاجزًا كليًّا عن التفوّه بأيّ كلمة.

الواقع أنّنا ما كنّا لنستدعي الإطفاء ولا الإسعاف، بل الشرطة.

– انتظر! ربّما لا يزال والدي هنا! صاح فجأةً بعدما خرج من سبات الذهول.

– أين؟

– قرب المحرَس!

غادر شقّة كليمان وسمعتُ وقع قدميه السريع على الدرج، وقد تركني وحدي مع جثّة رجل، الرجل الذي قتلناه للتوّ.

كم من الوقت بقيت وحدي؟ خمس دقائق؟ أم لعلّه ربع ساعة؟ هبط عليّ صمت ثقيل، ساحق، وشعرتُ من جديد بأنّ الزمن قد توقّف. أذكر أنّني بقيتُ ملتصقًا بالنافذة أحملق في الخارج، لأتجنّب النظر إلى الميت. كان سواد حالك قد غمر صفحة البحيرة المرتعشة، كأنّ أحدهم ضغط زرًّا ليُطفئ أنوارها فجأةً. حاولتُ التركيز على نقطة ما، فقط للتشبُّث بأيّ شيء، بيد أنّ مشهد الثلج الممتدّ أمامي، أغرق نظري في انعكاساته الوامضة المبهرة.

ذلك البياض الشامل السحيق وإنّما أعاد تذكيري بما ستكون حياتنا عليه من الآن فصاعدًا. حياة فقدت استقرارها إلى الأبد. لم تكن صفحة تُطوى ولا حتّى حقبة تنتهي، بل أبواب الجحيم تنفتح لتقذف نيرانها علينا من تحت الثلج.

فجأةً، لفَتَني ضجيجٌ على الدرج، ثمّ صُفق الباب. وما لبث أن اقتحم فرنسيس بيانكارديني الغرفة، يواكبه ابنه ورئيس ورشته. كان

متعهِّد البناء لا يزال هو هو: شعره كستنائي منفوش يخالطه الشيب، معطف جلدي مضادّ للمطر تُزيّنه لطخ الطلاء. متشامخ منفوخ الصدر، لاهث تحت كيلوغراماته الزائدة.

– إذًا يا صغيري، هل ستكون على ما يرام؟ سألني وعيناه تترصّدان حدقتيّ.

لم تخوّلني حالتي الخاملة الإجابة بأيّ شيء.

كانت الشقّة تضيق بقوامه الثخين كأنّه احتلّها بأكملها، بيد أنّ مشيته العازمة الرشيقة كانت تناقض وبشكل صارخ بنيته الضخمة.

وقف فرنسيس منتصبًا وسط الغرفة، مستغرقًا ما يكفيه من وقت لتقييم الوضع ومسح الأضرار. ما كان وجهه المنقبض يشي بأيّ انفعال، كأنّه كان يُدرك منذ البداية أنّ هذا سيأتي، كأنّها ليست المرّة الأولى التي يواجه فيها مأساة من هذا النوع.

– من اللحظة هذه، سأستلم زمام الأمور، أعلن لنا جهارًا وهو ينقّل نظره بيني وبين ماسكيم مناوبةً.

عندما سمعتُ صوته هادئًا، ثابتًا ورزينًا، فهمتُ نهائيًّا أنّ قناع الأحمق الفاشي الذي يتقنّع به فرنسيس بيانكارديني في العلن، لا يشبه بشيء شخصيّته الحقيقيّة، لا من قريب ولا من بعيد. ففي تلك الأوقات العصيبة، بدا الرجل الواقف أمامي أشبه برئيس عصابة متصلِّب وعديم الرحمة. رأيتُ فرنسيس «العرّاب». ومع ذلك، إن كان ثمّة احتمال واحد في أن يُخرِجنا من هذا المأزق، فأنا مُستعدّ لأن أقسم له يمين الولاء.

– سننظّف هذا كلّه، قال وهو يلتفت إلى أحمد، رئيس الورشة. لكن أوّلًا، اذهب واجلب الشوادر من الشاحنة.

وقف التونسي بملامحه الشاحبة ونظراته المذعورة. وقبل أن يمتثل للأوامر، لم يستطع تمالك نفسه عن الاستفهام:

– ما الخطّة، يا رئيس؟

– سنزجّه في الجدار، أجابه فرنسيس مشيرًا بذقنه إلى الجثّة.

– أيّ جدار؟ سأله أحمد.

– جدار الجمنازيوم.

5

آخر أيّام فينكا روكويل

لا شيء يُعيد إحياء الماضي،
بقدر الرائحة التي فاحَت منه ورُبط بها.

فلاديمير نابوكوف

.1 مكتبة t.me/ktabrwaya

اليوم،

في 13 مايو 2017

– لم أعاود تداول تلك الحادثة مع أبي، أكّد ماكسيم وهو يُشعل سيجارة. انعكست أشعّة الشمس على ظاهر ولّاعته الملمَّع – زيبو مزيّنة بنسخة ختم ياباني مزخرف: موجة كاناغاوا العظمى – فراح يلتمع كالذهب. كنّا قد غادرنا أجواء الجمنازيوم الخانقة لنصعد إلى أعالي «عشّ النسر»، وهو كناية عن كورنيش ضيّق تزيّنه الزهور، ويمتدّ على طول أنف جبل صخري مُطلّ على البحيرة.

– حتّى أنّني لا أعرف في أيّ نقطة من الجدار دُفِنت الجثة، تابع صديقي.

– ربّما حان الوقت لتسأله، لا؟

– والدي توفّاه الله هذا الشتاء يا توماس.

– تبًّا، أنا آسف حقًّا!

لاح طيف فرنسيس بيانكارديني في حوارنا.

لطالما اعتبرتُ والد ماكسيم عنيدًا لا يُقهَر. صخرة يتكسَّر عليها كلّ الذين يتهوّرون ويهاجمونه. بيد أنّ الموت غريم استثنائي. ذاك الذي يفوز دائمًا في النهاية.

– وما سبب وفاته؟

سحب ماكسيم نفَسًا طويلًا من «نُقاعته»، ما جعله يطرف عينيه.

– إنّها قصّة شاقّة، قال مُنذرًا. ففي السنوات الأخيرة، راح يمضي معظم وقته في منزله الكائن في أوريليا بارك. أنت تعرف المكان؟

أومأت برأسي إيجابًا. بالطبع أعرف، أعرف تمامًا ذلك المقرّ الفخم والمحصَّن، في أعالي نيس.

– في أواخر السنة، تعرّض المنزل وأراضيه لسلسلة من السرقات، وقد كانت عنيفة جدًّا في بعض الأحيان. لم يتوانَ اللصوص عن اقتحام الفيلّات هناك، حتّى في حضور سكّانها. وقد حصلت مصادرات واعتقالات وتصفيات عديدة.

– ووقع فرنسيس ضحيّتها؟

– أجل. يوم عيد الميلاد. كان يحتفظ بسلاح في المنزل، لكنّه لم يتسنّ له الوقت لاستعماله. لقد ربطه اللصوص وأوسعوه ضربًا. مات نتيجة نوبة قلبيّة ألمّت به بعد الاعتداء.

السرقات. إحدى آفات كوت دازور، إلى جانب الغزو الإسمنتي، وازدحام مسارب السير، والاكتظاظ السكّاني الناجم عن السياحة المكثَّفة...

– وهل اعتُقِل الذين ارتكبوا تلك الفعلة؟

– نعم، عصابة من مقدونيا. منظَّمة جدًّا. اعتقلت الشرطة اثنين أو ثلاثة منهم وهُم الآن في السجن.

أسندتُ مرفقي إلى الدرابزين. كانت الشرفة المصنوعة من معدن صلب على شكل هلال، تطلّ على البحيرة في مشهد يخطف الأنفاس.

– وغير فرنسيس، من يعرف بشأن مقتل كليمان؟

– أنت وأنا فحسب، أكّد لي ماكسيم. وأنت تعرف أبي: لم يكن من النوع الثرثار...

– ورفيقك؟

هزّ رأسه.

أبدًا اللعنة! هذا آخر ما أودّ أن يعرفه أوليفييه. لم أذكر تلك الجريمة أمام أحد طيلة حياتي.

– لكنّ أحمد غزواني رئيس الورشة كان حاضرًا أيضًا.

بدا الارتياب واضحًا على ماكسيم:

– ليس من شخص صامت كتوم أكثر منه. ولماذا قد يتكلّم عن جريمة كان مشاركًا فيها؟

– أما زال في قيد الحياة؟

– لا، لقد عاد إلى بيزيت ليعيش أيّامه الأخيرة هناك بعدما تآكله السرطان.

ركّزتُ نظّارتي السوداء على عينيّ. كانت ساعات الظهر تدنو. من أعالي السماء، راحت الشمس تنثر أشعتها على «عشّ النسر»، حيث لجأنا. كان المكان، المُحاط بشرفة صغيرة عاديّة من الخشب، جذّابًا بقدر ما هو خطر. فلطالما مُنِع التلاميذ من سلوكه. لكن وبوصفي ابن المدير، كنت أملك حق المرور وقد احتفظتُ بذكريات

ساحرة عن أمسياتنا تلك أنا وفينكا، أمسيات أمضيناها ندخِّن ونشرب المندارينيللو، فيما يتمرأى القمر بصفحة البحيرة الصافية.

– الشخص الذي يبعث إلينا بتلك الرسائل يعرف حتمًا ما ارتكبناه! قال ماكسيم مغتاظًا.

ثمّ أخذ نفسًا طويلًا أخيرًا من سيجارته، ما استنفَدَها حتّى الفلتر.

– وألكسيس كليمان ذاك، هل لديه عائلة؟

كنتُ قد حفظتُ شجرة عائلته عن ظهر قلب، فبدأت أسرُد:

– كان كليمان ابنًا وحيدًا، وقد طعن والداه في السنّ آنذاك. ولا بدّ من أنّهما لفظا أنفاسهما الأخيرة هما أيضًا. في أيّ حال، لا يأتي التهديد من تلك الجهة.

– من أين يأتي إذًا؟ من ستيفان بيانيلي؟ منذ أشهر وهو يلاحقني كظلّي. ويحقِّق في شأني على جميع المستويات، مذ خضتُ الحملة لمصلحة ماكرون. يعيد فتح ملفّات قديمة عن والدي. هل تذكر أنّه كتب ذلك الكتاب عن فينكا؟

ربّما كنتُ ساذجًا بعض الشيء، لكنّني ما كنتُ لأتصوّر قَطّ أن يذهب ستيفان بيانيلي إلى هذا الحدّ ليرغمنا على كشف أمرنا.

– هو طُفيلي متطفِّل، أقررتُ في الحال. لكنّني لا أراه غُراب شؤم يبعث برسائل مجهولة، بل هو من النوع الذي قد يهاجمنا مباشرةً لو ارتاب في أمرنا. في المقابل، ذكر لي شيئًا أثار قلقي: مبلغ المال الذي عُثر عليه في خزانة عتيقة.

– عمَّ تتحدّث؟

لم يأخذ ماكسيم المعلومة على محمل الجدّ. شرحتُ له الوضع بإيجاز: الطوفانات، كيف اكتُشف مبلغ المئة ألف فرنك في حقيبة، وأثر البصمتين التي تعود إحداهما إلى فينكا.

– المشكلة أنّ المال كان موجودًا في خزانتي أنا آنذاك.

في حيرة واضحة، قطّب ماكسيم حاجبيه. ففصَّلتُ شرحي:

– قبل أن يُعيَّن والداي في الليسّيه، كنتُ قد تقدّمتُ بطلب للحصول على الغرفة التي شغلتُها في الصفّ الثانوي الأوّل.

– أجل، أذكر ذلك.

– وحين حصل والداي على الإذن بنقلهما، وعلى مسكن العمل الموقَّت، طلبا منّي أن أعيد الغرفة ليفيد منها تلميذ آخر.

– وهذا ما فعلتَه؟

– أجل، إلّا أنّ الخزانة لم يستعملها أحدٌ قطّ، بل ولم يُطلب منّي مفتاحها يومًا. بالتالي، احتفظتُ به من دون أن أستعمله كثيرًا، إلى أن طلبته فينكا منّي قبيل بضعة أسابيع من اختفائها.

– من دون أن تقول لكَ أنّها تنوي دسّ المال فيها؟

– بالطبع! نسيتُ تمامًا قصّة الخزانة. حتّى حين اختفت فينكا، لم أربط بينها وبين تلك الحادثة.

– ومع ذلك، ألّا يُعثَر على أثر للفتاة، لأمر يثير العجب.

2.

كان متّكئًا على جدار واطئ من الحجر الجافّ، تقدّم ماكسيم بضع خطوات نحوي لينعم هو الآخر بدفء الشمس. وكرّر على مسمعي الأنشودة التي ما انفكّت تدخل أذنيّ منذ الصباح.

– لم نعرف يومًا فينكا في الحقيقة.

– بلى، نعرف مَن هي تمام المعرفة. هي صديقتنا.

– بل كنّا نعرف عنها من دون أن نعرفها، تابع بإصرار.

– بِمَ تفكّر بالضبط؟

– البراهين كلّها تثبت أنّها كانت مغرمة بألكسيس كليمان: الرسائل التي عثرتَ عليها، والصور التي تُظهرهما معًا... هل تذكر تلك اللقطة خلال حفلة نهاية السنة، حيث تكاد تلتهمه بنظراتها؟

– إذًا؟

– إذًا؟ لماذا قد تدّعي بعد أيّام قليلة أنّ الرجل اغتصبها؟

– هل تظنّ أنّني كذبتُ عليك؟

– لا، لكن...

– إلامَ ترمي تحديدًا؟

– ماذا لو كانت فينكا لا تزال في قيد الحياة؟ ماذا لو كانت هي التي تبعث لنا بهذه الرسائل؟

– خطر ذلك في بالي، اعترفتُ له. ولكن لأيّ سبب؟

– بدافع الثأر. لأنّنا قتلنا الرجل الذي تُحِبّ.

ثارت ثائرتي:

– اللعنة، كانت خائفة منه يا ماكسيم! أقسِم لك. قالت لي ذلك بالفم الملآن. حتّى أنّه كان آخر ما قالته لي: «كانت فكرة ألكسيس. أنا لم أشأ أن أعاشره!».

– ربّما كانت تهذي. آنذاك، كانت... حسنًا تحت تأثير العقاقير. كانت تبتلع الأحماض والقاذورات كلّها التي قد تقع يدها عليها.

وضعتُ حدًّا للنقاش:

– لا، حتّى أنّها كرّرت ما قالته لي. الرجل مجرّد مغتصب.

تجهّم وجه ماكسيم، وخلال وهلة تاه نظره في صفحة البحيرة قبل أن يعود إليّ:

– لطالما أكّدتَ لي أنّها كانت حاملًا في تلك الفترة؟

– أجل، هذا ما قالته وقد أرَتني الدليل.

– لو كان الأمر صحيحًا وقد أنجبَت طفلًا، فيجب أن يكون في الخامسة والعشرين اليوم. ربّما ثمّة ابن أو ابنة تريد أن تثأر لموت أبيها.

في الواقع، راودتني هذه الفكرة. فالاحتمال وارد، لكنّه بدا لي من نسج الخيال أكثر منه منطقيًا. انعطافة مبالغ بها بعض الشيء في رواية بوليسيّة. وهذا ما أجبت ماكسيم به، من دون أن أفلح في إقناعه كليًا. وما لبثتُ أن استجمعتُ شجاعتي لأتناول الموضوع الأهمّ في نظري، الموضوع الذي سيشكّل محور الساعات المقبلة.

– ثمّة أمر آخر يجب أن أطلعك عليه يا ماكس. منذ سنة ونيّف، وفيما كنتُ عائدًا لإطلاق حملة الترويج لكتابي الجديد، وقع اشتباك صغير بيني وبين أحد مسؤولي الجمارك في مطار رواسي. مجرّد نذل راح ينادي أحد المتخنّثين بـ«سيّدي»، مستمتعًا بتحقيره. الواقع أنّ المسألة تخطّت حدودها، وقد أوقفوني بضع ساعات و...

– وأخذوا بصماتك! استَنتَج قبل أن أُكمل.

– أجل، والآن بصمتي في سجلّ البصمات الإلكتروني، ما يعني أنّه لن يتسنّى لنا الوقت حتّى لتنفّس الصعداء. حالما يُعثَر على الجثّة والقضيب الحديد، وإذا ما تبقّت بصمة واحدة، سيظهر اسمي للعلن وسيُلقى القبض عليّ وأُستجوَب.

– ماذا إذًا؟ ما الذي سيتبدّل في المعادلة؟

أطلعتُه على القرار الذي أخذته في الليلة الفائتة، وأنا على متن الطائرة:

– لن أورّطك. لا أنتَ ولا والدك. سأتحمّل كلّ المسؤوليّة. سأقول أنّني قتلتُ كليمان بمفردي وطلبتُ من أحمد أن يخفي الجثّة.

– لن يصدّقك أحد على الإطلاق. ولماذا قد تفعل ذلك؟ لماذا تضحّي بنفسك؟

– لا أولاد لي، ولا زوجة، ولا حياة... باختصار، لا شيء أخسره.

– لا، هذا هراء! انقذفت الكلمات من فمه فيما راحت عيناه ترمشان.

بدا جفناه غارقين في فجوتين رماديّتين ووجهه شاحبًا مُرهَقًا، وكأنّه لم يذق طعم النوم منذ يومين. وبدلًا من أن يهدّئ اقتراحي هذا روعه، زاد توتّره. ولكثرة ما أصررت وألححت، فهمتُ السبب.

– الشرطة على علم ببعض الأمور يا توماس. أنا واثق. لن تستطيع تبرئتي مهما فَعلتَ. تلقّيتُ اتّصالًا من مخفر أنتيب ليل أمس. رئيس الشعبة نفسه، المُفوَّض فنسان ديبروين الذي...

– ديبروين؟ مثل المدّعي العامّ السابق؟

– نعم، إنّه ابنه.

لم يكن ذلك خبرًا سارًّا على وجه التحديد. ففي التسعينيّات، كانت حكومة جوسبان قد عيّنت إيفان ديبروين مدّعيًا عامًّا في محكمة نيس العليا، بنيّة توجيه ضربة قاسية إلى خلايا الإجرام والاحتيال النائمة في كوت دازور. كان «إيفان الرهيب[1]»، كما يُحبّ أن يلقَّب، قد وصل على أنغام طبل وزمر إلى كوت دازور بصورة الفارس الأبيض. وقد مكث هناك أكثر من خمس عشرة سنة، يكافِح ببسالة شبكات الماسونيّة وفساد السياسيّين المُنتخَبين. كان المأمور القضائي قد تقاعد للتوّ، ما بثّ الارتياح في قلوب البعض. لأكون صادقًا، كان كثر من سكّان المنطقة يكرهون ديبروين وطبعه الأشبه بـ«دالا كييزا»[2]، بيد أنّ ألدّ مُغتابيه كانوا يُقدِّرون جانبه العازم والمثابر. وعليه، إذا ورث ابنه تلك «الحسنات»، فسوف نواجه شرطيًّا

[1] إيفان الرابع فاسيليفيتش، أمير موسكو وفلاديمير الكبير (1533-1584) وقيصر روسيا الأوّل (1547-1584) وقد لقِّب بإيفان الرهيب.

[2] الجنرال دالا كييزا حاكم باليرمو ومحارِب ضدّ المافيا، وقد اغتيل بعيد أشهر قليلة من تعيينه، هو وزوجته وحارسه الشخصي.

داهية، مُعاديًا السياسيّين المنتخبين وكلّ ما يمتّ بصلة سواء من قريب أو بعيد إلى وجيه قوم أو مُنضوٍ تحت راية ماكرون وحزبه.

– وماذا قال لك ديبروين على وجه التحديد؟

– طلب منّي الحضور لمقابلته في أسرع وقت. يريد أن يطرح عليّ بعض الأسئلة. قلت له أنّني سأمرّ به بعد ظهر اليوم.

– اذهَب إليه حالما تستطيع، لنعرف ما ينتظرنا.

– أنا خائف، اعترَف لي.

وضعتُ يدي على كتفه، محاولًا أن أطَمئنه بكلّ ما أوتيت من قدرة على الإقناع:

– ليس استدعاءً رسميًا. ربّما وقع ديبروين تحت تأثير الشائعات. وهو على الأرجح يحاول اصطياد معلومات جديدة. لو كان يملك دليلًا ملموسًا، لما تصرّف على هذا النحو.

كانت مسامه كلّها تنضح خوفًا محمومًا. فكّ زرًّا آخر من قميصه فيما أخذ يمسح حبيبات العرق المتلألئة على جبينه.

– ما عدتُ أتحمّل العيش تحت تهديد سيف الموت هذا. ربّما إن روينا كلّ ما حدث لـ...

– حاشا وكلّا يا ماكس! حاول الصمود بعد، أقلّه حتّى نهاية الأسبوع. أعرف أنّ الأمر ليس سهلًا البتّة، لكنّ أحدهم يسعى إلى ترهيبنا وزعزعتنا. دعنا لا نقع في الفخّ.

أخذ نَفَسًا عميقًا، وبعد جهد جهيد بدا أنّه استعاد هدوءه.

– دعني أحقّق في الأمر بنفسي. كما ترى، الأمور كلّها تتسارع وتتداعى. أمهلني الوقت الكافي لأفهم ما حلّ بفينكا.

– حسنًا، قال موافقًا. سأمرّ بالمخفر. وسأعلمك بالمستجدّات.

نظرتُ إلى صديقي وهو ينزل الدرج الحجري، ثمّ يسلك الدرب المتعرّجة بين نبات اللافندر. كلّما ابتعد، تقلّص طيفه أكثر وتشوّشت معالمه إلى أن تلاشى نهائيًا وسط البساط البنفسجي الفوّاح.

.3

قبل أن أغادر حرم الليسّيه، توقّفتُ أمام الأغورا، ذلك المبنى الزجاجي على شكل صحن طائر. كأنّما هبط من العدم ليلتصق بالمكتبة التاريخيّة (ما كان أحد في سانت-إكزوبيري ليستعمل تسمية مركز التوثيق والمعلومات للدلالة على مكان بهذه الرمزيّة).

كان جرس الظهر قد قرع، مُعلنًا عن خروج دفعة من الطلّاب. ولئن بتنا نحتاج من الآن فصاعدًا إلى بطاقة تعريف لدخول قاعات المحاضرات، فقد تحرّرتُ شخصيًا من هذا الإجراء، إذ اخترتُ القفز فوق البوّابة الصغيرة – في لقطة مُعادَة لما يفعله عادةً رعاع الأقوام، أو الطلّاب المُفلسون أو رؤساء الجمهوريّة، في المترو الباريسي.

عند وصولي إلى مَشارِف مكتب الإقراض، تعرّفتُ إلى إيلين بوكمانز التي يناديها الجميع هنا زيلي. كانت تلك السيّدة المثقّفة الألمعيّة من أصول هولّنديّة، المغرورة بعض الشيء، تتبجّح بإطلاق الآراء النهائيّة مقرونةً بالحجج والبراهين، في جميع الأمور وعلى جميع الأصعدة. في المرّة الأخيرة التي تقابلنا فيها، وجدتُها متصلّفة، تُناهز الأربعين، تفيد من بنيتها الرياضيّة لتتلاعب بكلّ شيء وبالجميع. أمّا الآن ومع التقدُّم في السنّ، فقد بدت القائمة على المكتبة أشبه بالجدّة نوفا التي نراها في إعلانات الألبان والأجبان، لكن على الطريقة البوهيميّة: نظّارة مستديرة، وجهًا مربّعًا، ذقنًا مضاعفة، كُعيكة رماديّة، كنزة تميل أكثر إلى البلوزة تعلوها ياقة من الطراز كلودين.

– طاب نهارك يا زيلي.

علاوةً على سيادتها المُطلقة في المكتبة، أمضت زيلي السواد من سنواتها وهي تهتمّ ببرمجة أفلام السينما في الحرم، وتنظيم فقرات إذاعة الليسّيه، إضافة إلى تدبير شؤون الفرقة المسرحيّة، أي نادي المسرح في الليسّيه، الذي أفاد أيضًا من جهود أمّي وخبرتها طوال الفترة التي أدارت فيها الصفوف التمهيديّة.

– أهلًا بالمُخربِش، بادرتني بعفويّة، كأنّنا تقابلنا البارحة.

كانت امرأة لطالما صعب عليّ فهمها. فقد اشتبهتُ بأنّها كانت عشيقة أبي فترة وجيزة، ولكن وفق ما أذكر، كانت أمّي تقدّرها حقًّا. وعندما كنتُ على مقاعد الدراسة في سانت-إكز، كان التلاميذ في معظمهم يكنّون لها إعجابًا لا محدودًا – زيلي أتمّت هذا، وزيلي أنجزت ذاك – فيعتبرونها على التوالي كاتمة أسرار، ومُسعِفة اجتماعيّة، وموقظة ضمائر. أمّا زيلي – وهو اسم تدليل لطالما وجدتُه سخيفًا – فكانت تستغلّ موقعها هذا لإخضاع الجميع. «قويّة مع الضعفاء، ضعيفة مع الأقوياء»، كانت متقلبّة المزاج والنزوات، تعير بعض التلامذة اهتمامًا مفرطًا – الأكثر حظوة أو الأكثر انفتاحًا في الأغلب – فيما تتجاهل الآخرين. ما زلت أذكر أنّها كانت تهوى أخي وأختي، بينما لم أشكّل يومًا ما يستحقّ الاهتمام بالنسبة إليها. وهذا ما كان يناسبني تمامًا: كان نفورنا هذا متبادلًا.

– ما الذي أتى بكَ يا توماس؟

بين آخر محادثة لنا واللحظة هذه، كنت كتبتُ عشرات الروايات، التي تُرجمت إلى عشرين لغة وبيعت منها ملايين النسخ عبر العالم. بالنسبة إلى قائمة على مكتبة عاينتني أكبر وأنمو، وإنّما وجب أن يعني ذلك شيئًا، أيّ شيء. لم أكن أتوقّع أيّ إطراء، لكن، مؤشّر اهتمام في الأقلّ. مؤشّرًا لم يظهر قَطّ.

– أتيتُ أقترضُ كتابًا، أجبتها.

– سأتحقّق أوّلًا من صلاحيّة بطاقتك، ردّت وهي تُجاريني في مزاحي.

لا بل ذهبَت إلى أبعد من ذلك، فراحت تبحث في أرشيف الكمبيوتر عن بطاقة افتراضيّة عتيقة، بطاقة عفّى عليها الزمن، منذ خمس وعشرين سنة.

– ها هي، وجدتُها! تمامًا كما كنتُ أظنّ، في حوزتك كتابان لم تُعِدهما بعد.

– هل جننتِ؟!

– نعم، جننت. قل لي ماذا تريد.

– الكتاب الذي كتبه ستيفان بيانيلي.

– أجل، لقد ساهم في تحرير كتيّب عن الصحافة وقد صدر عن دار...

– لا أعني ذلك الكتاب، بل التحقيق الذي كتبه حول قضيّة فينكا روكويل: «الصبيّة والموت».

دوّنت العنوان في الكمبيوتر أمامها.

– آه هذا، لم يعد لدينا.

– كيف؟

– صدر الكتاب العام 2002 عن دار نشر غير معروفة. وقد نفدت النسخ المطبوعة ولم تعاود طبعه منذ ذلك الحين.

رمقتها بهدوء تامّ.

– هل تسخرين منّي أم ماذا يا زيلي؟

تظاهرَت بالمهانة، ثمّ أدارت شاشة الكمبيوتر صوبي. ألقيتُ نظرة سريعة فتأكّدتُ أنّ الكتاب ليس مسجّلًا في لائحة المراجع.

– هذا غير معقول. بيانيلي من التلاميذ القدامى. ولا بدّ من أنّكم ابتعتم آنذاك نسخًا عدّة من كتابه.

هزّت كتفيها بلامبالاة:

– وهل تظنّنا نبتاع نسخًا عدّة من رواياتك؟!

– أجيبي عن سؤالي، من فضلك.

أزعجها كلامي، فراحت تتململ في كنزتها الفضفاضة ثمّ نزعت نظّارتها.

– أخذَت الإدارة أخيرًا قرار سحب كتاب ستيفان من المكتبة.

– لماذا؟

– لأنّ تلك الصبيّة وبعد مضي خمس وعشرين سنة على اختفائها، تحوّلت معبودةَ بعض تلامذة الليسّيه الحاليّين.

– تلك الصبيّة؟ هل تقصدين فينكا؟

أومأت زيلي برأسها إيجابًا.

– منذ ثلاث أو أربع سنوات، لاحظنا أنّهم يستعيرون كتاب ستيفان مرارًا وتكرارًا. كنّا نملك نسخًا عدّة منه، لكنّ لائحة الانتظار راحت تطول أكثر فأكثر. وما انفكّت أحاديث التلامذة تدور حول شخص فينكا. حتّى أنّ مجموعة الهيتيروديّات قد أقامت عرضًا مسرحيًّا حول قصّتها العام الماضي.

– الهيتيروديّات؟

– مجموعة من الشابّات النُخبويّات، اللامعات، مِن مناصرات المرأة. نوع من رابطة تستعيد مبادئ مجموعة نيويوركيّة مُناصرة للمرأة، كانت قائمة في بدايات القرن العشرين. بعضهنّ يقمن في جناح نيكولا-دو-ستايل وقد تزيّنَّ بالرمز الذي كان موشومًا على كاحِل فينكا.

كنتُ أذكر ذلك الوشم جيّدًا. الحروف GRL PWR منقوشة باحتشام على بشرتها. Girl Power. السلطة والنفوذ للنساء. فتحت زيلي ملفًّا في كمبيوترها، وهي تسترسل في شرحها. كانت لافتة

إعلانيّة لاستعراض موسيقيّ: «آخر أيّام فينكا روكويل». ذكّرني البوستر بغلاف أحد ألبومات بيل وسيباستيان: صورة بالأسود والأبيض على خلفيّة باللون الزهري الشاحب، وحروف مطبوعة بفنّ وأناقة.

– قد أتحفنَنا أيضًا بأمسيات خشوع في الحجرة التي كانت تشغلها فينكا، وطقوس جنائزيّة حول بعض التذكارات المتبقّية وحفل لذكرى اختفائها.

– وكيف تفسّرين شغف أبناء العصر الحديث بفينكا وذكراها؟

رفعت زيلي عينيها إلى الأعلى:

– أتصوّر أنّ هناك فتيات يتماهين بها، وبقصّة حبّها الرومانسي مع كليمان. فهي تُجسّد مثلًا صارخًا عن الحريّة، ولو خادعًا. أمّا اختفاؤها في سنّ التاسعة عشرة فقد خلّد ذكراها إلى الأبد.

متشبّثةً بثرثرتها، تركت زيلي كرسيّها لتتفحّص الرفوف المعدنيّة الممتدّة صفوفًا خلف منضدة الاستقبال الطويلة. وأخيرًا، عادت بكتاب بيانيلي.

– احتفظتُ بنسخة. إن شئت تصفّحها، قالت لي وهي تتنهّد.

مرّرتُ راحة يدي على غلاف الكتاب.

– لا أصدّق أنّكم قد تحظرون هذا الكتاب ونحن في العام 2017.

– هذا لخير التلامذة.

– هيّا أرجوك! حظر ورقابة في الليسّيه: ما كنّا لنشهد هذا في عهد والديّ.

حملقَت فيّ لحظة، بكلّ هدوء، قبل أن ترميني بسهم مميت:

– «عهد والديك» لم ينته على خير ما يرام، وفق ما أذكر.

شعرتُ بفيض غضب يسري في عروقي، بيد أنّني نجحت في الحفاظ على هدوء ظاهري.

– إلامَ تلمّحين؟

– لا شيء، أجابتني بحذر.

كنتُ أدرك تمامًا ما تلمّح إليه. فقد انتهى عهد إدارة والديّ في الليسيه بصورة مفاجئة العام 1998، وعلى نحو جائر جدًّا، حينَ أُخضع كلاهما للمساءلة حول قضيّة غامضة في شأن خرق قواعد نقل الأسواق العامّة.

وإنّما جسّدت تلك الحادثة مفهوم «كبش المحرقة» بامتياز. فقد اعتزم إيفان ديبروين، المدّعي العام آنذاك (ووالد الشرطي الذي يهمّ باستجواب ماكسيم)، إطاحة رؤوس كبيرة في المنطقة، كان يشتَبه بأنّهم يقبلون الرشى، وتحديدًا من فرنسيس بيانكارديني. فمنذ زمن بعيد والمدّعي العام يصبّ اهتمامه كلّه على المتعهِّد، مصوِّبًا عليه كلّما سنحت الفرصة. ولئن كانت الشائعات في معظمها حول فرنسيس مجرّد هراء – زُعم في بعض الأحيان أنّه يبيّض الأموال لمصلحة المافيا في كالابري – فقد بدا بعضها الآخر صحيحًا. لا ريب في أنّه عمد إلى رشوة بعض السياسيّين ليكتسب أسواقًا عامّة. وعليه، قد برز اسما والديّ، بين ملفّ وآخر، فيما كان المدّعي العام يحاول الإيقاع بفرنسيس. كان الأخير قد تولّى ورشًا عدّة في الليسّيه من دون أن يحترم قواعد استدراج العروض. في سياق التحقيق، أمضت والدتي أربعًا وعشرين ساعة في الحجز، جالسة على كرسي من دون مسند، في ثكنة أوفار القذرة؛ ذلك المخفر الرديء في المنطقة الشماليّة الغربيّة من نيس. وفي اليوم التالي، تصدّرت صورة والديّ عناوين الصحيفة المحليّة: مُركّبة بالأسود والأبيض، وما كانت لتبدو غريبة عن سلسلة اللقطات التي تُظهر أزواج القتلة المأجورين. لقطة

تتراوح بين العشّاق الدمويّين في اليوتاه والمُزارعين السفّاحين في كنتاكي.

نزلت المحنة عليهما كالصاعقة، من دون سابق إنذار، فقدّم كلاهما استقالته إلى مكتب التربية الوطنيّة.

مع أنّني كنت قد غادرت كوت دازور في تلك الحقبة، فقد آلمتني القضيّة كثيرًا. صحيح أنّ لوالديّ عيوب، لكنّها لا تشمل عدم النزاهة. لطالما زاولا المهنة خدمةً للتلامذة، وما كانا يستحقّان على الإطلاق خاتمة مُخزية كهذه، شوّهَت بالشكوك وسوء الظنّ كلّ ما أنجزاه. بعد مضي سنة ونيّف على التحقيق، صُنِّف ملفّ القضيّة بالفارِغ وقد انتهى بردّ الدعوى وإسقاط التهمة. ومع ذلك، كان المحظور قد وقع. وحتّى اليوم هناك ما يكفي من الأغبياء أو الماكرين، أمثال إيلين «زيلي» بوكمانز، للصيد في الماء العكر، عبر تلميح بسيط ظاهره بريء أمّا باطنه... فحدِّث ولا حرج.

رحت أحدجها بنظرات ملؤها التحدّي، إلى أن خفضت نظرها نحو الكمبيوتر. على الرغم من سنّها، وسحنة «الجَدّة الطيّبة»، ما كنت لأتوانى عن تهشيم وجهها طولًا وعرضًا، بلوحة مفاتيح الكمبيوتر. (ففي النهاية أنا مُجرم حقيقي)، بيد أنّني لم أفعل شيئًا من هذا القبيل. كظمتُ غيظي وحزمتُ قواي ونشاطي للمضي قدمًا في تحقيقي.

– هل في وسعي أن آخذه؟ سألتها مشيرًا إلى كتاب بيانيلي.

– لا.

– أعدك بأنّني سأعيده قبل يوم الإثنين.

– لا، ردّت زيلي معاندة. هو ملك للمؤسّسة.

لم أعر ملاحظتها أيّ اهتمام، بل تأبّطتُ الكتاب وقلتُ لها فيما استدرتُ أهمّ بالانصراف:

– أظنّك مخطئة. ابحثي في قاعدة البيانات. وسترين أنّ الكتاب غير مسجَّل فيها!

خرجتُ من المكتبة، ودرت حول مبنى الأغورا. سلكتُ الطريق الجانبي المختصر الذي يسمح بمغادرة الحرم عبر الحقول. كانت نبتات اللافندر قد أبكرت هذا العام، لكنّ عطور زهورها المنبعثة في الأرجاء لم تكن مطابقة لذكرياتي، وكانّ ثمّة خلل ما في المشهد، بل ولفحني الهواء محمَّلًا بروائح فلزيّة، مشبّعة بالكافور، لها نكهة الدم.

6

لوحة ثلجيّة

السرعة، البحر، منتصف الليل، كلّ ما يبرق ويلمع، كلّ ما هو أسود وقاتم، كلّ ما يُضِلّنا يسمح لنا بإيجاد دربنا.

فرنسواز ساغان

.1

الأحد 20 ديسمبر 1992

صباح اليوم الذي تلى الجريمة، استيقظتُ في ساعة متأخّرة. ففي الليلة الماضية، اضطررتُ إلى ابتلاع قرصين من المنوِّمات قد وجدتهما في صيدليّة الحمّام في البيت، قبل أن أستسلم أخيرًا للنوم. وهذا الصباح، كان المنزل فارغًا وباردًا. فوالدتي رحلت إلى اللاند قبل بزوغ الفجر، وقد انقطَعت الوصلات الكهربائيّة، ما عطّل أجهزة التدفئة. مثقَلًا بالنعاس وكَمَن يسير في حلمه، أمضيتُ خمس عشرة دقيقة شاقّة وأنا أحاول إصلاح العدّاد الكهربائي، قبل أن أتمكّن أخيرًا من إعادة التيّار.

لمّا دخلتُ المطبخ وجدتُ ملصقةً على الثلّاجة، كلمة لطيفة تركتها أمّي، وقد أعدّت لي طعام الفطور: خبزًا مقليًا بالحليب. من خلال النافذة، رأيتُ شعاع الشمس ينعكس على الثلج لآلئ برّاقة، فخيّل إليّ أنّني في إيزولا 2000، مركز التزلُّج في ميركانتور، حيث يملك فرنسيس شاليه يدعونا إليه كلّ شتاء تقريبًا.

امتدّت يدي تلقائيًا لتشغّل إذاعة «فرانس أنفو». صحيح أنّني تحوّلتُ سفّاحًا منذ البارحة، لكنّ الحياة تابعت دورتها: الرعب والفظائع في سارايِيفو، أطفال الصومال الذين يموتون جوعًا وحرمانًا، فضيحة الدم المُلوَّث، وتَصادُم بين فريقَي باريس سان جيرمان وأوليمبك مارسيليا تحوَّل مجزرة. أعددتُ قهوة سوداء ورحت أتناول بنهم الخبز المقلي بالحليب. نعم، كنتُ سفّاحًا إنّما سفّاح يتضوَّر جوعًا. بقيت نصف الساعة تحت سيل مياه الدشّ، حيث عدتُ فتقيّأتُ كلّ ما أكلتُه. من ثمّ فركتُ جسمي مطوّلًا بصابون مرسيليا كما فعلتُ أمس، لكنّني كنتُ أشعر بأنّ دماء ألكسيس كليمان علقت على شفتيّ، وفي ثنايا وجهي وبشرتي... إلى الأبد.

بعد وقت وجيز، تصاعد البخار الحارق إلى دماغي، فكاد يُغمى عليّ. كنتُ مضطربًا متململًا كما لم يسبق لي يومًا، متيّبس العنق، خائر القوى، ومعدتي تتأكّلها حموضة لاسعة. أمّا ذهني فكان غريقًا، عاجزًا عن التصدّي ومواجهة الوضع، تركتُ أفكاري تغيب عنّي وأنا مكتوف اليدين. لا، يجب أن أضع حدًّا لذلك كلّه. لن أستطيع الاستمرار بعد الآن كأنّ شيئًا لم يكُن. خرجتُ من الحمّام بقرار حازم: سوف أذهب إلى المخفر لأعترف بجريمتي. وما لبثتُ أن بدّلتُ رأيي: إن أقررتُ بأيّ شيء، فلن أفعل سوى استعجال سقوط ماكسيم وأسرته كاملة. أي، الأشخاص الذين ساعدوني وجازفوا بسلامتهم من

أجلي. أخيرًا، ولئلّا يستبدّ بي القلق والهلع، ارتديتُ ملابسي الرياضيّة وخرجتُ في جولة ركض.

مكتبة t.me/ktabrwaya

.2

درتُ ثلاث مرّات حول البحيرة بإيقاع جنوني تركني منهوكًا لاهثًا.

كان كلّ ما حولي مجمَّدًا، أبيض. خطف المنظر أنفاسي. فيما رحتُ أسابِق الريح، شعرتُ بأنّني امتزجتُ بالطبيعة، وكأنّ الثلج والهواء والأشجار تبتلعني شيئًا فشيئًا لأنغرس في عالمها البلّوري. كلّ ما أحاط بي في تلك اللحظة كان نورًا وعدمًا: كانت لقطة مُستقطعة مجمَّدة، أرضًا نقيّة عذراء، تكاد تكون خياليّة. صفحة بيضاء آمنتُ من جديد بأنّني سأخطّ عليها فصول حياتي المقبلة.

في طريق العودة، وبينما كانت أطرافي لا تزال متنمّلة، خدرة من كثرة الركض، انعطفتُ لأمرَّ أمام مبنى نيكولا-دو-ستايل. كان المقرّ المهجور أشبه بمركبة أشباح. قرعتُ وقرعتُ حتّى كَلَّ متني، لكن فاني وفينكا لم تكونا في غرفتيهما. وإن كان باب الحجرة الأولى موصدًا، فباب الثانية قد بقي مفتوحًا، كأنّ صاحبتها تنوي العودة بعد فترة قصيرة. دخلتُها. مكثت وقتًا في تلك الشرنقة الناعمة حيث تبقّى شيء من الدفء. كانت الحجرة تعبق بحضور فينكا، فَتَشي بجوّ حميم، جوّ مطبوع بالكآبة والحنين، كأنّه خارج عن الزمن. لم توضِّب فراشها وما زالت الشراشف تفوح بمزيج من عطر الكولونيا المنعش والعشب النضر.

كان عالمها يُختَصر بتلك الأمتار المربّعة الخمسة عشر: مُلصقات «هيروشيما حبيبتي» و«قطّة على سطح صفيح ساخن» معلّقة على الجدار بدبابيس ملوَّنة. صور ذاتيّة لبعض الكتّاب، بالأسود والأبيض – كوليت، فيرجينيا وولف، ريمبو، تينيسي ويليامز.

صفحة من مجلّة مرفقة بصورة مثيرة للعارضة لي ميلير بتوقيع مان راي. جملة مقتبسة لفرنسواز ساغان أعيد نسخها على بطاقة بريديّة تذكُر السرعة والبحر والسواد القاتم. وعلى الحافة الداخليّة للنافذة، زهرة يتيمة؛ سحلبيّة فاندا، إلى جانب نسخة طبق الأصل من تمثال لبرانكوزي: الآنسة بوغاني، كنت قد أهديتُها إيّاها لمناسبة عيد مولدها. وفوق طاولة مكتبها، بضعة أقراص مدمَّجة كُدِّست كيفما اتّفق: موسيقى كلاسيكيّة – ساتي، شوبان، شوبيرت – وأغنيات بوب قديمة. شهيرة – روكسي ميوزيك، كايت بوش، بروكول هاروم – إضافةً إلى تسجيلات أكثر سريّة كانت قد أسمعتني إيّاها، لكنّني وجدتُها مُبهَمة: بيار شايفر، بيار هنري، أوليفييه ميسيان...

على المنضدة الصغيرة المحاذية للسرير، وجدت كتابًا كنت قد لمحتُه البارحة: هو ديوان للشاعرة الروسيّة مارينا تسفيتاييفا. على الصفحة البيضاء الأولى، طالَعني إهداء مُزَخرَف، مخطوط بدقّة، دقّة ألكسيس كليمان، ليثقل كاهلي من جديد:

إلى فينكا،

كم أودّ أن أكون روحًا من دون جسد فلا أنفصل عنك أبدًا.

أن أحبّكِ يعني أن أحيا.

ألكسيس

انتظرتُ صديقتي بضع دقائق أخرى. راح القلق ينخر أمعائي نخرًا. لتخفيف وطأة الانتظار، شغّلتُ مُسجِّل اللايزر لأستمع إلى أحد الأقراص. «صباح الأحد»، الأغنية الأولى في ألبوم فيلفت أندر غراوند الأسطوري. مقطوعة تناسب الأجواء تمامًا: شفّافة، أثيريّة غامضة، سامّة. انتظرتُ وانتظرتُ أيضًا، إلى أن... فهمتُ أنّ فينكا لن تعود.

لن تعود أبدًا. كالمُدمِن الغارِق في أبخرة عقاقيره، مكثتُ شاردًا بعض الوقت في الغرفة، أستنشقُ، بل وأستجدي ذرّات قليلة من حضورها.

منذ ذلك الحين، وأنا أتساءل على مرّ الأعوام عن طبيعة السطوة التي كانت فينكا تمارسها عليّ، عن ذلك الدوار اللذيذ والأليم الذي كان يلمّ بي أثناء حضورها. فلا أنفكّ أعود إلى صورة المُدمِن: حتّى ونحن نمضي بعض الأوقات معًا، حتّى حين كانت فينكا لي أنا وحدي، قد بدأ إحساس النقص يُطالعني من بعيد. صحيح أنّنا حظينا بلحظاتنا السعيدة والساحرة: مقاطع متسلسلة شجيّة ومتناغمة تُحاكي كمال بعض أغاني البوب. بيد أنّ الطيش الجميل هذا ما كان ليدوم طويلًا. وفيما كنتُ أعيش نعمة اللحظة الحاضرة، كنتُ أدرك في الوقت عينه أنّها كفقاعة ماء. على وشك الانفجار والزوال.

وما انفكّت فينكا تُفلت منّي.

.3

عدتُ إلى البيت لئلّا أفوِّت مكالمة والدي والذي بسبب فارق التوقيت بين تاهيتي والعاصمة، عكف على الاتّصال كلّ يوم قبل الواحدة بعد الظهر. وبما أنّ الاتّصالات باهظة الثمن وريشار قليل الكلام، كان حوارنا وجيزًا في الأغلب، تشوبه البرودة، على صورة العلاقة القائمة بيننا.

ثمّ نجحتُ في تناول طبق الدجاج بالكاري الجاهز الذي تركته أمّي لي، من دون أن أتقيّأه. وأثناء فترة بعد الظهر، حاولتُ جاهدًا أن أطرد الأفكار السوداء التي راحت تُراود ذهني بلا هوادة، وأنا أنجز ما يُفترض إنجازه: مسائل الرياضيّات والفيزياء. أفلحتُ في حلّ مُعادلات حسابيّة تفاضليّة، بيد أنّني سرعان ما استسلمتُ، فما عدتُ أحاول التركيز. حتّى أنّني عانيتُ بداية نوبة هلع. اجتاحت دماغي

مشاهد دمويّة: جرائم قتل متنوِّعة. مع حلول المساء، كنت على شفا الانهيار والهلوسة، وإذا بأمّي تتّصل بي. كنتُ قد قرّرتُ الاعتراف لها بكلّ شيء، لكنّها لم تفسح لي المجال. وسرعان ما اقترحَت أن أوافيها إلى اللاند يوم غد. فبعد تفكير مليّ، قد قرّرَت الوالدة أنّ من غير المنطقي أن تتركني وحدي طوال أسبوعين، فذلك لن يرفع معنويّاتي، بل سيحبطها. «وهكذا في كنف أسرتك...»، خَتَمت متذرِّعةً، «تهون عليك المراجعة للامتحانات».

لئلّا أنهار بالكامل، قبلتُ اقتراحها. وبالتالي، ركبتُ القطار صباح الإثنين تحت ستار العتمة المُثلجة. رحلة أولى من أنتيب إلى مرسيليا، ومن ثمّ انتقلتُ إلى قطار «كوراي» المكتظّ، لأبلغ بوردو مع تأخير دام ساعتين. في هذه الأثناء، كان القطار قد انطلق واضطرّت شركة سكك الحديد الفرنسيّة إلى استئجار باصات لإيصال الركّاب إلى داكس. وطبعًا كان يومًا شاقًّا كالعادة انتهى بأن وصلتُ إلى غاسكوني بعد منتصف الليل.

كانت خالتي جيوفانا تقطن بيتًا ضيّقًا عتيقًا، عاليًا، في منطقة نائية من الريف؛ كان البناء غارقًا تحت عرائش اللبلاب، والماء يتسرَّب من شقوق سقفه البالي. ففي نهاية العام 1992، راح المطر ينهمر على اللاند من دون كَلَل، والليل يسدل ستاره الحالك منذ الخامسة بعد الظهر، فيما يتلكّأ النهار عن المضي قدمًا.

لا أحتفظ بذكريات دقيقة عن ذينك الأسبوعين، أسبوعين شاركتُ خلالهما خالتي وأمّي يوميّاتهما. كانت أجواء البيت غريبة، وقد راحت الأيّام تتوالى، بطيئة، باردة، حزينة. آنذاك خُيّل إليّ أنّ ثلاثتنا في طور النقاهة، نتماثل للشفاء بعد مرض عُضال. كانت أمّي وخالتي تسهران عليّ بقدر ما أسهر عليهما وأعتني بهما. أحيانًا، في فترات بعد الظهر الخاملة، كانت أمّي تُعدّ الفطائر المُحلّاة التي لا

نلبث أن نلتهمها، ونحن متقوقعون على الأرائك، قبالة التلفاز نشاهد حلقات قديمة من المسلسلين «كولومبو» أو «مع صداقتي» أو عرضًا مُعادًا في المرّة الألف من «اغتيال بابا نويل».

طوال فترة إقامتي هناك، لم أفتح دفتر الرياضيّات والفيزياء، بل وهروبًا من همومي وهواجسي، ومن حاضري، رحتُ أفعل ما عكفتُ عليه منذ البدء: رحت أقرأ الروايات. لا أذكر حقًّا ذينك الأسبوعين، لكنّني أذكر تمامًا الكتب كلّها التي قرأتُ. مع حلول نهاية العام 1992، كنتُ قد تألّمتُ لعذابات التوأم في الـ«الدفتر الكبير»، ذاك التوأم الذي حاول الاستمرار على الرغم من وحشيّة البشر في أرض نكبتها الحرب. فيما جبتُ أزقّة المحلّة الكريوليّة، في فور-دو-فرانس، على صفحات «تكساكو»، واجتزتُ غابات الأمازون برفقة «العجوز الذي كان يقرأ الروايات الغراميّة»[1]. عشتُ ربيع براغ بين فلول الدبّابات، أتأمّل تفاهة البشر والوجود مع «كائن لا تحتمل خفّته». صحيح أنّ الروايات لم تشفني لكنّها أراحتني قليلًا من ثقل ذاتي، من ثقل أن أكون أنا. لقد قدّمَت لي فسحة لأنفّس عن همومي. شكّلت الكتب سدًّا منيعًا في وجه طوفان الرعب والهلع الذي يهدّد بجرفي.

في تلك الفترة التي لم تشهد يومًا شروق الشمس، كنتُ أصحو كلّ صباح وأنا على يقين أنّني أعيش آخر أيّام حرّيتي. كلّما مرّت سيّارة على الطريق، ظننتُها سيّارة الشرطة، آتية للقبض عليّ. وفي المرّة اليتيمة التي قرع أحدهم بابنا، تسلّقتُ سطح البيت العالي، فقط تحسُّبًا، علّني أحظى بالوقت الكافي لأرمي بنفسي من أعلاه، في حال أتت الشرطة في إثري، لشدّة ما كنتُ أرفض الانتهاء خلف القضبان.

1 رواية بعنوان «Le vieux qui lisait des romans d'amour».

.4

بيد أنّ أحدًا لم يأت لإلقاء القبض عليّ، لا في اللاند ولا في كوت دازور.

ومع العودة إلى مقاعد الدراسة في شهر يناير، استعادت الحياة مجراها الطبيعي في سانت-إكزوبيري، نوعًا ما. وإذا كان اسم ألكسيس كليمان على كلّ لسان فليس للتحسُّر على وفاته، بل للسرد والتعليق على ما زعمته الشائعة: فينكا وأستاذها على علاقة غراميّة سرّيّة منذ زمن طويل وقد لاذا بالفرار معًا. شأن جميع القصص الفضائحيّة، كانت هذه على وجه التحديد قد ألهبت جماهير الدائرة التربويّة. فكلٌّ أسهب في تعليقه وفي دعاباته، وفي الإسرار بالسرّ. راح الضُراة يتلذّذون في تشويه السمعات. وانطلقت ألسنة الأفاعي تذمّ وتلسع وتتمرّغ سعيدة في جحر النميمة. حتّى أنّ هناك أساتذة، كان يعجبني زُقيّهم وترفّعهم في الماضي، انجرفوا أيضًا في تيّار القيل والقال. بنهم شديد، أخذوا يتنافسون فيغدقون كلمات المواساة المعسولة، كلمات كانت تصيبني بالغثيان ليس إلّا. بيد أنّ بعضهم عرف كيف يحافظ على رصانته. على سبيل المثل، جان-كريستوف غراف، أستاذ الفرنسيّة في صفّي، والآنسة دوفيل، أستاذة الأدب الإنكليزي في الصفوف التمهيديّة، القسم الأدبيّ. ما كنتُ أحضر صفوفها، لكنّني سمعتها في مكتب أمّي تقول بما معناه: «دعونا لا ننحدر إلى مُعاشرة الرداءة، فهي مرض شديد العدوى».

وجدتُ آنذاك القليل من المواساة في هذا الحُكم، وقد جعلتُه مرجعًا لي وقتًا طويلًا، وتحديدًا كلّما أردتُ أخذ قرارات معيّنة.

الواقع أنّ أوّل مَن قلق حقًّا بشأن اختفاء فينكا، كان جدّها والوصي عليها، آلاستير روكويل العجوز. فغالبًا ما وصفته فينكا لي كشيخ أسرة متسلِّط وقليل الكلام. كان الأنموذج الصارخ عن

الصناعي العصامي، الذي رأى في تغيُّب حفيدته عمليّة اختطاف محتملة، بالتالي جريمة اعتداء على أحد أفراد عشيرته. كما أنّ والدَي ألكسيس كليمان بدآ يتساءلان، أيضًا. فابنهما كان ينوي تمضية أسبوع في مركز تزلُّج برشتيسغادن مع أصحابه، وفي نهاية المطاف لم ينضمّ إليهم قطّ، كما ولم يزر والدَيه للاحتفاء بحلول السنة الجديدة كما جرت العادة.

وبما أن حادثتي الاختفاء أثارتا قلق العائلتين وتوجُّسهما، فقد استغرقت القوى الأمنيّة وقتًا طويلًا جدًّا قبل أن توفد عددًا كافيًا من رجالها لتولّي التحقيق. أوّلًا، لأنّ فينكا كانت راشدة، وثانيًا لأنّ العدالة قد تريّثت مطوّلًا قبل أن تأخذ مجراها. كانت القضيّة معقَّدة للغاية في ما يتعلّق بالقضاء المُختصّ. ففينكا فرنسيّة-أميركيّة وألكسيس كليمان ألماني الجنسيّة. أضِف إلى ذلك، أنّ مكان الاختفاء لم يُحدَّد بوضوح. فهل أحدهما هو المعتدي؟ أم إنّ كليهما ضحيّة؟

إذًا، بعد العودة من عطلة العيد، مرّ أسبوع كامل قبل أن توفد الشرطة رجالها إلى سانت-إكزوبيري. وقد اقتصرت تحقيقاتهم على استجواب المقرَّبين من فينكا وأستاذ الفلسفة أو جيرانهما. فتّشوا غرفتَيهما في شكل سريع وسطحي، وأقفلوهما بالأختام، من دون استدعاء خبراء الطبّ الشرعي أو فريق الأدلّة الجنائيّة.

والواقع أنّ الأمور لم تتسارع إلّا بعد وقت طويل، وتحديدًا في أواخر شهر فبراير، بعد أن تكبّد آلاستير روكويل عناء المجيء إلى فرنسا. استغلّ رجل الأعمال علاقاته الكثيرة ليعلن عبر وسائل الإعلام أنّه قد لجأ إلى استخدام تحرٍّ خاصّ للعثور على حفيدته. وعندذاك، شهدنا دفقًا جديدًا من الشرطيين – هذه المرّة من الجهاز الإقليمي للشرطة القضائيّة في نيس. وقد استجوبوا المزيد من الأشخاص

– بمَن فيهم أنا وماكسيم وفاني – وأخذوا عيّنات عدّة من الحمض النووي من غرفة فينكا.

وشيئًا فشيئًا، سمحت الشهادات إلى جانب الوثائق المجموعة برسم صورة أوضح عن مجريات الأحد 20 ديسمبر والإثنين 21 ديسمبر، أي يومَي اختفاء فينكا وألكسيس.

فقد أكّد بافيل فابيانسكي، حارس الليسّيه آنذاك، أنّه رفع حاجز مدخل الحرم، قرابة الثامنة من صباح ذلك الأحد الشهير، ليسمح بخروج الألبين أ 310 يقودها كليمان. وكان فابيانسكي أكثر من واثق: ففينكا روكويل الجالسة على المقعد المحاذي مقعد السائق، قد فتحت النافذة لتلوِّح له شاكرةً. ومن ثمّ، تكرّر المشهد عينه، بعد دقائق قليلة، عند تقاطُع هو-سارتو، حيث كان عاملان من البلديّة يجرفان الثلج، وقد شاهدا سيّارة كليمان تنزلق بعض الشيء عند التقاطع قبل أن تنعطف في اتّجاه أنتيب. في أيّ حال، عُثِر على سيّارة المُدرِّس، في جادّة لا ليبيراسيون، ناحية محطّة قطارات أنتيب، مركونة أمام مغسل أوتوماتيكي. وفي القطار المتّجه إلى باريس، قد تذكّر كثر من الركّاب تلك الشابّة الصهباء يرافقها رجل يعتمر كَسكيت مدموغة بشعار مونشينغلادباخ-نادي كرة القدم الألماني المفضَّل لدى كليمان. وفي سياق متّصل، كان الحارس الليلي في فندق سانت-كلوتيلد – في شارع سان-سيمون في الدائرة السابعة من باريس – قد أكّد هو الآخر أنّ الآنسة فينكا روكويل والسيّد ألكسيس كليمان نزلا فعلًا في الفندق ليلة واحدة، مساء ذلك الأحد. وقد صوَّر نسخًا عن جوازي سفرهما. أمّا حجز الغرفة، فقد كان عشيّة اليوم المذكور عبر الهاتف، فيما سويّت المعاملات المطلوبة عند وصولهما. كانت فاتورة المينيبار تتضمّن زجاجة جعة، وكيسين من رقائق برينغلز، وعبوّة من عصير الأناناس. حتّى أنّ الحارس الليلي ما زال يذكر أنّ

الآنسة اتّصلت بمكتب الاستقبال لتسأل عمّا إذا كان لديهم كوكا بالكرز، لكنّ الجواب أتى سلبيًّا.

حتّى الآن، كان سيناريو فرار طائرَي الحُبّ لا يزال الأقرب إلى المنطق. وبعد ذلك، فقد المحقّقون أثر العاشقَين. ففينكا وألكسيس لم يتناولا الفطور في غرفتهما ولا في الصالة المشتركة. صحيح أنّ خادمة الغرف رأتهما يخرجان إلى الرواق في الصباح الباكر، لكنّ أحدًا ما كان ليذكر تمامًا أنّه رآهما يغادران. عُثِر على جعبة تحتوي بعض المستلزمات في الحمّام: أدوات تجميل وفرشاة مايسون بيرسون وقارورة عطر، أُودعت جميعها حجرة الصيانة، حيث يحتفظ الفندق بأغراض النزلاء الضائعة.

وقد توقَّف التحقيق عند هذا الحدّ. ومنذ ذلك الحين، لم تأت أيّ شهادة معقولة لتؤكّد تواجد فينكا وكليمان في مكان آخر. آنذاك، توقّع الناس أن يعاود الثنائي الظهور، متى انطفأت شعلة الحبّ. ومع ذلك، استمرّ محامو آلاستير روكويل في عنادهم. وقد نجحوا أخيرًا العام 1994 في الاستحصال على أمر قضائي بإجراء تحليل جيني لفرشاة الأسنان وفرشاة الشعر اللتين عثر عليهما في غرفة الفندق. أمّا النتائج فقد أكّدت أنّ آثار الحمض النووي عائدة فعلًا إلى فينكا، ما لم يجعل سير التحقيق يتقدّم قيد أنملة. ربّما ظهر منذ ذلك الحين، شرطي أو آخر، شرطي عنيد أو مهووس، ليأخذ على عاتقه متابعة التحقيق ولو رمزيًّا، وذلك تفاديًا لإبرام حقّ اكتساب مع مرور الزمن، لكن وبحسب علمي، قد شكَّل ذلك الفصل الأخير من التحقيق.

مُني آلاستير روكويل بمرض عضال قضى على أثره العام 2002. ما زلت أذكر أنّني صادفته في الطابق 49 من مركز التجارة العالمي، حيث فروع مؤسّسته النيويوركيّة، وذلك قبل أسابيع قليلة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001. يومذاك، أسرّ لي بأنّ فينكا

حدّثته عنّي مرارًا وقد وصفتني بالشابّ الحسّاس، واللطيف، والأنيق: صفات ثلاث لم تبدُ إطراءً وهي تخرج من فم ذلك العجوز. كم أردتُ أن أجيبه في تلك اللحظة بأنّني حسّاس، أجل، إلى درجة أنّني هشّمتُ بقضيب حديد رجلًا يفوقني طولًا بما لا يقلّ عن ذراع، بيد أنّني لم أنبس ببنت شفة بالطبع. فالمقابلة التي طلبتُها منه كان لها هدفها الواضح: أن أعرف ما إذا زوّده ذاك التحرّي الخاصّ بأدلّة جديدة حول اختفاء حفيدته. وقد أجابني بالنفي من دون أن أعرف ما إذا كان يقول الحقيقة.

ومن ثمّ، مرّ الزمن. وعلى مرّ الأعوام، ما عاد أحد يأبه لمصير فينكا روكويل. كنتُ الوحيد بين القلائل، الذي لم يطو الصفحة، لأنّني كنتُ أدرك تمامًا أنّ الرواية الرسميّة خاطئة كليًّا. ولأنّ تساؤلًا سكنني كالهاجس منذ ذلك اليوم: هل هروب فينكا مرتبط بمقتل ألكسيس كليمان؟ هل أنا المسؤول عن اختفاء الصبيّة التي لطالما أحببتها؟ مضى أكثر من عشرين سنة وأنا أبحث عمّا يوضِح هذا اللغز. وحتّى الآن لا أملك أدنى إجابة.

فتى غير الفتيان كلّهم

7

في شوارع أنتيب

لعلّ هـذا الكتاب هو روايـة بوليسيّة، بيد أنّني لستُ شرطيًا.

جيسي كيليرمان

.1

فور وصولي إلى أنتيب، توقّفتُ حيث اعتدتُ ركن سيّارتي في الأيّام الخوالي: موقف مرفإ فوبان، حيث تصطفّ مجموعة من أجمل يخوت العالم. ففي هـذا المكان، خلال شهر يوليو العام 1990 على وجه التحديد – كنتُ على مشارف السادسة عشرة – قمتُ بوظيفتي الصيفيّة الأولى. كان عملًا تافهًا يقضي برفع حاجز الموقف بعد تقاضي ثلاثين فرنكًا من السيّاح للسماح لهم بركن سيّاراتهم تحت أشعّة الشمس الحادّة. كان الصيف الذي قرأت فيه «جانب منازل سوان» – بطبعة فوليو الكلاسيكيّة، وقد رُسمت على الغلاف كاتدرائيّة روان بريشة كلود مونيه – ووقعتُ لا أدري كيف في غرام صبيّة باريسيّة شعرها أشقر متموِّج، مقصوص بشكل مربَّع، تحمل اسمًا جميلًا شاعريًّا: بيرينيس. في طريقها إلى الشاطئ، كانت تتوقّف أمام محرَس الموقف

لتبادلني شيئًا من الحوار، مع أنّني سرعان ما أدركتُ أنّها تهتمّ أكثر بأمر غلين ميديريوس وفريق «نيو كيدز أون ذا بلوك» منها لهواجس شارل سوان وأوديت دو كريسي.

أمّا اليوم، فقد حلّ حاجز أوتوماتيكي محلّ وظائف الصيف التافهة. استلمتُ تذكرتي، ووجدتُ مكانًا مناسبًا قرب مكتب قبطان المرفإ، ثمّ تمشّيتُ في محاذاة الرصيف. لقد تبدّلت أمور كثيرة في غضون عشرين سنة: أُعِيد تصميم مدخل المرفإ بالكامل، ووُسّعَ الطريق المُعبَّد، وكُرّس حيّز كبير من الموقع للمشاة. بيد أنّ المنظر بقي هو عينه. وفي نظري، الأكثر روعةً في كوت دازور: البحر في مقدِّم المشهد، ثمّ طيف حصن «كاريه» يُطلّ ضخمًا مُطَمئنًا خلف غابة صواري السفن، والسماء تبتلع بزرقتها الحادّة معالِم الصورة برمّتها، وأخيرًا تضاريس الجبال تلوح خجولةً في البعيد.

كان نهارًا موقَّعًا بأنفاس ريح الشمال الباردة التي كنتُ أعشقها. فكلّ شيء تضافر ليعيدني إلى ماضيّ، يدعوني إلى التجذُّر من جديد في هذا المكان الذي لطالما أحببته ولكنّني هجرته لأسباب خاطئة. مع ذلك، لم أقع فريسة الأوهام: لم تعد المدينة مدينة مراهقتي، ولكن شأنها شأن نيويورك، استمررتُ في حبّ الفكرة التي كوّنتُها في الماضي عن أنتيب. مدينة مختلفة، تعيش على هامش البهرجة الطاغية على النواحي الأخرى من كوت دازور. مدينة الجاز، مدينة الـ«الجيل الضائع»، تلك التي جعلتُ فينكا تكتشفها من خلال عينيّ، تلك التي استضافت معظم الفنّانين الذين أُعجبت بهم في حياتي. فموباسان قد حطّ رحاله فيها من خلال كتابه «بال آمي»، فيما نزل سكوت فيتزجيرالد وزيلدا في فندق «بيل ريف» بعد الحرب، كما أقام بيكاسو محترفه الخاصّ في قصر غريمالدي، على مرمى حجر من الشقّة التي رسم فيها نيكولا دو-ستايل أجمل لوحاته. أخيرًا وليس

آخرًا، ما زال كيث جاريت – مصمِّم العرض الترويجي لكتبي كلّها – ينزل في شكل دوري في كوت دازور.

مررتُ تحت البوّابة البحريّة، التي تشكل الخطّ الفاصل بين المرفإ والمدينة القديمة المُحصَّنة. كنّا في فصل الربيع، وكانت عطلة نهاية الأسبوع نابضة بالحياة، مع أنّ مدّ السيّاح الذي عادةً ما كان يشوّه طابع المدينة، لم يكن قد تدفّق بعد. ففي شارع أوبيرنون، لا يزال في وسعنا أن نخطو بضع خطوات مستقيمة، من دون أن يدفعنا أحد. في ساحة ماسينا، بدأ باعة الخضار والأزهار والأجبان والحرفيّون المحلّيون يوضِّبون بضاعتهم، لكنّ السوق المسقوفة الكبيرة كانت لا تزال تنبض بألف لون ولون: هذا يرطن بالعاميّة، وذاك يُحاضِر في أمور الحياة ودورة الكرة الأرضيّة وسط سمفونيّة من العطور: زيتون أسود، وحمضيّات مكبوسة بالسكّر، ونعناع، وطماطم مجفّفة. وفي ساحة دار البلديّة، كان يحتفل بالزفاف الأخير لهذا النهار: زوجان يشعّان حبًّا وسعادة، ينزلان الدرج وسط وابل من التهاني وبتلات الورد. كنتُ على بُعد سنوات ضوئيّة من هذا المهرجان كلّه – فالزواج لا يعنيني أبدًا اليوم – لكنّني سمحت لنفسي بأن تنتقل إليّ عدوى الضحكات الفرحة والابتسامات المشرقة.

سلكتُ شارع ساد الضيّق نزولًا – حيث أمضى والدي أيّام شبابه – نحو ساحة ناسيونال ومشيتُ الهوينا وصولًا إلى مايكل أنجلو، أحد المطاعم الأكثر رمزيّة في المدينة، والذي يسمّيه الجميع هنا «مامو»، تيّمنًا باسم صاحبه. لمحتُ أماكن شاغرة على الترّاس. جلستُ إلى طاولة وطلبتُ الشراب الذي تشتهر به المحلّة: ليموناضة بالباستيس والريحان.

.2

لم يكن لي يومًا مكتب. فلطالما أحببتُ العمل في أماكن مفتوحة، وذلك منذ فروض الصفّ التمهيديّ: مطبخ أهلي، أو قاعات الدرس في المكتبات، أو مقاهي الحيّ اللاتيني. وفي نيويورك، اعتدتُ الكتابة في مقاهي ستارباكس، أو في بارات الفنادق، أو في الحدائق العامّة والمتنزَّهات والمطاعم. فلطالما بدا لي أنّني أتقن التفكير والتحليل أكثر في محيط يعجّ بالحركة والنشاط، بدفع من سيل الأحاديث الجارية وضجيج الحياة الروتينيّة. وضعتُ كتاب ستيفان بيانيلي على الطاولة، وفي انتظار شرابي، رحتُ أطّلع على بريدي في هاتفي. كانت إحدى الرسائل شديدة اللهجة، ومِن أمّي تحديدًا، التي ما كانت لتتكبّد عناء صوغ عبارات لائقة: «أخبرتني زيلي بأنّك أتيت تحضر فعاليّات الاحتفال بالذكرى الخمسين لليسّيه. ولكن، ماذا دهاك يا توماس؟ حتّى أنّك لم تُعلمني أنّك في فرنسا. تعال إلى المنزل لتناول العشاء هذا المساء. لقد دعَونا آل بيليغرينو. سوف يسرّون برؤيتك». «أتّصل بكِ لاحقًا يا أمّي»، أجبتُها في رسالة مقتضبة. فقد استغللتُ وجود الآي-فون في حوزتي لأحمِّل تطبيق نيس-ماتان، ومن ثمّ ابتعتُ عبر الإنترنت أعداد الجريدة الصادرة في تواريخ 12، و13، و14 أبريل.

سرعان ما وجدتُ المقالة التي كنتُ أبحث عنها – المقالة الموقَّعة من ستيفان بيانيلي، والتي تصف بالتفاصيل المملّة كيف اكتشف تلامذة الليسّيه حقيبة مليئة بالأوراق النقديّة، في خزانة مهمَلة. الواقع أنّ المقالة المذكورة لم تمدّني بأيّ جديد. لا بل خيّبت ظنّي، إذ لم أجد صورًا عن تلك الحقيبة الرياضيّة. كانت المقالة مرفقة بصورة لحرم الليسّيه مأخوذة مِن الجوّ، وبأخرى حيث تظهر الخزانة الصدئة، بيد أنّ الذي حرّرها أضاف، موضحًا أنّ «هناك تلاميذ تناقلوا عبر وسائل التواصل الاجتماعي مجموعة من اللقطات، حيث يظهر

الكنز المُكتَشف حديثًا، وذلك قبل أن تطلب الشرطة محوها حفاظًا على سريّة التحقيق وسلامة مجرياته».

رحتُ أفكِّر. لا بدّ من وجود آثار في مكان ما، لكنّني لم أكن الشخص المناسب للعثور عليها، من دون هدر الوقت. كانت وكالة نيس-ماتان الأنتيبيّة على مقربة، في ساحة ناسيونال، في محاذاة محطّة الباصات. بعد تريّث، قرّرتُ الاتّصال بالصحافي مباشرةً.

– مرحبًا ستيفان، أنا توماس.

– ألم يعد في وسعك تمضية لحظة واحدة من دوني، حضرة الفنّان؟

– أنا في مطعم مامو. إن كنتَ في الجوار، أدعوك إلى مشاركتي طبق كتف الغنم المشوي.

– اطلب لي واحدًا! أُنهي مقالتي وأوافيك.

– وما موضوع مقالتك؟

– صالون «التقاعد وأوقات الفراغ» الذي اختُتم للتوّ في قصر المؤتمرات. بالطبع، لن يمكّنني من الفوز بجائزة ألبير-لندن، عليّ الاعتراف.

في انتظار وصول بيانيلي، أمسكتُ كتابه، وبقيتُ مدهوشًا أمام صورة الغلاف، مأخوذًا بها، تمامًا كما يحدث كلّما وقع نظري عليها. تلك الصورة التي يظهر كليمان وفينكا فيها على حلبة رقص. فقد التُقِطت أثناء حفلة نهاية الفصل الدراسي، في منتصف ديسمبر، قبل أسبوع من مقتل الأستاذ واختفاء فينكا. لطالما آلمتني تلك الصورة. كانت فينكا في ذروة نضارتها وجمالها، تُتحِف مُراقصها بنظرات متيَّمة. كانت عيناها تفيضان حبًّا ورغبة في نيل الإعجاب. أمّا رقصتهما فعبارة عن خطوة تويست خلّدها المصوِّر إلى الأبد، رشيقة، أنيقة ومُثيرة، كأنّها صورة على طريقة المصوّر روبير دوانو.

مَن التقط هذه الصورة في الأساس؟ لم أطرح يومًا هذا السؤال. تلميذ؟ أستاذ؟ أخذتُ أبحث عن اسم مصمِّم الغلاف، على ظهر الكتاب. ومع ذلك، لم أجد سوى «جميع الحقوق محفوظة لجريدة نيس-ماتان». أنا أيضًا، التقطتُ صورة لغلاف الكتاب بهاتفي، ثمّ أرسلتها في رسالة نصيّة إلى رافاييل بارتوليتي. الواقع أنّ رافاييل كان من نخبة مصوِّري الموضة والأزياء، ويقيم في تريبيكا، في الشارع عينه الذي أسكن فيه. لكنّه وفوق كلّ شيء كان فنّانًا حقيقيًّا: صاحب ثقافة واسعة في مجال الصور والرسوم، وعينًا ثاقبة تُلمّ بالتفاصيل كلّها، كان يجيد تحليل الأمور في شكل استثنائي وصائب في الأغلب. منذ سنوات، وهو يتولّى تصميم صور حملاتي الترويجيّة إضافة إلى تلك التي تظهر على الغلاف الخارجي الثاني. كنتُ معجبًا بأعماله، ففي كلّ مرّة ينجح باستخراج شعاع نور من عمق أعماقي، شعاع لا ريب في أنّني كنتُ أحمله منذ زمن طويل بيد أنّه هجرني الآن. لذا، كانت الصور الذاتيّة التي يلتقطها لي تجسّدني بشكل أفضل، أكثر إشراقًا وفرحًا وأقلّ عذابًا. أي كما الرجل الذي ربّما كنت سأكونه لو أنصفتني الحياة.

في غضون ذلك، عاود رافاييل الاتّصال بي. كان يتحدّث بفرنسيّة تشوبها لكنة إيطاليّة خفيفة، يعجز كثر عن مقاومة سحرها.

– مرحبًا توماس! قال لي بالإيطاليّة. أنا في ميلانو من أجل تصوير حملة فيندي. مَن تكون تلك الحسناء التي أرسلتَها إليّ؟

– فتاة أحببتُها منذ زمن بعيد. فينكا روكويل.

– أذكرها، سبق أن حدَّثتَني عنها.

– وما رأيكَ بالصورة؟

– أنتَ من التقطها؟

– لا.

– غير واضحة بعض الشيء، هذا من الناحية التقنيّة، لكنّ المصوِّر أجاد تخليد اللحظة. وهذا ما يهمّ ليس إلّا. اللحظة الحاسمة. أتعرف ما كان كارتييه بريسون يقول: «على الصورة أن تلتقط التوازن التعبيري وهو في أوّج حركته». حسنًا، وهذا تمامًا ما فعله صاحبنا. التقط لحظة خاطفة وجعلها أزليّة.

– لطالما قلتَ أنّ لا شيء زائف وخادع بقدر صورة.

– وهذا صحيح أيضًا! صاح متعجِّبًا. لكنّه لا يناقض ما قلتُه سابقًا.

سمعتُ أصداء موسيقى. ثمّ صوت امرأة تستعجل المصوِّر ليقفل الخطّ.

– معذرة، عليّ الذهاب، قال لي. سأعاود الاتّصال بك.

فتحتُ الكتاب وشرعت أقلّب صفحاته. كان ثروة من المعلومات. كان بيانيلي قد استحصل على تقارير الشرطة في شكل أو في آخر. وعمد شخصيًا إلى اقتطاع غالبيّة الشهادات التي جمعها المحقّقون. كنتُ قد قرأتُ كتابه هذا عند صدوره وباشرتُ التحقيق بنفسي، خلال سنوات إقامتي في باريس، مستجوبًا الشهود العيان المُحتَمَلين كافّة، والذين يمكن تصوُّرهم. تصفَّحتُ الكتاب خلال عشرين دقيقة، وألقيت نظرة سريعة على محتواه. إن جمعنا ما يتذكّره مختلف الشهود، استنتجنا أنّ جميعهم يروون القصّة عينها، تلك التي باتت الرواية الرسميّة المعتمدة مع مرور الزمن: الحبيبان يغادران حرم الليسّيه في سيّارة الألبين، «الشابّة الصهباء ذات خصل الشعر الناريّة» في القطار المتوجِّه نحو باريس، الأستاذ الذي كان يرافقها، «معتمرًا كَسكيت مدموغة بشعار نادي ألماني لكرة القدم يستحيل لفظ اسمه»، ثمّ وصول الاثنين إلى ذاك الفندق في شارع سان-سيمون، «الآنسة المنمنمة التي طلبت كوكا بالكرز»، مرورهما

الخاطف في الرواق، فاختفاؤهما صباح اليوم التالي: «حين جاء موظَّف الاستقبال ليحلّ محلّ الحارس الليلي، وجد مفاتيح الغرفة على منضدة الاستقبال». وكان الكتاب يطرح أسئلة عدّة، مسلّطًا الضوء على بعض النقاط الغامضة، لكن من دون أن يأتي بأدلّة دامغة كفيلة باتّباع خيوط منطقيّة. كنتُ أتفوّق على الصحافي بمعلومة واحدة، ليس إلّا: كان لبيانيلي انطباع بأنّ القصّة ملفّقة فيما كنتُ أنا على يقين من ذلك. فكليمان قد مات، بالتالي، لم يكن هو مَن رافق فينكا خلال اليومين المذكورين. هربت صديقتي مع رجل آخر. مع طيف أطارده بلا جدوى، منذ خمس وعشرين سنة.

.3

– ها أنت مُستغرق في قراءات مجدية وفق ما أرى! بادرني بيانيلي وهو يجلس قبالتي.

رفعتُ نظري عن الكتاب، وأنا لا أزال شاردًا بعدما أغرقني الماضي في دهاليزه.

– هل كنت تعرف أنّ كتابك هذا مدرج في اللائحة السوداء في مكتبة سانت-إكز؟

شكّ الصحافي حبّة زيتون من كوب صغير.

– نعم، بفضل تلك البومة العجوز زيلي! لكنّ هذا لن يمنع مَن يودّ الاطّلاع عليه من إيجاد نسخة الـPDF وتناقلها بكلّ حريّة عبر الإنترنت!

– وكيف تفسِّر الإعجاب المطلق الذي تكنّه التلميذات الحاليّات لفينكا؟

– انظُر إليها، قال لي وهو يفتح عشوائيًا ملحق الصور في كتابه.

لم أخفض نظري حتّى. فأنا ما كنت في حاجة على الإطلاق إلى تأمّل تلك اللقطات لأذكر فينكا بتفاصيلها كلّها: عينيها اللوزيّتين، نظرتها المُسكرة، شعرها الكستنائي وتموّجاته الصهباء، مُسرَّحًا مُصفَّفًا-منفوشًا مشعَّثًا، فمها الحَرِد، حركاتها المشاغبة، تارةً رصينة مُطيعة وطورًا مثيرة لاهبة.

– صَنَعت فينكا صورة مميّزة جدًّا عن نفسها، قال بيانيلي موجِزًا.

كانت تُجسِّد الرُقي الفرنسي. مثال الأنوثة، امرأة بين بريجيت باردو وليتيسيا كاستا. لكنّها وفوق كلّ شيء، قد جسَّدت شكلًا من أشكال الحريّة.

صبَّ الصحافي كوبًا من الماء قبل أن يستطرد:

– لو كانت فينكا في العشرين من العمر اليوم، لشكّلت لا محالة أنموذج الصبيّة التي يتحدّث عنها الجميع، معبودة الجماهير، يتابعها ستّة ملايين من المعجَبين على إنستاغرام.

أتانا صاحب المطعم شخصيًّا بطبق اللحم، وشرع يقطّعه بأناقة أمامنا. بعد أن ابتلع بضع لقمات، واصل بيانيلي عرضه.

– وكلّ ذلك، كان يتجاوز إدراكها في طبيعة الحال. لا أزعم أنّني أعرفها أكثر منك، لكن صدقًا، خلف تلك الصورة، تختبئ فتاة عاديّة، لا؟

وبما أنّه لم يحصل على جواب، راح يستفزّني:

– أنت تبجّلها فحسب لأنّها تبخَّرت وهي في التاسعة عشرة. لكن، تخيّل لحظة لو أنّكما تزوّجتما آنذاك. هل تتبيّن المشهد اليومَ؟ لكان لديكما الآن ثلاثة أولاد، ولاكتسبت هي عشرين كيلوغرامًا، وهبط صدرها وترهَّل و...

– اخرس يا ستيفان!

عَلَت نبرتي فجأةً. فتراجع هو على الفور واعتذر إليّ، وطوال الدقائق الخمس التي تَلَت، انهمك كلانا في نهش كتف الغنم المشوي والسلطة التي ترافقه. إلى أن قرّرتُ أنا مواصلة الحديث.

– هل تعرف مَن التقط الصورة؟ سألتُه مشيرًا إلى الغلاف.

قطّب بيانيلي حاجبيه، ثمّ تصلّبت ملامحه كأنّني قبضت عليه بالجرم المشهود.

– أوه... حسنًا، أقرّ وهو يتحقّق في صفحة حقوق النشر. أتصوَّر أنّها موجودة في أرشيف الجريدة منذ البداية.

– هل في وسعك التأكّد؟

أخرج هاتفه من جيب صدريّته، ونقر عليه رسالة نصيّة سريعة.

– سأتّصل بكلود أنجوفان، الصحافي الذي تابع القضيّة العام 1992.

– أما زال يعمل في الجريدة؟

– أنت تمزح، لقد بلغ السبعين! هو يتلذّذ بحياة الكسل والخمول في البرتغال. للمناسبة، لماذا تريد أن تعرف مَن التقط الصورة؟

انقَطَع حبل أفكاري، فحاولتُ تغيير السياق:

– بما أنّنا نتحدّث عن الصور، قرأتُ في مقالتك أنّ التلاميذ الذين عثروا على الحقيبة التي تحتوي مئة ألف فرنك في الخزانة الصدئة، نشروا صورها عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

– بلى، لكنّ الشرطة مسحت كلّ شيء.

– لكنّك عدتَ فاستحصلت عليها...

– تعرفني جيّدًا.

– هلّا أرسلتها إليّ؟

بحثَ عن الصور في هاتفه.

– ظننتُ أنّ القصّة لا تثير اهتمامك، علّق مستمتعًا باستفزازي.

– بلى بالتأكيد يا ستيفان.

– ما عنوان بريدك الإلكتروني؟

فيما أخذت أهجّئ له عنواني، خطر في بالي أمر بدهي. لم تعُد لديّ شبكة معارف أو اتّصالات في المنطقة، بينما بيانيلي يعيش هنا، منذ البداية. إذًا، إن شئتُ الحصول على فرصة لاكتشاف ما حلّ بفينكا، بالتالي أكشف هويّة الشخص الذي يرسل إلينا التهديدات، فلا حلّ أمامي سوى التعاون مع الصحافي.

– ما رأيك أن نتعاون، يا ستيفان؟

– ماذا يجول في ذهنك حضرة الفنّان؟

– فلنحقّق أنا وأنت، كلًّا على حدة، في مسألة اختفاء فينكا وبعد ذلك نتشارك المعلومات.

هزّ رأسه:

– لن تَصدُق معي في هذا.

كنت قد تكهّنتُ بجوابه هذا مسبقًا. فقرّرت المُجازفة بغية إقناعه:

– لأثبت لك صدق نواياي، سوف أكشف لك أمرًا يجهله الجميع.

شعرتُ بأوصاله تشتدّ كالوتر ترقّبًا وحماسة. كنت أدرك تمامًا أنّني أسير في حقل ألغام، ومع ذلك، ألم أعش حياتي كلّها كبهلوان في الهواء، معلّقًا بين الأرض والسماء؟

– كانت فينكا حاملًا من ألكسيس حين اختفت.

رمقني بيانيلي بمزيج من القلق والذهول:

– اللعنة عليك، وكيف علمت بالأمر؟

– فينكا أخبرتني بنفسها. وأرتني اختبار الحمل.

– ولماذا لم تكشِف الأمر آنذاك؟

– لأنّها حياتها الخاصّة. ولأنّ الأمر ما كان ليبدّل شيئًا في التحقيق.

– بلى، بالطبع، تبًّا! قال غاضبًا. كانت مجريات التحقيق كاملة تغيّرت، وكنت أُنقذَت حياة ثلاثة أشخاص بدلًا من اثنين. وكانت القضيّة لقيت رواجًا إعلاميًّا أكثر بوجود طفل.

لم يكن مخطئًا على الأرجح. والحقّ يقال، لم أعتبر يومًا ذلك الخطّ العمودي الذي شاهدتُه على قطعة البلاستيك، مشروع «طفل». كنتُ فقط في التاسعة عشرة...

رأيتُه يتململ في كرسيّه وهو يفكّر مليًّا، ثمّ يفتح دفتر ملاحظاته ليخربش فرضيّاته فيه. استغرق وقتًا قبل أن يعود إلى أرض الواقع.

– لماذا تهتمّ بأمر فينكا إلى هذا الحدّ ما دمتَ تعتبرها عاديّة؟

كان بيانيلي يتمتّع بحسّ المثابرة فتابع على النحو ذاته:

– ليست فينكا من يهمّني، بل الذي أو الذين قتلوها.

– أواثق في أنّها ميتة؟

– ليس من الممكن أن يختفي المرء هكذا بكلّ بساطة. في التاسعة عشرة، وحيدة أو شبه وحيدة وبلا مورد رزق.

– وما هي فرضيّتك بالضبط؟

– أنا مقتنع وذلك مذ عثروا على المال، بأنّ فينكا كانت تبتزّ أحدهم. شخصًا رفض أن يكون محطّ تهديد فأصبح هو المُهدِّد على الأرجح. ربّما والد طفلها؛ كليمان من دون شكّ أو شخص آخر...

فيما كان يُغلق دفتره، أفلتت بطاقات عدّة من إحدى الطيّات. فارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه:

– لديّ تذاكر لحفلة ديبيش مود الموسيقيّة هذا المساء!

– أين يقيمونها؟

– في نيس، في مجمَّع شارل-إيرمان الرياضي. هل ترافقني؟
– لا أظنّ، لا أحبّ الموسيقى المُركّبة.
– المُركَّبة؟ من الواضح أنّك لم تستمع إلى ألبوماتهم الأخيرة.
– لم أعجَب بموسيقاهم يومًا.

ضاقت عيناه وهو يستعيد الذكريات.

– في أواخر الثمانينيّات، خلال الجولة 101، كان ديبيش مود يُعَدّ من أكبر فرق الروك وأهمّها في العالم. وفي العام 1988، ذهبتُ إلى مدرّج زينيت في مونبيلييه لأحضر حفلتهم. موسيقاهم؟! صاعقة بحدّ ذاتها!

لمعت حدقتاه حماسة وشقاوة. فرحتُ أمازحه:

– في أواخر الثمانينيّات، كانت فرقة كوين الأكبر والأعظم في العالم.

– يا لكَ من... وتقولها بكلّ جديّة، وهذا الأسوأ! لو قلتَ الفرقة U2 مثلًا، لكن كوين...

سقطت الحواجز بيننا بضع دقائق. دقائق عُدنا خلالها مراهقَين في السابعة عشرة. حاول ستيفان إقناعي بأنّ دايف غاهان كان أعظم مغنّي جيله فيما دافعتُ عن فرضيّتي القائلة أنّ لا أحد قد يتفوّق على بوهيميان رابسودي.

ثمّ انقطع السحر. تلاشى فجأةً بالسرعة التي ظهر فيها.

نظر بيانيلي إلى ساعته، وقام على عجل.

– تبًّا، لقد تأخّرتُ كثيرًا! عليّ الذهاب إلى موناكو على الفور.
– لتحرير مقالة؟
– نعم، عن التجارب التمهيديّة لسباق الفورمولا E. البطولة العالميّة للسيّارات الكهربائيّة.

أخذ جعبته وعلّقها في كتفه ثمّ لوَّح لي بيده.

– نبقى على اتّصال.

بقيتُ وحدي، فطلبتُ قهوة. كان ذهني مرتبكًا مشوَّشًا وقد شعرتُ بأنّني فشلتُ في خوض هذه الجولة. في النهاية، زوّدتُ الصحافي بالعتاد ولم أحصل على أيّ جديد في المقابل.

و... اللعنة!...

رفعتُ يدي أطلب الفاتورة. في الانتظار، تناولتُ هاتفي لألقي نظرة على الصور التي أرسلها ستيفان. الواقع أنّني طالبتُه بتلك اللقطات فحسب إرضاءً لضميري، من دون أن أتوقّع الكثير.

وكم كنتُ مخطئًا. بعد ثوانٍ معدودة، راحت يدي ترتجف بشدّة إلى حدّ أنّني أعدتُ الهاتف إلى الطاولة.

حقيبة الجلد اللّين تلك... غالبًا ما لمحتُها مرميّة في إحدى زوايا بيتي.

ما انفكّ الكابوس يستمرّ.

8

صيف الأزرق الكبير

كلّ شيء يمضي ويزول إلّا اللحظة الحاضرة.

تينيسي ويليامز

.1

قبالة الحصن الصغير، كانت ساحة بري-دي-بيشور تعجّ بالناس. في أجـواء احتفاليّة صاخبة، اصطفّت العربات والمركبات ملوَّنة زاهية، استعدادًا لمعركة الزهور والورود الفلكلوريّة. وخلف القضبان الفولاذ، تكوّمت الحشود المتراصّة، فرحةً متحمِّسة: الأولاد والأهالي والمراهقون في أزياء تنكّريّة، والمسنّون من سكّان أنتيب الذين تركوا ميدان كُرة البيتانك، لينضمّوا هم أيضًا إلى الحفل.

في طفولتي، كانت معركة الزهور تجوب سائر أرجاء المدينة. أمّا من الآن فصاعدًا ولـدواعٍ أمنيّة، زُرع شرطي في كلّ عشرة أمتار وباتت العربات تدور وتدور في حلقة ضيّقة، في جادّة فردان. كان النسيم مُحمَّلًا بالفرح يخالطه التوتُّر. فالكلّ يريد الاستمتاع بحريّة، من دون همّ أو غمّ، ومع ذلك، لا تزال ذكرى كارثة الرابع عشر من يوليو التي ضربت نيس، حيّة في جميع الأذهـان. شعرتُ بالأسى

والغضب وأنا أراقب أيادي الأطفال الصغيرة تلوِّح بباقات القرنفل، من خلف الحواجز. فالتهديد بالهجوم والاعتداء قد خنق عفويّتنا ولامبالاتنا. ولئن حاولنا أن نزعم العكس، فالخوف لم يتركنا لحظة، بل أرخى ظلاله على أوقاتنا السعيدة كلّها.

أخذتُ أشقّ دربي وسط الحشد، عائدًا أدراجي إلى موقف مرفإ فوبان. ما زالت الميني كوبير حيث تركتُها، لكنّ أحدهم قد دسّ ظرفًا من الكرتون الأسمر السميك خلف مسّاحتها. لا اسم ولا عنوان. تريّثتُ فلم أطّلع على محتواه إلّا بعدما ركبتُ السيّارة. فيما هممتُ بفضّ الظرف، اختلَجت أمعائي من جديد. فنادرًا ما تردنا أخبار سارّة برسالة مجهولة المصدر. كنتُ متوتّرًا قلقًا، ومع ذلك ما كنتُ لأتوقّع الزلزال الذي يتربَّص بي.

كان الظرف يحتوي عشرات الصور، شاحبة ومصفرَّة بفعل الزمن. حالما رمقتُ الأولى، انفتَحت هوّة سحيقة في أعماقي: فقد ظهر والدي فيها يقبّل فينكا بشغف واضح! راح صدغاي يقرعان ويطنّان فيما اجتاحتني موجة من الغثيان. فتحتُ باب السيّارة لأتقيّأ فلم يخرج إلّا البعض من سائل المُرّة.

اللعنة!...

تحت أثر المفاجأة الصاعقة، رحتُ أنظر إلى الصور من كثب. كلّها من العيار ذاته. لم أفكّر ولو ثانية واحدة في أنّها مركَّبة. ففي قرارة نفسي، كنت أدرك تمامًا أنّ الأوضاع التي خلّدتها تلك الصور قد كانت حقًّا وحقيقة. حتّى أنّ جزءًا منّي لم يتفاجأ على الأرجح. كأنّه سرٌّ لم أؤتَمن عليه يومًا، بيد أنّه كان مُختبئًا في ذاتي، عالقًا في ثنايا لاوعيي.

كان والدي في كلّ لقطة. ريشار دوغاليه الملقَّب بـ«ريشار قلب الأسد»، أو «ريك» للمقرَّبين. في أوائل التسعينيّات، كان في مثل

سنّي اليوم. إلّا أنّني لم أكن أشبهه. كان وسيمًا، رقيقًا، أصيلًا: قوامًا رشيقًا وممشوقًا، شعرًا متوسِّط الطول، قميصًا مفتوحًا على صدره. نسخة طبق الأصل من الممثّل سامي فري في سيزار وروزالي: كان شابًّا وسيمًا، ومتحدِّثًا لبقًا، ومغازلًا محترفًا، ومن دعاة اللهو والمتعة، ما كان ريك ليختلف عن ألكسيس كليمان في النهاية. مع فارق وحيد: كان يكبره بخمس عشرة سنة. كان يهوى الحسناوات، وسيّارات السباق، والولّاعات المذهَّبة وسترات الـ«سمالتو». مؤسف القول، لكنّه بدا في تلك الصور شبيهًا بفينكا. فكلاهما ينتمي إلى عرق «الأسياد النبلاء». وكلاهما يحصل على دور البطولة في الحياة، وكلاهما ينحدر بك إلى الدور الثانوي البسيط متى كنتَ في حضرتيهما.

كانت سلسلة الصور تتوالى على شكل مجموعة سبق صحافي، وذلك في مكانين مختلفين في الأقلّ. تعرّفتُ إلى المكان الأول بسهولة. سان-بول-دو-فانس خارج موسم السياحة: مقهى الساحة، طاحونة الزيت العتيقة، الحصون المُشرفة على المشهد الريفي والمدافن القديمة التي تستضيف رفات مارك شاغال. كان والدي وفينكا يتمشّيان معًا، يدًا بيد، في جوّ غرامي حميم لا يترك مجالًا للشكّ. بيد أنّني واجهت صعوبة في التعرّف إلى المكان الذي التُقطت فيه السلسلة الثانية من الصور. بادئ ذي بدء، ميّزتُ خطوط الآودي 80 بسطحها المكشوف، سيّارة أبي المركونة في موقف مُرتَجَل وسط غابة من الصخور البيضاء. تليها أدراج محفورة في الصخر. وفي البعيد، جزيرة غريبة عن كلّ المشهد مرصوفة بأحجار الغرانيت الملتمعة. هنا، فهمتُ كلّ شيء. إنّها منطقة الكالانك في مرسيليا. ذلك الشاطئ الرملي الصغير المختبئ خلف السدّ، ليس سوى شاطئ «لا بيه دي سانج». شاطئ ناءٍ، حيث اصطحبنا والدي في نزهة عائليّة مرّة أو اثنتين، ولكن، يبدو أنّه هو الآخر تحوّل ملاذًا يخفي ذلك الحبّ المُحرَّم عن الأنظار.

جفّ حلقي. على الرغم من اشمئزازي، رحتُ أتفحّص كلّ لقطة بعين ثاقبة. كانت الصور تحمل طابعًا فنّيًا، بل وتشي بالدقّة والاحتراف. مَن أرسلها إليّ؟ ومَن التقطها؟ آنذاك، ما كانت عدسات التزويم فعّالة كما هي اليوم. إذًا، لالتقاط أكبر قدر من التفاصيل، لا بدّ من أنّ المصوِّر كان على مقربة من المشهد، إلى حدّ أنّني تساءلتُ عمّا إذا كانت الصور قد التُقطت فعلًا من دون علم بطلَيها. من دون علم أبي، حتمًا، ولكن ماذا عن فينكا؟

أغمضتُ عينيّ ورحتُ أرسم سيناريو: ثمّة من استغلّ تلك الصور لابتزاز والدي على الأرجح. وهذا وحده يشرح ما اكتشفتُه منذ بضع دقائق. حين فتحتُ شاشتي وتبيّنتُ النسخ التي أرسلها إليّ بيانيلي، تعرّفتُ بالفعل إلى حقيبة ثياب مصنوعة من جلد التمساح، حقيبة، أقسِم بحياتي أنّها كانت لريشار في الماضي. إن كان أبي قد أعطى فينكا حقيبة تحتوي مئة ألف فرنك، فهذا لأنّها كانت تهدّده بكشف علاقتهما أمام الناس.

وربّما مسألة حَمْلها أيضًا...

ضاقت أنفاسي. كنت في حاجة ماسّة إلى جرعة أوكسجين. أدرتُ المحرِّك وكشفتُ السطح وسلكتُ في اتّجاه الشطّ. لم يعد جائزًا أن أرجئ المواجهة مع أبي. واجهتُ صعوبة شديدة في التركيز على الطريق. فصور فينكا لا تزال مطبوعة في ذهني: هي المرّة الأولى التي ألمح طيف حزن وتوجُّس في عينيها. تُرى هل كان والدي مَن يُخيفها؟ هل كانت ضحيّة أو داهية شيطانيّة؟ أم الاثنتين معًا...

مع دنوّي من لا سييستا – المرقص الأكثر شهرة في أنتيب – توقّفتُ عند الإشارة الثلاثيّة اللون التي كانت تضبط حركة المرور في اتّجاه طريق نيس.

لم تتبدَّل البتّة: ما زالت تطول إلى ما لا نهاية. لقد تجاوزتها مرّة واحدة في حياتي، حين كنت في الخامسة عشرة، أقود درّاجتي الموبيليت الصغيرة العتيقة. ولسوء حظّي، كان شرطيّو السير هناك في تلك اللحظة تحديدًا فسطّروا مخالفة بحقّي. غرامة بقيمة سبعمئة وخمسين فرنكًا، شكّلت على مدى أشهر متتالية، محور أحاديثنا في المنزل: سوء الطالع، تلك اللعنة التي تُلاحق الناس الطيّبين. طردتُ تلك الذكرى المُشينة بيد أنّ مشهدًا آخر تبادر إلى ذهني رغمًا عنّي. كليك-كليك. فتاة «الليكا». الفتاة التي تصوِّركم في ذهنها وإن لم تكن الكاميرا معلّقة في رقبتها. سمعتُ بوقًا يزعق خلفي. لقد تحوّلت الإشارة خضراء. عرفتُ الآن مَن الذي التقط صورًا لأبي وفينكا. بدَّلتُ سرعتي واتّجهتُ صوب مستشفى «لا فونتون».

مكتبة t.me/ktabrwaya

.2

كانت محلّة «لا فونتون»، الواقعة على أراضي البساتين والجنائن القديمة التي صنعت شهرة أنتيب في الماضي، محلّة مُستقلّة، لامركزيّة في شرق المدينة. إذا ما بحثنا عنها على الخريطة، خُيل إلينا أنّها مترامية على طول الشاطئ، إلّا أنّ الواقع هو أقلّ شاعريّة. صحيح أنّ الشاطئ موجود ولكنّه عبارة عن سلسلة من الحصى تفترش حافّة الطريق، ويفصل بينه وبين المنطقة السكنيّة الطريق الرئيسي والسكّة الحديد. في منتصف الثمانينيّات، كنتُ قد ارتدتُ ثانويّة المحلّة جاك-بريفير، والتي لم تترك ذكراها انطباعًا حسنًا في ذهني: مستوى المدرسة كان متدنّيًا، والأجواء رديئة، وأعمال العنف متكرِّرة. لطالما عانى التلاميذ المُجتهدون الأمرّين هناك. ومع ذلك، كان عدد ضئيل من المعلّمين والأساتذة يستبسل في إدارة المؤسّسة على الرغم من كلّ شيء. لولاهم، ولولا صداقتي مع ماكسيم وفاني، لانتهيتُ على درب

الانحراف على الأرجح. عندما قُبِلنا نحن الثلاثة في سانت-إكزوبيري، تبدّلت حياتنا جذريًّا. فقد اكتشفنا أنّنا نستطيع ارتياد المدرسة من دون أن ينهش الخوف أحشاءنا.

بيد أنّ الثانويّة اكتسبت سمعة طيّبة منذ ذلك الحين، فيما تبدّلت المحلّة برُمّتها. ناحية البريغيير – أحد مداخل المستشفى – كانت المشاتل القديمة كلّها قد زالت لتحلّ محلّها أراضٍ مفرزة ومبانٍ صغيرة فخمة. لا طابع سياحيًّا هنا، بل منطقة سكنيّة، تغذّيها بعض متاجر البيع بالتجزئة المُجاورة، ويقطنها كثرٌ من أصحاب الثروات.

ركنتُ السيّارة في موقف المستشفى المكشوف. وعلى الفور أعادني المكان إلى سيل من الذكريات، الأمر الذي يتكرّر معي في المرّة الألف منذ الصباح. في ما يتعلّق بالمستشفى، ساورتني اثنتان لا واحدة. ذكرى سيّئة وأخرى سارّة.

في شتاء العام 1982، وأنا في الثامنة من عمري، وفيما كنتُ أطارد أختي في الحديقة – كانت قد سرقت منّي بيغ جيم لتحوّله عبدًا في خدمة دميتها باربي – أسقطتُ من غير قصد مقعدًا معدنيًّا طويلًا من مقاعد الصالون الصيفيّ. فقطعت إحدى زواياه طرف إصبع قدمي. بعد تقطيب جرحي في المستشفى، نسي أحد الأطبّاء المُعاونين لفّه بالشاش قبل أن يلصق الشريط مباشرةً على جلدي. التهبَ الجرح فحُرمت من ممارسة الرياضة طوال أشهر عدّة. وما زلتُ حتّى اليوم أحمل تلك الندبة.

أمّا الذكرى الثانية فكانت ممتعة أكثر، مع أنّ بدايتها كانت سيّئة. ففي صيف 1988، اعتدى عليّ أحد فتيان أزقّة فالوريس المكتظّة، في ميدان كرة القدم، بعد أن سجّلتُ هدفًا مباشرًا يليق بكلاوس ألوفس. كُسرت ذراعي اليسرى، وبقيتُ يومين تحت المراقبة، إذ أغمي عليّ إثر الصدمة. تذكّرتُ ماكسيم وفاني، يأتيان

لزيارتي، ثمّ يدوّنان أوّل كلمة على جبيرتي. ها ماكسيم يكتب ببساطة: «إلى الأمام يا أولمبيك مرسيليا!» و«مباشرةً في المرمى!»، وذلك لأنّه في تلك اللحظات، لم يكن شيء أهمّ في الحياة من كرة القدم. أمّا فاني فاستغرقت وقتًا أطول. ما زلتُ أذكر المشهد بتفاصيله كلّها. إنّها نهاية العام الدراسي أو ربّما بداية العطلة الصيفيّة. يوليو 1988. صيف فيلم الأزرق الكبير. أرى ظلّها، وهي تنحني على سريري، نصفها معتم ونصفها مُنير، وأرى أشعّة الشمس تداعب خصلاتها الشقراء. تكتب لي جزءًا صغيرًا من حوار دار في فيلم شاهدناه معًا، هي وأنا، منذ خمسة عشر يومًا. جوهانا تردّ على جاك مايول في نهاية الفيلم، مباشرةً بعد أن قال الغطّاس: «سأذهب لأرى بنفسي». تلك اللحظة التي نُدرك فيها أنّه سيغطس في البحر ولن يعود.

«تَرى ماذا؟ ليس هناك ما تراه يا جاك، مجرّد سَواد وصقيع ليس إلّا! لا أحد هناك. أمّا أنا فموجودة، هنا، حيّة أُرزَق، أعيش!».

مع أنّني تجاوزت الأربعين من عمري، ما زالت تلك الكلمات تُدمي قلبي كلّما عاودت التفكير فيها. واليوم أكثر من أيّ يوم مضى.

.3

كان مركز الاستشفاء متاهة حقيقيّة، عبارة عن فسيفساء من الأبنية غير المتجانسة. جاهدتُ لأجد وجهتي بين اللوحات واللافتات. في محاذاة الجناح الرئيسي المُشيَّد بحجر منحوت منذ الثلاثينيّات، تناثرت وحدات بناء، وقد أبصر كلّ منها النور تباعًا على مرّ العقود. كلّ واحدة تعرُض عيّنة هندسيّة عن أفضل ما أنتجته الأعوام الخمسين المنصرمة وأسوئه: شكل متوازي السطوح من الطوب الداكن، كتلة من الإسمنت المسلَّح مستقرّة على ركائز، مكعَّب بجدران معدنيّة، مساحة مغطّاة بالشتول والنبات...

كان قسم أمراض القلب في المبنى الأحدث؛ عمارة بيضاويّة الشكل، وواجهتها مزيج مُتقَن من الزجاج وخشب الخيزران.

اجتزتُ الردهة المُنيرة وصولًا إلى مكتب الاستقبال.

– نعم سيّدي؟

بدت عاملة الاستقبال استُنسخَت عن ديبي هاري: بشعر نصل لونه لكثرة ما لوَّنته الصبغات، تنّورة جينز مُنسَّلة وتي-شيرت متقلِّص، بقياس أصغر من الصغير، وجوربين لاصقين مرقّطين كالفهد الأرقط.

– أودّ مقابلة الدكتورة فاني براهيمي، رئيسة قسم الأمراض القلبيّة.

رفعت الشقراء الزائفة سمّاعة الهاتف.

– مَن يريدها؟

– توماس دوغاليه. قولي لها إنّها حالة طارئة.

طلبت منّي الانتظار في الباحة الصغيرة. ابتلعتُ ثلاثة أكواب من ماء النافورة المثلَّجة قبل أن أرتمي على واحدة من الكنبات القليلة الموزّعة على الأرضيّة الواسعة. أغمضتُ عينيّ. ما زالت صور والدي وفينكا عالقة تحت جفنيّ. لقد انقضّ الكابوس عليّ من دون سابق إنذار، معقِّدًا تلك الذكرى التي احتفظتُ بها عن فينكا، بل وملوِّثًا إيّاها أكثر فأكثر. عاودتني اللازمة التي ما انفكّ الجميع يكرِّرها على مسمعي منذ الصباح: «أنتَ ما عرفتَ فينكا حقًّا». لكنّهم أخطأوا التصويب. لن أدّعي يومًا أنّني أعرف شخصًا من كثب، بل وأنا من دعاة ذلك المبدإ البدهيّ، مبدإ غابرييل غارثيا ماركيز: «لكلّ منّا ثلاث حيوات: حياة عامّة وحياة خاصّة وحياة سرّية»، لكن ما كنتُ أتبيّن لدى فينكا إلّا أنّ تلك الحياة الثالثة تشمل تفاصيل لا يمكن تصوّرها.

لم أكن ساذجًا. كنتُ أعي جيّدًا أنّ قلبي ما زال يحتفظ بالصورة الماضية، تلك التي بناها شغف الحبّ خلال سنين المراهقة. كما أُدرك

تمامًا أنّني أوجدتُها فحسب لتُرضي طموحاتي وتطلُّعاتي آنذاك: أن أعيش حبًّا نقيًّا، حبًّا مُطلقًا مع بطلة من بطلات الروايات الرومانسيّة، خرجت من صفحات «لو غران مولن» و«لي هو دو هورلوفان».

نعم، لقد ابتدعتُ فينكا كما أتمنّاها أن تكون وليس كما هي عليه. أسقطتُ عليها مزايا وأمورًا لم تكن موجودة إلّا في مخيّلتي المحمومة. ومع ذلك، لستُ أقوى على الإقرار بأنّني كنتُ مخطئًا منذ البداية.

– اللعنة! نسيتُ سجائري. هلّا ذهبتِ وأحضرتِ حقيبتي من خزانتي؟

انتشلني صوت فاني من دوّامة أفكاري. قذفَت بمجموعة مفاتيح صوب ديبي التي التقطتها على الفور.

– إذًا، يا توماس، لم يكلّم أحدنا الآخر منذ سنين عدّة، وإذا بك فجأةً لا تستطيع الاستغناء عنّي؟ بادرتني وهي تتّجه نحو آلة المشروبات.

كانت المرّة الأولى التي أراها في دور الطبيبة. كانت ترتدي بنطالًا من القطن الأزرق الفاتح، ومئزرًا بكُمّ طويل من اللون عينه، وقد رفعت شعرها وثبّتته بقبّعة ورقيّة. بدت ملامحها أكثر قساوة منها في الصباح. وخلف خصلات شعرها الشقراء، راحت حدقتاها الفاتحتان تلتمعان غموضًا وجرأة. ملاك من نور في صراع مع ظلمات المرض.

ترى مَن هي فاني؟ حليفتي أو ذراع الشيطان اليمنى؟ وماذا لو لم تكن فينكا الشخص الوحيد في ماضيّ، ممّن أخطأتُ في تقييمهم؟

– يجب أن أريك شيئًا يا فاني.

– لا أملك الكثير من الوقت.

أدخلَت نقودها في الفتحة. ولشدّة توتّرها، راحت تعنِّف الآلة لأنّ زجاجة البيرييه التي انتقتها تأخّرت في النزول. بحركة خاطفة من

يدها، حثّتني على اللحاق بها إلى الخارج حيث موقف الموظّفين. هناك، حلَّت شعرها ونزعت المئزر ثمّ جلست على غطاء محرِّك ما يُفترض أن يكون سيّارتها: دودج تشارجر بلون الدم القاني، تبدو خرجت مباشرةً من ألبوم عتيق لكلابتون أو سبرينغستين.

– أحد الأشخاص ترك هذا تحت مسّاحة سيّارتي، قلت لها وأنا أناولها الظرف الأسمر. أأنتِ مَن فعل؟

هزّت فاني رأسها، أخذت المغلَّف، تحسّسته وقلّبته. لم تستعجل فتحه كأنّها تعرف محتواه مسبقًا. منذ دقيقة، كان لون عينيها مُشرقًا ضاربًا إلى الأخضر، أمّا الآن فقد استحال رماديًّا كئيبًا.

– فاني، أأنتِ التقطت هذه الصور؟

عاجلها سؤالي، فأذعنت وقرّرت أن تخرج الصور من غلافها الكرتويّ. ثمّ خفضت عينيها ملقيةً نظرة على أوّل صورتين، ثم أعادت إليّ الظرف بما فيه.

– تعرف ما يجب فعله يا توماس: اركَب طائرة وعُد إلى نيويورك.

– لا تراهني على ذلك. أنتِ من التقط الصور، لا؟

– نعم، أنا. منذ خمس وعشرين سنة.

– لماذا؟

– لأنّ فينكا طلبت منّي.

أعادت رفع حمّالة قميصها، وراحت تفرك عينيها بساعدها.

– أعرف أنّ كلّ هذا حدث منذ زمن بعيد، قالت متنهّدة، لكنّ ذكرياتك عن تلك الحقبة لا تتطابق البتّة مع ذكرياتي.

– إلى أين تريدين الوصول؟

– اعتَرِف بالحقيقة يا توماس. في أواخر العام 1992، كانت فينكا قد فقدت صوابها. خرجَت عن السيطرة، ودخلت دوّامة جنونيّة

لامتناهية. فلتذكُر جيّدًا: كانت بدايات سهرات الرايف، حفلات الموسيقى الإلكترونيّة الهذيانيّة، وقد انتشرَت المخدِّرات في أرجاء الليسّيه. ولم تكن فينكا آخر من جرّبها.

بالفعل، ما زلتُ أذكر أقراص المهدِّئات والمنوِّمات والإكستاسي والبنزيدرين التي رأيتها في علبة الأدوية في غرفتها.

– ذات مساء من أكتوبر أو نوفمبر ربّما، اقتحمَت فينكا غرفتي. أخبرتني أنّها تقيم علاقة مع والدك وطلبت منّي اللحاق بهما لألتقط لهما الصور. كانت...

قطع وقع خطى عاملة الاستقبال سيل اعترافها.

– تفضّلي حقيبتك يا دكتورة! بادرتها ديبي.

شكرتها فاني، وأخذت علبة سجائرها وولّاعتها ووضعت الحقيبة قربها، على غطاء المحرِّك. حقيبة من الجلد المجدول، باللونين الأبيض والبيج، ومشبك على شكل رأس أفعى بعين من الأونيكس، كأنّ طيفَ شرٍّ أسود يلتمع في نظرتها.

– وماذا كانت تنوي أن تفعل بالصور؟

أشعلت سيجارتها وهي تهزّ كتفيها.

– أعتقد أنّها أرادت ابتزاز والدك. هل حدّثتَه بالأمر؟

– ليس بعد.

شعرتُ بالغضب والخيبة يعتملان في أعماقي.

– ولكن، كيف استطعتِ تغطية فعلة كهذه يا فاني؟!

هزّت رأسها وأخذت سحبة من سيجارتها. اختفى بريق نظرتها. طرفت عينيها كأنّها تريد حبس دموعها، لكنّني لم أرتدِع:

– لماذا فعلتِ هذا بي؟ سألتُها صارخًا.

مع ذلك، أخذت تصرخ أكثر، وقد قفزت عن غطاء السيّارة لتتحدّاني:

– ولكن... اللعنة، لأنّني كنتُ واقعة في حبّكَ!

وقعت حقيبتها على الأرض. أخذت تدفعني وقد احمرَّت عيناها من شدّة الغضب:

– ولطالما أحببتُكَ يا توماس، منذ الأزل! وأنتَ أيضًا كنتَ تحبّني قبل أن تأتي فينكا وتفسد كلّ شيء.

أخذت تلكم صدري وهي تستشيط غضبًا.

– تخلّيتَ عن كلّ شيء من أجلها. ولتنال إعجابها، رذلتَ كلّ ما كان يصنع فرادتك. كلّ ما كان يجعل منك فتى مختلفًا، فتى غير الفتيان كلّهم.

كانت المرّة الأولى التي أرى فاني قد فقدت السيطرة كليًّا. تُراي وقفتُ أتلقّى الضربات واحدة تلو أخرى كأنّها عقاب، لأنّني أدركتُ أنّ ما تقوله فيه شيء من الحقيقة؟

حين رأيتُ أنّ العقوبة قد طالت ما يكفي، أمسكتُ رسغيها بلطف.

– اهدإي يا فاني.

تحرّرت من قبضتي وغطّت وجهها بكفّيها. رأيتُها تترنَّح منكسرةً.

– قبلتُ اقتراحها... لأنّني أردتُ أن أريك اللقطات فتتشوّه صورة فينكا في نظرك.

– ولماذا عدلتِ؟

– لأنّ الأمر كان سيقضي عليك آنذاك. فقد خشيتُ أن ترتكب حماقة ما، في حقّك أنت، أو في حقّها هي أو حقّ والدك. ولم أشأ أن أجازف.

استندَت إلى باب السيّارة. انحنيتُ لألمّ حقيبتها مع الحرص على تفادي لسعة الأفعى. كان مفتوحًا، وقد تناثر بعض محتواه

على الأرض: مفكّرة، مجموعة مفاتيح، أحمر شفاه. فيما كنتُ أعيد الأغراض إلى الحقيبة، وقع نظري على ورقة مطويّة: نسخة من مقالة نيس-ماتان عينها التي أرسلها إليّ ماكسيم. وتعترضها الحروف ذاتها، مخطوطة بالحبر الأحمر، دمويّة صارخةً: الثأر!

– فاني! ما هذه؟ سألتُها وأنا أقف.

خطفَت الورقة من يدي.

– رسالة من مجهول. وجدتُها في صندوق بريدي في بداية الأسبوع.

فجأةً، ثقل الهواء كأنّه أشبع ذبذباتٍ سلبيّة. أدركتُ أنّ الخطر المُحدق بنا أنا وماكسيم أخبث ممّا توقّعتُ.

– هل تعرفين لِمَاذا تلقّيتِها؟

كانت فاني خائرة القوى، مُتهالكة، على شفا الانهيار. لم أكن أفهم، لماذا قد تَرِدُها رسالة كهذه؟ وفق ما أعلم، لا صلة لها بوفاة ألكسيس كليمان. فلماذا يستهدفها هي الأخرى، ذاك المجهول المتربِّص بنا أنا وماكسيم؟

لم أستعجلها، بل وضعتُ يدي برفق على كتفها:

– فاني، أجيبيني أرجوكِ: هل تعرفين لماذا وصلتكِ رسالة التهديد هذه؟

رفعَت رأسها فعاينتُ ملامحها: مهزومة، شاحبة، متداعية. وفي قعر حدقتيها شرارة لاهبة.

– تبًّا، بالطبع أعرف! ردَّت.

الآن، وقد جاءني الجواب، بدأتُ أتداعى أيضًا.

– و... لماذا؟

– لأنّ هناك جثّة داخل جدار الجمنازيوم.

.4

خانتني الكلمات فمكثتُ صامتًا هنيهة.

لقد خرجَت الأوضاع عن السيطرة. وقفتُ جامدًا مصعوقًا.

– ومنذ متى تعلمين؟

كانت كمَن تلقّى الضربة القاضية، وقوفًا. غريقة أذعنت لمصيرها فتركت المياه تبتلعها. لاهثة مُزهَقة، همسَت:

– منذ اليوم الأوّل.

ومن ثمّ انهارت. بكلّ ما للكلمة من معنى. انزلَقَت عن السيّارة لتسقط باكيةً على الزفت. اندفعتُ نحوها لأساعدها على الوقوف.

لستِ مسؤولة من قريب ولا من بعيد عن موت كليمان، بل أنا وماكسيم فحسب.

رفعت عينيها صوبي مذهولة تائهة. ثمّ اختلجت أوصالها فيما اجتاحتها نوبة جديدة من البكاء، فجلست على الأرض، طامرةً وجهها بين يديها. جثوتُ قربها أنتظر ريثما تجفّ دموعها، أنظُر ظلّينا المتشامخين، ينعكسان على الزفت تحت أشعّة الشمس. أخيرًا، مسحت جفنيها بساعدها.

– كيف حصل ذلك؟ سألت. كيف مات؟

بما أنّنا بلغنا هذا الحدّ، رحتُ أروي لها كلّ شيء بالتفصيل المملّ، محرّرًا إيّاها من سرّنا المريع. ومن جديد، عدتُ أعيش المأساة المُرّة التي حوّلتني مجرمًا قاتلًا إلى الأبد.

حين أنهيتُ قصّتي، بدَت أنّها استعادت شيئًا من الهدوء. الواقع أنّ هذا الاعتراف قد أراحنا، كِلينا معًا.

– وأنت يا فاني، كيف علمتِ بالأمر؟

وقفت، تنفَّسَت بعمق وأشعلت سيجارة أخرى سحبت منها أنفاسًا عدّة كأنّ الدخان يسمح باستدعاء طيف الذكريات البعيدة، من دون عذاب.

– يوم العاصفة الثلجيّة، ذلك السبت الشهير، في التاسع عشر من ديسمبر، كنتُ قد عملتُ حتّى ساعة متأخّرة. ففي الفترة التي كنتُ أتهيّأ لدروس الطبّ، اعتدتُ النوم أربع ساعات فقط في الليل. أظنّ أنّ الأمر كان يصيبني بالجنون، خصوصًا حين لم يكن يتوفّر لي ما يكفيني من نقود لابتياع الطعام. في تلك الليلة، كنت أتضوّر جوعًا إلى درجة أنّه لم يغمض لي جفن. قبل ذلك بثلاثة أسابيع، كانت السيّدة فابيانسكي، زوجة الحارس، قد أشفقت على حالي وأعطتني نسخة من مفاتيح مطبخ قاعة الطعام المشتركة.

رجّ جهاز الإنـذار في جيب فاني، لكنّها تظاهرت بأنّها لم تسمعه.

– خرجتُ في العتمة. كانت الثالثة فجرًا. اجتزتُ حرم الكليّة وصولًا إلى مطعم الطلّاب. في تلك الساعة، كانت جميع الأبواب موصدة، لكنّني كنتُ أعرف رمز باب الطوارئ الذي يسمح بدخول قاعة الطعام. كان البرد قارسًا فلم أمكث مطوّلًا هناك. التهمتُ على عجل علبة بسكويت من ثمّ عدتُ بنصف كيس من شطائر الخبز الأبيض ولوح شوكولاتة.

كانت تتكلّم بنبرة رتيبة كأنّها شبه نائمة وشخصًا آخر يتحدّث من خلالها.

– لم أتبيّن المشهد الخلّاب أمامي إلى أن عدتُ أدراجي إلى الجناح. كان الثلج قد توقّف عن السقوط، فيما طرد الهواء الغيوم، كاشفًا النجوم البرّاقة والبدر المنير. كان منظرًا خياليًّا وساحرًا إلى

درجة أنّني أطلتُ درب العودة لأمرّ بالبحيرة. ما زلتُ أذكر وقعَ خطاي على الثلج وانعكاس القمر الفضّي على صفحة المياه.

كان كلامها يوقظ ذكرياتي تباعًا، ذكريات عن كوت دازور جامدة في عظمة بياضها الثلجي. وواصلت فاني:

– بيد أنّ السحر انقطع عندما لمحتُ بصيص نور غير مألوف فوقي. كان آتيًا من ورشة بناء الجمنازيوم الجديد. كلّما دنوتُ منه، أدركتُ أنّه ليس مجرّد بصيص، بل كانت الورشة بأكملها مضاءة. حتّى أنّني سمعتُ ضجيج محرِّك. هدير آلة ما. راح حدس خافت ينذرني بعدم الاقتراب أكثر، لكنّ فضولي غلبني و...

– ماذا اكتشفتِ؟

– رأيتُ خلّاطة إسمنت تعمل في الليل. وقفتُ مذهولة. ثمّة من كان يخلط الإسمنت عند الثالثة فجرًا وسط الصقيع المُميت! ثمّ أجفلتني حركة ما. استدرتُ ورأيتُ أحمد غزواني، أحد عمّال فرنسيس بيانكارديني. نظر إليّ. كان مذعورًا بقدري أو أكثر. صرختُ بشدّة ثمّ لذتُ بالفرار، عائدةً أدراجي على عجل، لأختبئ في غرفتي. ومع ذلك، عرفتُ أنّني رأيتُ في ذلك المساء ما لم يجدر بي أن ألمحه حتّى.

– وكيف عرفتِ أنّ أحمد كان يدفن جثّة كليمان في الجدار؟

– لم أعرف، فأحمد هو نفسه مَن اعترف لي بذلك... بعد خمس وعشرين سنة تقريبًا.

– في أيّ مناسبة؟

استدارَت فاني لتشير إلى المبنى خلفها.

– في العام الماضي، أُدخِل المستشفى، هنا في الطابق الثالث، بسبب سرطان في المعدة. لم أكن طبيبته المباشرة، لكنّني كنتُ أزوره أحيانًا في المساء، قبل أن أغادر. كان والدي قد عمل معه العام 1979، في ورشة مرفإ نيس التجاري، وبقي الاثنان على تواصل. كان

أحمد يعلم أنّ مرضه بلغ مرحلته النهائيّة، فأراد إراحة ضميره قبل وفاته، وهكذا روى لي كلّ شيء. تمامًا كما فعلتَ أنت منذ قليل.

بلغ قلقي ذروته.

– إن كان قد أخبركِ أنت بذلك فربّما أخبر سواكِ أيضًا. هل تذكرين الأشخاص الذين كانوا يزورونه؟

– تمامًا. لا أحد. وهذا ما كان يشكو منه. لم يكن لديه سوى رغبة واحدة: العودة إلى منطقة بيزيت.

تذكّرتُ ما قاله ماكسيم: قد قضى أحمد في بيته.

– وهذا ما فعله، خمّنتُ في الحال. ترك المستشفى ليعود إلى تونس...

– حيث توفّي بعد أسابيع قليلة.

مجدّدًا سمعنا رنين جهاز فاني في أرجاء الموقف المهجور.

– هذه المرّة عليّ حقًّا أن أعود إلى عملي.

– طبعًا، هيّا اذهبي.

– أبقِني على علم إذا كلّمتَ والدك.

أومأتُ برأسي إيجابًا وعدتُ أدراجي إلى الموقف المخصَّص للزائرين. فيما كنتُ أدنو من سيّارتي، لم أتمالك نفسي عن الالتفات إلى الوراء. كنتُ اجتزتُ عشرين مترًا، بيد أنّ فاني لم تبرح مكانها. كانت واقفة تحملق بي. ولمّا أدارَت ظهرها للشمس، التمعَت خصل شعرها الشقراء، خيوطًا مُشعّة من فانوس سحري. وباتت ملامحها ضبابيّة إلى حدّ أنّنا قد نتساءل عن سنّها الحقيقيّة.

عادت فاني القديمة بضع ثوانٍ في ذهني، فاني صيف الـ«الأزرق الكبير»، فاني البحر الأزرق. وعدتُ أنا ذلك الفتى، «فتى غير الفتيان كلّهم».

عدتُ توماس دوغاليه ذاك، الوحيد الذي أحببتُه في حياتي.

9

كلّ ما تعيشه الورود

وهل من مكان أفضل من كنف الأسرة؟
نعم، أيّ مكان آخر!

هيرفي بازين

.1

لطالما ذكّرتني محلّة لا كونستانس بطرقاتها المتعرّجة، وبساتينها المزروعة بأشجار الزيتون، وأسيجتها الخضراء المشذّبة، بزخارف نوتات بعض مقطوعات الجاز. تنميقات أنيقة تتكرّر عند منعطف أو آخر، لتزداد غنًى فتتحاكى في ما بينها، عبر قصائد ريفيّة ومفردات مُطَمئنة.

كان طريق السوكيت – حيث يقيم أهلي – يحمل اسمًا فريدًا، مشتقًّا من لفظة بروفنساليّة لطالما استُعمِلت في وصف الربوة أو أيّ مُرتَفَع طبيعي. والواقع أنّ تلك التلّة المُطلّة على أنتيب كانت تحوي في قديم الزمان قصر لا كونستانس؛ وهي عبارة عن أرض زراعيّة شاسعة في شرق المدينة. على مرّ الزمن، حوِّل القصر عيادةً، ومن ثمّ شققًا خاصّة. ورويدًا رويدًا، ظهرت وفرة من الفيلّات والمساحات المُفرزة

للعمار، في الأراضي المُجاورة. كان أهلي – كما أهل ماكسيم – قد استقرّوا هنا بعد ولادتي مباشرةً، في وقتٍ كان الطريق الرئيسي لا يزال دربًا صغيرة مُزهرة لا يسلكها إلّا القليل من المارّة. رحتُ أتذكّر كيف تلقّنتُ دروس ركوب الدرّاجة برفقة أخي هنا، وكيف عكف سكّان الضفاف على تنظيم مباريات ودّية في كرة البيتانك، بين عطلة أسبوع وأخرى، على الدرب هذه عينها. أمّا اليوم، فقد توسّع الطريق وبات يشهد حركة سير كثيفة. صحيح أنّه لم يرتقِ إلى مستوى الطريق الرئيسي الرقم 7، بيد أنّ الأمر أصبح وشيكًا.

لدى وصولي إلى الرقم 74، عنوان فيلّا فيوليت، أنزلتُ زجاج نافذة السيّارة وضغطتُ على الجرس لأعلن حضوري. لا جواب، لكنّ البوّابة الكهربائيّة انفتَحت في الحال. خفّفتُ السرعة وسلكتُ الممرّ الإسمنتي الضيّق الذي كان يمتدّ متعرِّجًا وصولًا إلى منزل طفولتي.

وفيًّا لماركة أودي، كان والدي قد ركن البريك أ 4 عند المدخل. تلك كانت طريقته الخاصّة ليفرّ إن شاء وفي اللحظة التي يشاء من دون أن يعترض طريقه أحد (الواقع أنّ شخصيّة ريشار دوغاليه كلّها تُختصر بهذا السلوك، وفق ما أظنّ). ركنتُ سيّارتي على بُعد أمتار قليلة، في مساحة مرصوصة بالحصى الصغيرة، في محاذاة رودستر مرسيدس كانت لأمّي على الأرجح.

خطوتُ بضع خطوات، تحت أشعّة شمس ساعات بعد الظهر الأولى، وأنا أحاول سَلسَلة الأمور التي أتيتُ لأفعلها هنا. كان المنزل يقع على قمّة التلّة. وكما في كلّ مرّة، سحرني المشهد: شجر النخيل الطويل النحيل، صفاء السماء والبحر، الأفق الممتدّ إلى ما لا نهاية. رفعتُ يدي أحمي عينيّ من أشعّة الشمس المبهرة، وإذ أدرتُ رأسي، رأيتُ أمّي جامدةً، مكتوفة اليدين، تنتظرني تحت الشرفة.

لم أرها منذ عامين تقريبًا. فيما كنتُ أصعد الدرجات القليلة لموافاتها، رحتُ أنعم النظر فيها محدِّقًا مباشرةً في عينيها. لطالما شعرتُ بالارتباك في حضورها. مع أنّ أوقات طفولتي جوارها قد مرّت هانئة فرحة، لكنّ آخر أيّام المراهقة فمرحلة الرشد فرّقت بيننا. كانت أنابيل دوغاليه – المولودة باسم أنابيلا أنتونيولي – صاحبة جمال بارد وصارِم. شقراء من شقراوات هيتشكوك إنّما تفتقر إلى إشراقة غريس كيلي أو فرادة إيفا ماري سان. كان شكلها كناية عن زوايا حادّة وخطوط مستقيمة طويلة، يتناسب كليًّا وشكل والدي. كانت تلبس بنطالًا عصري الطراز وسترة بسحّاب تتناغم معه. وقد استحال شعرها الأشقر شبه أغبر، إنّما ليس أبيض بعد. الواقع أنّها هرمت بعض الشيء منذ زيارتي الأخيرة، كأنّ طلّتها قد فقدت رونقها، لكنّها ما زالت تبدو أصغر بعشر سنوات من سنّها الحقيقيّة.

– مرحبًا أمّي.

– صباح الخير يا توماس.

أظنّ أنّ نظرتها الجليديّة بدت شاحبة وقاطعة كحدّ السيف، أكثر من أيّ يوم مضى. تردّدتُ. هل أقبّلها أم لا؟ كنتُ أشعر كما في كلّ مرّة، بأنّها قد تتراجع خطوة إلى الخلف إذا ما أقدمتُ على ذلك. لذا، قرّرتُ هذه المرّة ألّا أتكبّد عناء المجازفة.

«النمسويّة». فجأةً، عاودني ذلك اللقب الذي محضوها إيّاه في إيطاليا، حين كانت صغيرة، على مقاعد الدراسة. لم يكن تاريخ أنابيل العائلي سهلًا ولا هانئًا، تلك هي الحجّة الوحيدة التي وجدتُها لتبرير برودتها هذه. فخلال الحرب، أرغم جدّي أنجلو أنتونيولي، وهو أحد فلّاحي بييمون، على الانخراط في فيلق الحملة العسكريّة الإيطاليّة. وفي الفترة الممتدّة بين صيف 1941 وشتاء 1943، نُشر مئتَان وثلاثون ألف جندي ممّن أتوا من شبه الجزيرة، على امتداد الجبهة الشرقيّة:

من أوديسّا إلى ضفاف الدون وصولًا إلى ستالينغراد. والواقع أنّ أكثر من نصف هؤلاء لم يعُد يومًا، بمن فيه أنجلو الذي أسره السوفيات بعد هجوم أوستروجويسك–روسوش. حُكم عليه بالنفي إلى أحد مُعتقلات الأسرى، لكنّه لفظ أنفاسه الأخيرة على طريق غولاغ. ذلك الشابّ السعيد المولود في شمال إيطاليا، وقع أسير صقيع السهوب الروسيّة، وضحيّة حرب ليست حربه. ثمّ أتت مأساة أخرى لتُضاف إلى مآسي عائلته: ظهر حملُ زوجته خلال غيابه ولم يستطع أحد تبرير ذلك الحمل إلّا بالزنى. ثمرة حبّ محرَّم بين جدّتي وعامل موسمي نمسوي، أبصرت والدتي النور في أجواء عابقة برائحة الفضيحة. وأمّا معموديّة النار الناعمة تلك، فقد وشمت والدتي بقوّة وبرودة قلّ مثيلهما. لطالما بدت لي عصيّة على الانفعال، كأنّ لا شيء قادر على التأثير فيها أو مسِّها من قريب أو من بعيد. أسلوب يتناقض كليًّا مع إحساسي المُرهَف.

– لماذا لم تخبريني بأنّكِ مريضة؟

أفلتَ السؤال منّي قبل أن أعي حتّى.

– وهل كان ذلك ليبدِّل شيئًا؟ سألتني.

– أردتُ أن أعرف ليس إلّا.

لم تكن يومًا جامدة وبعيدة منّي كما بَدَت اليوم. فحين نقّبتُ في ذكريات طفولتي، وجدتُ لحظات صادقة من التبادل والانسجام، خصوصًا حول الروايات والمسرحيّات. وأمّا هذا فلم يكن مجرّد مشهد أعاد تركيبه ذهني الجريح: كنت قد رأيتُ في ألبومات الصور القديمة وذلك حتّى سني مراهقتي، لقطات عدّة لها وهي تبتسم، سعيدة بأن أكون ابنها. من ثمّ، ساءت الأمور بيننا من دون أن أعرف السبب. مع ذلك، هي على تفاهم تامّ اليوم مع أخي وأختي، لكن ليس معي أو أقلّه، ليس بهذا القدر. الأمر الذي يجعلني أستمتع بفرادتي هذه، ولو بشيء من الخبث. ففي الأقلّ، لديّ أنا ما لا يملكه كلاهما.

– إذًا، شاركتَ في ذكرى الليسّيه الخمسين؟ لكن... لمَ ذهبتَ تهدر وقتَك هناك؟

– جميل أن أعاود الاجتماع برفاقي.

– لم يكن لديك أيّ رفيق يا توماس، بل كانت الكتب رفيقتك الوحيدة.

وتلك كانت الحقيقة بالطبع، لكنّها خَرَجت من فمها عنيفة وكئيبة.

– ماكسيم صديقي.

وقفت جامدة ترمقني من دون أن يرفّ لها جفن. وسط الهالة المتموِّجة التي رسمتها الشمس، بدا قوامها أشبه بتماثيل السيّدة العذراء الرخاميّة في الكنائس العتيقة.

– لِمَ عدتَ يا توماس؟ أردفَت. ليس لديك كتاب تروِّج له هذه الفترة.

– يمكنك التظاهر في الأقلّ بأنّك مسرورة لرؤيتي، لا؟

– وهل هذا ما تفعله أنت؟ تتظاهر؟

أفلتت منّي تنهيدة. كنّا ندور في حلقة مفرغة. فكلٌّ منّا قد راكَم ما يكفيه من الضغينة تجاه الآخر. بضع لحظات فحسب، كنتُ على قاب قوسين من رميها بالحقيقة الموجعة: قتلتُ شخصًا وطمرتُ جثّته في جدار جمنازيوم الليسّيه، وفي وسع الشرطة الإثنين المقبل رميي في زنزانة. لن تريني ثانيةً يا أمّي، إلّا بين شرطيّين أو خلف حاجز زجاجي في ردهة السجن.

ومع ذلك ما كنتُ لأفعل، مع أنّها لم تترك لي مجالًا في أيّ حال. لم تدعُني إلى اللحاق بها، بل أخذَت تنزل الدرجات المؤدّية إلى الطابق الأرضي. من الواضح أنّها نالت كفايتها اليوم، وأنا كذلك.

بقيتُ وحدي على التّراس المبلَّط بمربّعات فخّاريّة كبيرة. حينَ سمعتُ ضجيج أصوات غاضبة، دنوتُ من شرفة الحديد المطرَّق، التي غزاها النبات المتعرِّش. كان والدي في خضمّ نقاش مع أليكساندر، البستاني العجوز الذي كان قائمًا أيضًا على حوض السباحة. حوض سباحة كان يرشَح كما يبدو. فيما كان والدي مقتنعًا تمامًا بأنّ التسرُّب آتٍ من المصفاة، كان أليكساندر أكثر تشاؤمًا ويتحدّث عن وجوب حفر المرجة لإصلاح الأنبوب الذي يسبّب التسرّب.

– مرحبًا أبي.

رفع ريشار رأسه مومئًا لي سريعًا، كأنّنا تقابلنا البارحة. لم أنسَ أنّني أتيتُ لرؤيته هو شخصيًّا، ولكن في انتظار رحيل أليكساندر، قرّرتُ الدخول لإلقاء نظرة على العليّة.

.2

أو بالأحرى على المستودع. فما من عليّة في منزلنا، بل سرداب واسع، يمكن دخوله من الخارج، لم يُجهَّز يومًا، بل كنّا نستعمله مستودعًا للأغراض التي لا حاجة لها.

وفيما كانت كلّ غرفة من غرف المنزل مرتَّبة، منظّفة وملمَّعة ومفروشة بذوق، كان السرداب عبارة عن مساحة فيها فوضى عارمة، لا اسم لها، بل مجرَّد إنارة بائسة مرتجفة: ذاكرة فيلّا فيوليت المكبوتة. شققتُ دربي وسط الخردة وسقط المتاع. في القسم الأوّل من السرداب، طالعتني درّاجات كبيرة قديمة، وأخرى صغيرة، وأحذية تزحلُق عائدة إلى أولاد أختي على الأرجح. وجانب صندوق عدّة، وقعتُ على درّاجتي الموبيليت العتيقة. فوالدي الذي كان شغوفًا بفنّ الميكانيك لم يتمالك نفسه، فأعاد تصليح الدرّاجة العتيقة المزوَّدة بمحرِّك. هيكل مكشوط، طلاء جميل برّاق، عمليّة تحديث

للأطر ذات القضبان، عجلات جديدة: كانت الـ103MVL قد استعادت هيبتها، بل وراحت تلمع متألِّقة مزهوّة. حتّى أنّ ريشار أعاد تزيينها بملصقات بيجو الأصليّة! على مقربة منها، تكوَّمت الألعاب، حقائب السفر وصناديق الأمتعة، والملابس كيفما اتّفق. الواقع أنّ والديّ لم يتردَّدا يومًا في تبذير المال على الألبسة والموضة. أبعد بقليل، تكدّست أطنان من الكتب تنتظر أن يفتقدها الغبار ويطمرها. تلك التي نستمتع بقراءتها بيد أنّها ليست أدبيّة ما يكفي لتليق بخشب الجوز الفاخر الذي يكسو رفوف مكتبة الصالون. روايات بوليسيّة أو شاعريّة كانت أمّي تطالعها بنهم شديد، وثائق وأبحاث لا ترتقي إلى المستوى الفكري، بيد أنّ أبي كان مولعًا بها. بعدما ارتديا أغلفة الجلد الخاصّة بكوكبة الشعراء والمشاهير من الكتّاب، قد نال سان-جون بيرس ومالرو، شرف الظهور في الطابق العلوي، فيما مكث دان براون و«فيفتي شايدز» وسط غبار المهملات، حيث «كواليس الحياة» الحقيقيّة.

وجدتُ ضالّتي في تجويفة الجدار الأخيرة: صندوقين من الكرتون على طاولة بينغ-بونغ، من مخلّفات عمليّة انتقالي، مليئين حتّى الشفّة بالحنين، ويحملان اسمي بالخطّ العريض. في غضون رحلتين وجيزتين ذهابًا وإيابًا، صعدتُ بالصندوقين إلى الطابق الأوّل، وأخذتُ أفرغ محتوياتهما لأنتقي منها ما يحلو لي.

وضعتُ على طاولة المطبخ كلّ ما يتّصل من قريب أو بعيد بالعام 1992، وقد يفيدني في تحقيقي. حقيبة ظهر إيستباك بلون أزرق فيروزي أصابت خربشات التيب-أكس منها مقتلًا، إضبارات ماركة بوافر بلان أو شيفينيون، محشوّة بملاحظات مدرسيّة دوِّنت على ورق سييس ذات مربّعات. ودفاتر علامات تشهد على التلميذ المثالي والمطيع الذي كنتُه: «سلوك منفتح وإيجابي جدًّا في

الصفّ»، «تلميذ لطيف ومحبوب وطموح جـدًّا»، «مشاركة فعّالة وصائبة على الدوام»، «سريع البديهة».

أغرقتُ في بعض الفروض التي انطبعت في نفسي: تحليل نصّ شخصي حول «لو دورمور دو فال» وآخر حول مقدّمة «بيل دو سينيور». حتّى أنّني وجدت أوراقًا عدّة من امتحانات مادّة الفلسفة، منقَّحة بقلم ألكسيس كليمان، حين كان أستاذي في الصفّ الثانوي الثالث. «قدرات تحليليّة مثيرة للاهتمام. 20/14» على بحث فلسفي «هل يمكن الفنّ أن يستغني عن القواعد؟»، ومن ثمّ على فرض آخر «هل من الممكن أن نفهم الشغف؟» – برنامج كامل بحدّ ذاته... – حتّى أنّ الأستاذ قد أسهب في إطرائه: «بحث رفيع النوعيّة، على الرغم من بعض الهفوات. براعة في مُعالجة المفاهيم وأمثلة تُظهِر ثقافة أدبيّة وفلسفيّة حقيقيّة 20/16».

وبين كنوز الصندوق الآخر، صورة لمجموع التلاميذ في الصفّ الثانوي الثالث، إلى جانب مجموعة من الأشرطة المُسجَّلة المنوَّعة التي أعددتُها لحظة بلحظة من أجل فينكا، لكنّني لسبب ما، لم أجد الجرأة لأرسلها إليها. فتحتُ علبة أحد الأشرطة عشوائيًا، وسرعان ما تذكّرتُ لائحة عناوين شريط حياتي. فتوماس دوغاليه في تلك الفترة كان مجبولًا بكلمات الأغاني والموسيقى. كان لا يزال فتى غير الفتيان، لطيفًا، غريبًا بعض الشيء عن عصره، لا يتأثّر بالموضة، يعيش في تناغم كامل مع مشاعره العميقة: سامسون فرنسوا يعزف شوبان، جان فيرّا يغنّي «لي زيود يلسا»، ليو فيرّي يؤدّي «أون سيزون أن أنفير». لكن أيضًا «مووندانس» لفان موريسون و«لوف كيلز»[1] لفريدي مركوري، كأنّ كلماتها تتنبّأ بمصيري...

1 الحبّ يقتل.

وجـدتُ كتبًا كـذلك. كتب جَيب بصفحات باهتة مُصفرَّة رافقتني آنذاك. عناوين دأبتُ على ذكرها في مقابلاتي، وأنا أؤكّد: «لقد أدركتُ منذ نعومة أظافري أنّني بوجود الكتب، لن أكون وحيدًا يومًا».

لو كان الأمر بهذه البساطة...

بيـد أنّ أحـد الكتـب لـم يكـن ملكـي. ديـوان شعـر مارينـا تسفيتاييفا، إهداء ألكسيس، والذي انتشلتُه من غرفة فينكا في اليوم الذي تلى الجريمة.

إلى فينكا،
كم أودّ أن أكون روحًا من دون جسد فلا أنفصل عنك أبدًا.
أن أحبّكِ يعني أن أحيا.

ألكسيس

أفلتت منّي ضحكة شرّيرة. فقد خدعني الإهداء آنـذاك. أمّا اليوم فأعرف تمامًا أنّ ذاك النذل القذر سرق الكلمات من فم فيكتور هوغو، في رسالته الشهيرة إلى جولييت درويه. غشّاش منافِق حتّى آخر رمق.

– إذًا يا توماس، ما الذي تفعله هنا؟

استدرتُ... لأرى والدي يدخل المطبخ ومقصّ الجزّ في يده.

حين نذكُر المُنافِق...

.3

مع أنّ أبي لم يكُن عاطفيًّا، إلّا أنّه كان يهوى اللمس ولا يبخل بالعناق والقبلات. لكن، عندما شرع يعانقني، كنتُ أنا مَن رغب هذه المرّة في التراجع خطوة إلى الوراء.

– وكيف تمضي الحياة في نيويورك؟ هل تقسو كثيرًا على ترامب؟ سأل وهو يغسل يديه بتأنٍّ وعناية تحت سيل مياه الصنبور.

– هل يمكننا الذهاب إلى مكتبك؟ أجبتُه متجاهلًا سؤاله. أودّ أن أريك شيئًا.

فقد كانت أمّي تحوم في الأرجاء، ولم أشأ إقحامها في المسألة الآن. ليس بعد.

جفّف ريشار يديه وهو يغمغم ويلوم طريقتي في اقتحام البيت وحركاتي المتكتِّمة كأنّني أحمل سرّ الأسرار، ثمّ قادني إلى جُحره في الطابق العلوي: مكتب كناية عن مكتبة كبيرة، يذكِّر بصالات التدخين الإنكليزيّة، بكنبته تشسترفيلد، وتماثيله الأفريقيّة الصغيرة إضافة إلى مجموعة بنادق صيد عتيقة. بفضل نافذتَيه العريضتين، كان المكتب يُطلّ على أجمل المناظر، مقارنةً بغرف البيت الأخرى.

عند دخولي، ناولته هاتفي وشاشته لا تزال مفتوحة على مقالة نيس-ماتان التي تروي وقائع اكتشاف حقيبة المئة ألف فرنك.

– هل سبق أن قرأتَ هذه المقالة؟

أمسك ريشار نظّارته وألقى من خلال عدستها نظرة سريعة على الشاشة، من دون أن يركِّزها على عينيه حتّى، ثمّ وضعها جانبًا.

– نعم، قصّة غير معقولة.

انتصب أمام إحدى النافذتين، مكتوف اليدين، وبحركة من ذقنه أشار إلى الأضواء الكاشفة التي كانت تُحيط بحوض السباحة.

– تلك السناجب الآسيويّة اللعينة قد غزتنا حقًّا. التهمَت أسلاك التجهيزات الكهربائيّة، هل تتصوَّر؟

أعدتُه إلى المقالة:

– لا بدّ من أنّ شخصًا دسّ المال... تقريبًا في الفترة التي كنتَ تعمل فيها هناك، أليس كذلك؟

– ربّما، لستُ أدري، قالها مكشِّرًا، من دون أن يلتفت صوبي. أرأيتَ كيف اضطررنا إلى قطع إحدى أشجار النخيل؟ آفة السوسة الحمراء.

– هل تعرف صاحب تلك الحقيبة؟

– أيّ حقيبة؟

– التي وُجِد المال فيها.

اغتاظ فجأةً:

– وكيف لي أن أعرف؟ ولماذا أتيتَ تزعجني بهذه القصّة؟

– عثرت الشرطة على بصمتين، وفق ما أخبرني أحد الصحافيّين. واحدة منهما عائدة إلى فينكا روكويل. هل تذكرها؟

عند ذكر فينكا، استدار ريشار صوبي، ثمّ جلس على كرسي من الجلد المتفسِّخ.

– بلى، بالطبع، الصبيّة التي اختفت. كانت... نضرة كالوردة.

زمَّ عينيه ولدهشتي الكبرى، رأيتُ أستاذ الفرنسيّة السابق وقد عاد ليتلو شعر فرنسوا ماليرب:

... ولكنّها كانت من العالم، حيث الأجمل لا يلقى إلّا المصير الأبشع، ووردة كانت، عاشت كلّ ما تعيشه الورود، في ومضة صبح أينَع...

مرّت بضع ثوانٍ، ومن ثم، أعادني هو إلى صلب الموضوع:

– قلتَ بصمتين، صحيح؟

– ما زالت الشرطة تجهل هويّة صاحب البصمة الأخرى، لأنّها غير موجودة في السجلّات. ولكن يا أبي، أقطع ذراعي إن لم تكن تلك بصمتك.

– وما صلة هذا بذاك؟ سألني مذهولًا.

جلستُ قبالته ورحتُ أريه مقتطفات ممّا عرضته شبكات التواصل الاجتماعي التي أرسل بيانيلي عناوينها إليّ.

– هل تذكر هذه الحقيبة؟ لطالما حملتَها حين كنّا نذهب أنا وأنت لنلعب كرة المضرب. فقد كنتَ تهوى جلدها الليّن ولمعتها الخضراء الداكنة الضاربة إلى الأسود.

احتاج إلى نظّارته مجدّدًا ليلقي نظرة على هاتفي.

– لا أستطيع تمييز الكثير. شاشة هاتفكَ صغيرة جدًّا!

خطف جهاز التحكُّم الموضوع على الطاولة الخفيضة أمامه، ليشغّل التلفزيون، كأنَّ حديثنا انتهى. تنقّل بين القنوات الرياضيّة، ثمّ توقّف هنيهة عند عرض مُعاد لسباق الدرّاجات في إيطاليا، لينتقل سريعًا إلى نصف نهائي دورة مدريد في كرة المضرب، حيث كان نادال يواجه منافسه دجوكوفيتش.

– اشتقنا إلى فيديرير.

لكنّني لم أذعن، فتابعتُ:

– أودّ أن تلقي نظرة على هذه أيضًا. لا تقلق، هي لقطات مكبَّرة.

أعطيتُه الظرف الأسمر. فأخرج منه الصور، وراح يتفحّصها وهو يتابع مباراة كرة المضرب بين الفينة والأخرى. ظننته قد يضطرب أو يتأثّر، بيد أنّه اكتفى بهزّ رأسه وهو يتنهَّد:

– مَن أعطاك إيّاها؟

– لا يهمّ! قُل لي معنى ذلك!

– رأيتَ الصور. هل تريدني أن أشرحها لك برسم بياني أيضًا؟

ثمّ رفع صوت التلفزيون، لكنّني انتزعت جهاز التحكّم من يده وأطفأته.

– وهل تظنّ أنّك ستفلت بسهولة من المسألة؟!

تنهّد ثانيةً، وراح يبحث في جيب سترته عن ذلك السيجار نصف المُستَهلَك الذي يحمله دومًا معه.

– حسنًا، لقد وقعتُ في الفخّ، أقرّ وهو يُدير السيجار الهافاني بين يديه. تلك القذرة الصغيرة ما انفكّت تتملّقني. لقد أغوتني فأذعنتُ لسحرها. ثمّ أخذت تبتزّني. وقد تحامقتُ ما يكفي لأعطيها مئة ألف فرنك آنذاك!

– ولكن، كيف استطعتَ أن تفعل ذلك؟

– أن أفعل ماذا؟ كانت في التاسعة عشرة. تُغازل كلّ مَن تُصادفه. لم أرغمها. هي مَن ارتمت في أحضاني!

وقفتُ ورفعتُ إصبعًا نحوه مهدِّدًا:

– كنت تعرف أنّها صديقتي!

– وهل يغيّر هذا شيئًا في الأمر؟ ردَّ على الفور. في أوضاع كهذه، كلّ واحد مسؤول عن نفسه. وصدقًا؟ أنتَ لم تخسَر الكثير. ففينكا كانت مجرَّد مُشاغِبة مزعجة وصفقة سيّئة. لم تكن تسعى إلّا خلف المال.

ما عدتُ أدري ما الذي أمقته الأكثر فيه، عجرفته أم رداءته.

– ولكن، هل تعي حقًّا ما تقول؟

قهقه ريشار. لم يبدُ مضطربًا أو متزعزعًا أو حتّى منزعجًا. أدركتُ أنّ جزءًا منه كان يستمتع بالنقاش هذا. صورة الوالد الذي يُثبت سطوته على ابنه عبر إيلامه وتحقيره، وإنّما كانت تروقه.

– أنتَ شنيع. تقزّزني حقًّا.

أخيرًا، استفزّته إهاناتي. قام عن كرسيّه بدوره وتقدّم نحوي ليصبح على مسافة سنتيمترات من وجهي.

– أنتَ لم تعرفها يومًا! هي العدوّ، هي مَن كان يهدِّد بتدمير عائلتنا!

وأشار إلى الصور المبعثرة على الطاولة.

– تصوَّر ما كان سيحدث لو أنّ أمّك أو أحد أهالي التلاميذ عثر على هذه! أنتَ... أنتَ تعيش في عالمك الأدبي والرومانسي، لكنّ الحياة الحقيقيّة لا تمتّ بصلة إلى ذلك. الحياة كلّها عنف.

كم رغبتُ في لكم وجهه لأريه كيف تكون الحياة العنيفة، لكنّ ذلك لن يجدي نفعًا. كما أنّني ما زلتُ في حاجة إليه ليزوّدني بمزيد من المعلومات.

– إذًا، وهبتَ فينكا كلّ ذلك المال، قلت وأنا أحاول تخفيف حدّة نبرتي. وما الذي حصل بعد ذلك؟

– ما يحصل عادةً مع المبتزّين: طالبَت بالمزيد ولم أذعن.

زمّ عينيه، كأنّه يستدعي ذكرياته، ولم ينفكّ يتلاعب بسيجاره.

– حين ظهرت في المرّة الأخيرة، كانت عشيّة عطلة عيد الميلاد. حتّى أنّها عرّجت عليّ ومعها اختبار حمل لمزيد من الضغوطات.

– إذًا، كانت تحمل ولدك في أحشائها!

استنفر مغتاظًا:

– بالطبع لا! مكتبة t.me/ktabrwaya

– وكيف لك أن تعلم؟

– لم يكن مطابقًا لرزنامتها الشهريّة.

كم كان شرحه فاشلًا، كأنّه مُلمّ بهذه الأمور! في أيّ حال، لطالما راكم الأكاذيب جهارًا وبكلّ وقاحة. والأسوأ، بل والأخطر، أنّه ينتهي بعد فترة بتصديق تلك الأكاذيب!

– إذا لم يكن ولدك، فولد مَن إذًا؟

أتى جوابه كأمر بدهي:

– طبعًا ولد ذلك الأحمق الذي كان يعاشرها خفية كما أعتقد. ما كان اسمه، الفيلسوف السفيه؟

– ألكسيس كليمان.

– أجل تمامًا، كليمان.

طرحتُ السؤال التالي بلهجة شبه وقور.

– هل تعرف أيّ شيء آخر حول اختفاء فينكا روكويل؟

– وماذا تريدني أن أعرف؟ لستَ تظنّ أنّني متورِّط في تلك المسألة أيضًا؟ عندما اختفت، كنتُ في البيت مع أخيك وأختك.

حجّته هذه لا تُدحض وقد صدّقته في هذا الشأن.

– وفي رأيك، لماذا لم تأخذ المئة ألف فرنك معها حين اختفت؟

– لا أعرف ولا يهمّني أن أعرف.

كان قد أشعل سيجاره مجدّدًا وسرعان ما فاحت منه رائحة حادّة. ثمّ استعاد جهاز التحكّم منّي. رفع درجة الصوت. دجوكو يكابد قبالة نادال. كان المايوركي في الطليعة بنتيجة 6–2، و6–4 ويتهيّأ لتسديدة تمكّنه من بلوغ النهائيّات.

استحال الجوّ خانقًا. كنتُ على عجلة من أمري لأغادر المكان، لكنّ ريشار أبى أن يفلتني قبل أن يملي عليّ درسًا آخر في الحياة:

– حان الوقت ليقسو قلبك يا توماس. لتفهم أنّ الوجود حرب ضروس مستمرّة. أنتَ الذي يهوى الكتب، أنصحكَ بقراءة رومان رولان من جديد: «وإنّما الوجود برمّته صراع. والحياة نصر يدوم».

10

فأس الأحقاد

أيّ أحد قادر على القتل، فهي مسألة ظروف
ولا صلة لها بالطبع.
أيّ أحد وفي أيّ وقت كان.
حتّى جدّتكم. أنا واثقة في ذلك.

باتريسيا هايسميث

.1

في الواقع، أشعرني هذا الحديث بالغثيان، ولم أحصل على أيّ معلومة جديدة. وحين عدتُ إلى المطبخ كانت أمّي قد أزاحت صناديقي وتموضَعت أمام فرنها.

سأعدّ لك فطيرة بالمشمش، أما زلتَ تحبّها؟

تلك ميزة لم أفهمها يومًا، لكنّها أحد المكوِّنات الأساسيّة في شخصيّتها. تلك القدرة على الانتقال من تأييد أمر ما إلى انتقاد الأمر عينه في أيّ لحظة. في بعض الأحيان، كانت أنابيل تتخلّى عن حذرها فيتحرَّر شيء ما في داخلها. عندذاك، تعود ناعمة ورقيقة، ليّنة متفهِّمة، وبكلمة واحدة؟ تعود إلى جذورها المتوسّطيّة، كأنّ توسكانا

تتغلّب فجأةً على النمسا. في تلك اللحظات، كان يلتمع في عينيها ما يشبه طيف الحبّ. بقيتُ زمنًا رهنَ تلك الشرارة المتّقدة، بل كنتُ أترصّدها، أتربَّص بها، أستجديها، ظنًّا منّي أنّها ستكون بوادر عواطف لاهبة، بيد أنّ الشرارة لم ترتقِ يومًا إلى مستوى الشعلة. ومع مرور الزمن، تعلَّمتُ ألّا أقع في مصيدتها. أجبتُها باقتضاب:

– لا داعي لهذا العناء يا أمّي.

– بلى طبعًا يا توماس، فهذا يسعدني.

تسمّرت نظراتي في عينيها تسألهما: «لماذا تفعلين هذا بي؟».

كانت قد فكَّت شعرها المعقوص، فبانت خصلاته شقراء كالرمل الملوَّح الدافئ الذي يفترش شواطئ أنتيب، فيما تلألأت تموُّجات الزمرّد الريحاني، صافية شفّافة في عينيها. «لماذا تفعلين هذا بي؟»، ألحّت نظراتي من جديد. بيد أنّ نظرتها اليوم، نظرة الأيّام المميّزة، ظهرت ساحرة بقدر ما هي غامضة. حتّى أنّ والدتي الغريبة عنّي، سمحَت لنفسها برسم ابتسامة. رحتُ أتفحّصها وهي تُخرج الطحين وقالبًا لصنع الفطائر من الخزانة. لم تكن أنابيل من اللواتي يسمح الرجل لنفسه بمغازلتهنّ، بل كلّ ما فيها كان يهدِّد مَن يجرؤ على الدنوّ منها بالويل والثبور. كأنّها تعيش في عالم آخر، أو على كوكب ثانٍ، صعب المَنال. حتّى أنا وفيما كنتُ أكبر في كنفها، وجدتها متكلِّفة جدًّا مقارنةً بالحياة البسيطة المتواضعة التي كنّا نعيشها، ولامعة جدًّا لتُشارك حياتها رجلًا عاديًّا كريشار دوغاليه. كأنّ مكانتها ما كانت بيننا، بل بين النجوم.

أجفلني جرس البوّابة.

– إنّه ماكسيم! قالت أنابيل في عجل، وهي تضغط الزرّ لتفتح له.

تُرى ما مصدر هذه النبرة الفرحة المفاجئة؟ اندفَعَت إلى ملاقاة صديقي فيما خرجتُ أنا إلى الترّاس. وضعتُ نظّارتي الشمسيّة في الوقت المناسب لأرى سيّارة سيتروين نبيذيّة اللون تجتاز البوّابة الأوتوماتيكيّة. تتبّعَت نظراتي السيّارة العائليّة وهي تعبر الممرّ الإسمنتي لتتوقّف خلف رودستر أمّي. وعندما انفتحت الأبواب، تبيّنتُ أنّ ماكسيم قد جلب ابنتيه. هما سمراوان منمنمتان، غاية في الظرف واللطف، وعلى معرفة تامّة بأمّي في ما يبدو، نظرًا إلى أذرعتهما الممتدّتين بلهفة وعفويّة صوبها. وجب على ماكسيم المرور بمخفر الشرطة تلبيةً لاستدعاء فينسان ديبروين غير الرسمي. إذًا، إذا كان قد عاد في وقت قصير وبرفقة ابنتيه، فهذا يعني أنّ المقابلة كانت على ما يرام. حين ترجّل من السيّارة، حاولتُ قراءة ملامحه. وفيما كنتُ ألوِّح لهم بيدي مرحّبًا، رجّ الهاتف في جيبي. ألقيت نظرة خاطفة على الشاشة. رافاييل بارتوليتي، «مصوِّري المُعتمَد».

– مرحبًا رافا، قلتُ له وأنا أفتح الخطّ.

– مرحبًا توماس. أتّصل بك من جديد في شأن صورة صديقتك فينكا.

– كنتُ أعلم أنّها ستُعجبك.

– بل وحيّرتني إلى حدّ أنّني طلبتُ من معاوني أن يكبِّرها.

– و...؟

– وعندما تفحّصتها، فهمتُ ما كان يربكني.

شعرتُ بتنميل في بطني.

– هيّا قل.

– أنا شبه واثق في أنّها لم تكن تبتسم لمراقصها. ليس هو مَن تنظر إليه.

– وكيف ذلك؟ إلى مَن تنظر إذًا؟

– شخص آخر يقف على بُعد ستّة أو سبعة أمتار قبالتها، إلى اليسار. وفي رأيي، فينكا لا ترقص مع الرجل حتّى، بل هي مجرَّد خدعة بصريّة.

– هل تريد القول أنّ الصورة مركَّبة؟

– لا قطعًا، لكن، أعد تعديلها. صدّقني، ابتسامات الصبيّة موجّهة إلى شخص آخر.

شخص آخر...

لم أكن لأصدِّق، لكنّني شكرتُ رافاييل ووعدتُه بإبقائه على علم بكل جديد. وإرضاءً لضميري، راسلت بيانيلي لأعرف ما إذا كان تلقّى جوابًا من كلود أنجوفين، رئيس تحرير الجريدة سابقًا، والذي لا بدّ أنّه يعرف صاحب تلك الصورة الشهيرة.

ثمّ نزلتُ الدرج لأوافي أمّي، وماكسيم وابنتيه في الحديقة. وسرعان ما لاحظتُ الملفّ السميك الذي كان يتأبّطه، فوجّهتُ نظرات متسائلة إليه.

– أحدّثك بالأمر لاحقًا، همس لي وهو يسحب من مقعد السيّارة الخلفي كيسًا يظهر منه رأس كلب-دمية زغبي وعنق زرافة مطّاطيّة.

عرّفني بابنتيه، بوتقتين صغيرتين من الحركة والنشاط، ترافقهما ابتسامة مشرقة. بضع دقائق ليس إلّا، أنسانا مرحهما وإيماءاتهما المُضحكة، همومنا ومشكلاتنا. كانت إيمّا ولويز لطيفتين ومرحتين ولا تُمكن مقاومتهما. نظرًا إلى سلوك أمّي – وحتّى أبي الذي انضمّ إلينا – أدركتُ أنّ ماكسيم من المعارف المقرَّبين في هذا البيت. كان من الصعب أن أتصوّر والديّ في دور الجدّين، قلت في نفسي أنّ ماكسيم قد حلّ محلّي في شكل أو في آخر، ذلك المحلّ الذي تركتُه شاغرًا لدى رحيلي. مع ذلك، لم أشعر بأيّ مرارة، بل بالعكس، فقد

باتت مسؤوليّة حمايته من مضارّ ماضينا، تلك المسؤوليّة التي أخذتُها على عاتقي راضيًا، واجبًا، بل واجبًا مُلحًّا.

بعد مضيّ ربع ساعة، رافقت أمّي الفتاتين إلى المطبخ لتساعداها في تحضير فطيرة المشمش – التي يكمن سرّ وصفتها في بذور اللافندر المرشوشة على الثمار – فيما صعد ريشار إلى صومعته مجدّدًا ليتابع اختتام سباق الدرّاجات.

– حسنًا، قلتُ لماكسيم. والآن، إلى الاجتماع الطارئ.

.2

كان المكان الذي يروقني الأكثر في فيلّا فيوليت، تلك الشقّة الصغيرة التي أوصى والداي ببنائها من الحجر والخشب الفاتح عند وصولهما إلى المنزل. كأنّها بيت ضمن البيت الأساسي، بمطبخها الخارجي، وصالونها الصيفي، وستائرها التي تلوح كلّما هبّت الرياح. كنتُ أهوى هذا المكان، لقد أمضيتُ فيه آلاف الساعات وأنا أقرأ، متكوّمًا على كنبة من القماش الخام.

تموضعتُ عند طرف طاولة التيك، تحت عريشة ظليلة تتسلّقها غُصينات كرمة طبيعيّة. وجلس ماكسيم إلى يميني.

من دون لفّ أو دوران، أطلعتُه على ما باحت به فاني: في أيّامه الأخيرة، كان أحمد في حاجة ماسّة إلى إراحة ضميره. بالتالي، اعترف رئيس الورشة إلى صديقتنا بأنّه دفن جثّة كليمان في جدار الجمنازيوم، بناءً على أوامر فرنسيس. ولئن أسرّ بذلك إلى فاني، فربّما أفصح عنه لسواها. بالنسبة إلينا، لم يكن ذلك بالخبر السارّ، ولكنّه ساهم في الأقلّ في إخراجنا من نفق الشكّ وقد كشفنا هويّة الخائن... أو بالأحرى هويّة ذاك الشخص الذي سمح بعودة طيف الماضي ليحوم فوق رؤوسنا، هكذا من دون سابق إنذار.

– مات أحمد في نوفمبر. وفي حال تحدّث إلى الشرطة، فقد توفّر لها الوقت الكافي للتنقيب في جدران الجمنازيوم كلّها، علّق ماكسيم.

صحيح أنّ ملامحه لا تزال تشي بالقلق، لكنّني وجدتُه أقلّ إحباطًا ممّا كان عليه في الصباح، وقد عاد سيّد نفسه.

– موافِق. لا بدّ من أنّه روى قصّته لأحدهم، ولكن ليس للشرطة. وماذا عنكَ؟ هل مررتَ بالمخفر؟

مرّر أصابع متململة على مؤخّر عنقه، نافشًا شعره.

– نعم، قابلتُ المُفوَّض ديبروين. كنتَ محقًّا: ما كان ينوي استجوابي في شأن ألكسيس كليمان.

– عمَّ يبحث إذًا؟

– كان يريد التحدُّث عن وفاة أبي.

– وماذا أراد أن يقول؟

– سأشرح لك، لكن قبل ذلك، عليكَ قراءة هذا.

ووضع الملفّ الذي كان يحمله أمامي.

– مقابلتي مع ديبروين جعلتني أتساءل عن أمر معيّن: ماذا لو كانت وفاة أبي مربوطة بمقتل ألكسيس كليمان؟

– مهلًا! ما عدتُ أفهم شيئًا.

أوضح ماكسيم فكرته:

– أظنّ أنّ والدي قُتل على يد الشخص الذي يبعث لنا بتلك الرسائل.

– لكنّك قلتَ لي هذا الصباح أنّ فرنسيس مات بسبب عمليّة نهب انتهَت في شكل مأسوي!

– أجل، أعرف، لكنّني استخففتُ بالحادثة، حسنًا بكلمة واحدة، وفي ضوء ما عرفته من الشرطة، بدأت الشكوك تساورني.

بحركة خاطفة من يده، أومأ لي لأفتح الملفّ.

– اقرأ هذا، ونتحاور بعد ذلك. سأعدّ القهوة، تريد فنجانًا؟

هززتُ رأسي إيجابًا. نهض متّجهًا صوب تجويفة جدار فيها آلة إسبريسّو ومجموعة من فناجين القهوة.

انكببتُ على قراءة الملفّ: كان يحتوي على قُصاصات جرائد عدّة تتعلّق بموجة السرقات وعمليّات السطو التي اجتاحت كوت دازور في أواخر العام الماضي ومطلع العام 2017. حوالى خمسين عمليّة سرقة طاولت جميع الأماكن الراقية في الألب-ماريتيم، مِن سان-بول-دو-فانس وصولًا إلى موجين مرورًا بمقار مدينة كان الفخمة أو منازل نيس النائية.

وأمّا طريقة التنفيذ فكانت هي عينها في كلّ مرّة: يقتحم أربعة أو خمسة أشخاص مُقنَّعين المنازل، وهُم يرشّون الغاز المسيِّل للدموع في وجوه سكّانها، قبل أن يقيّدوهم ويحتجزوهم. والعصابات تلك مسلَّحة، عنيفة وخطيرة جدًّا، وتستهدف أوّلًا المال والمجوهرات. وغالبًا ما لم يتوانَ المجرمون عن تعنيف ضحاياهم جسديًّا، للحصول على رموز بطاقات الاعتماد أو أرقام الخزنات.

وقد بثّت عمليّات النهب هذه الهلع في المنطقة، وتسبّبت في وفاة شخصين: خادمة منزل ماتت بسكتة قلبيّة خلال عمليّة الاقتحام، وفرنسيس بيانكارديني. فأوريليا بارك وحده، مقرّ سكن والد ماكسيم، قد تعرّض لثلاث سرقات متتالية. وهذا ما لا يُعقَل في منطقة يُفترض أنّها الأكثر أمانًا في الساحل. بين الضحايا، أحد أنسباء السلالة الملكيّة السعوديّة وواحد من كبار أرباب العمل الفرنسيّين من هُواة جمع التحف الفنيّة، نصير الأدباء والفنّ، ومقرَّب من السلطة. لم يكن الأخير في منزله لحظة الاقتحام، لكنّ المقنَّعين الذين لم يعثروا على

مقتنيات قابلة للبيع في الفيلّا، انتقموا شرّ انتقام فعاثوا تخريبًا في اللوحات المعلّقة على جدران الصالون.

وإنّما ما كانوا يجهلونه هو أنّهم حطّموا بينها، لوحة قيّمة، بل ومن أثمنها لوحة بالعنوان «انبشوا الفأس»، بريشة شون لورنز، أحد كبار الرسّامين المعاصرين والأكثر شهرة في سوق الفنون. وأمّا خبر تحطيمها فقد سبّب بلبلة شديدة تردّدت أصداؤها حتّى في الولايات المتّحدة. كانت صحيفة «نيويورك تايمز» وقناة «سي أن أن» قد ذكرتا عمليّة السطو فبات اسم أوريليا بارك الذي طالما جسّد نخبة العقارات الفخمة في كوت دازور، أشبه حاليًّا بمنطقة مقفلة وخطرة أمنيًّا. في غضون ستّة أشهر، هبط سعر العقارات في شكل جنوني بلغ حدّ الثلاثين في المئة. أخيرًا، ولوضع حدّ لنوبة الهلع المُستشرية، شكّلت قوى الأمن المحليّة فريقًا متخصّصًا بمطاردة عصابات النهب.

ومنذ ذلك الحين، تسارع سير التحقيق: استخراج عيّنات من الحمض النووي، تنصُّت على المكالمات الهاتفيّة، ومراقبة مشدّدة على نطاق واسع. مع حلول شهر فبراير، نفّذت الشرطة مع ساعات الفجر الأولى، عمليّة دهم طاولت إحدى القرى عند الحدود الإيطاليّة. فقد استدعَت عشرات الرجال من جذور مقدونيّة، بعضهم في وضع غير شرعي وبعضهم الآخر معروف بارتكاب سرقات شبيهة. كما فتّشت بيوتًا عدّة، حيث عثرت على مجوهرات، وأموال، ومسدَّسات وأسلحة يد، وذخائر، ومعدّات معلوماتيّة وأوراق ثبوتيّة مزوَّرة. وقد عثرت كذلك على الأقنعة والسكاكين وعلى قسم من المسروقات. وبعد خمسة أسابيع، نجحت في القبض على الرأس المدبِّر الذي كان مختبئًا في أحد فنادق درانسي. كان أيضًا القائم على المسروقات وقد أعاد بيع معظمها إلى بلدان الشرق. بعدما أُلقي القبض على باقي أفراد العصابة في نيس، خضعوا للاستجواب ثمّ سُجنوا في انتظار

محاكمتهم. وقد اعترف بعضهم بارتكاباتهم ما خلا عمليّة السرقة في منزل فرنسيس. الأمر الذي لا يثير العجب، بما أنّهم يواجهون عقوبة السجن عشرين سنة، في حال أعيد إدراج التُهم في خانة جرائم القتل المتعمَّدة.

.3

اعترتني القشعريرة، وأنا أقلّب صفحات الملفّ، فيما تملّكني مزيج من الذعر والحماسة. كانت الأوراق التي تَلَت مُخصَّصة حصرًا لعمليّات السرقة والاعتداء على فرنسيس بيانكارديني. فوالد ماكسيم لم يُعنَّف فحسب، بل وعُذِّب وأوسع ضربًا. ذكرت مقالات وجهه المتورِّم المُدمَّى، وجسمه المغطّى بالندوب الشنيعة، ومعصميه المشقوقين بفعل الأصفاد. الآن أدركُ أكثر ما يرمي ماكسيم إليه. ارتسم سيناريو مُحكَم في ذهني: لقد أسرّ أحمد إلى أحدهم، وهذا الأخير طارد فرنسيس قبل تعذيبه حتّى الموت. وذلك، بلا شكّ، حمله على الاعتراف بشيء ما. ولكن ماذا؟ مسؤوليّته في مسألة موت كليمان؟ أم ربّما مسؤوليّتنا نحن؟

استأنفتُ القراءة. يبدو أنّ أنجيليك غيبال، إحدى الصحافيّات في «الأوبسرفاتور»، قد استطاعت الوصول إلى تقرير الشرطة. كانت مقالتها تدور في معظمها حول تحطيم لوحة شون لورنز، لكنّ الصحافيّة ذكرت أيضًا عمليّات السرقة الأخرى التي طاولت أوريليا بارك. بحسب قولها، كان فرنسيس لا يزال حيًّا بعد رحيل المُعتدين. وفي اختتام المقالة، لمَحت إلى نقاط تشابه مع قضيّة عمر ردّاد، مؤكِّدةً أنّ بيانكارديني جرّ نفسه حتّى النافذة، وحاول أن يكتب بدمه شيئًا ما على زجاجها، كأنّه كان على معرفة بالذين اعتدوا عليه.

مقالتها هذه جمّدت الدم في عروقي. لطالما أحببتُ فرنسيس، حتّى قبل أن يفعل ما فعله من أجلنا في حادثة مقتل كليمان. كان لطيفًا معي على الدوام ومتفهِّمًا. استبدّ بي الرعب والقرف عند التفكير في مُجريات لحظاته الأخيرة.

رفعتُ رأسي عن الوثائق.

– وماذا سرقوا من فرنسيس أثناء عمليّة الاقتحام؟

– غرضًا واحدًا: مجموعة ساعاته، لكن بحسب شركة التأمين، كانت تساوي ما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف يورو.

تذكّرتُ شغفه ذاك. ففرنسيس كان يهوى الماركة السويسريّة «باتيك فيليب». كان يملك حوالى عشر منها، ويحافظ عليها كحدقة عينه. لطالما استمتع باستعراضها أمامي، أيّام مراهقتي، فيما عكف على سرد تاريخ كلّ واحدة منها بحماسة غريبة. حماسة غالبًا ما انتقلت عدواها إليّ. رحتُ أتذكّر ساعاته كلّها: الكالاترافا، والغراند كومبليكاسيون، والنوتيلوس من تصميم جيرالد جينتا.

بيد أنّ سؤالًا كان يُسقمني منذ الصباح.

– متى انتقل والدك إلى أوريليا بارك؟ ظننته مقيمًا هنا كما في السابق، في المنزل المجاور.

بدا ماكسيم منزعجًا بعض الشيء:

– بل كان يتنقّل بين الاثنين منذ سنوات عدّة. قبل وفاة أمّي بكثير. فأوريليا بارك كان مشروعه العقاري الخاصّ. استثمر فيه بصفته وكيل عقارات وفي المقابل، احتفظ بواحدة من أجمل الفيلّات. والحقّ يقال، لم أرغب يومًا في أن أطأ أرضها. حتّى بعد وفاته، فضّلتُ أن أترك الحارس يعتني بها. أعتقد أنّها كانت بمثابة «شقّة للعزّاب» أو ما شابه. كان يصطحب عشيقاته إليها أو فتيات

الهوى. حتّى أنّني سمعتُ في فترة ما، أنّه يقيم كان حفلات مُريبة فيها.

لطالما كانت لفرنسيس سمعة سيّئة بفعل نزواته الجنسيّة. تذكّرتُ بالفعل أنّه كان يتكلّم جهارًا عن عشيقاته، بيد أنّني أعجز عن تعداد أسمائهنّ. لكنّني أحببته، على الرغم من طيشه هذا؛ رغمًا عنّي على الأرجح، وذلك لأنّني أدركتُ جيّدًا أنّه مجرّد شخص حسّاس، أسير شخصيّته المعقّدة والمُعذَّبة. فألفاظه الهجائيّة العنصريّة، وخطاباته المتعصِّبة للرجولة والمضادّة لمناصري المرأة، جميعها كانت مبالغة، بل ومُمَسرحة، خصوصًا أنّني رأيتُها تناقض أفعاله بعض الشيء. فعمّاله في معظمهم كانوا من المغاربة وأمناء جدًّا له. كان ربّ عمل تقليديًّا، ربّما أبوي النزعة، ولكنّه يشكّل العمود الفقري بالنسبة إلى رجاله. أمّا بالنسبة إلى النساء، فقد أشارت أمّي ذات يوم إلى أنّهنّ يشغلنَ المناصب المهمّة في مؤسّسته.

راودتني ذكرى، تلتها أخرى آتية من زمن غابر:

هونغ-كونغ العام 2007. أنا في الثلاثين من عمري، وروايتي الثالثة قد صدرت للتوّ. للمناسبة، نظّم وكيلي جولة تواقيع في آسيا: المعهد الفرنسي في هانوي، مكتبة «لو بيجونييه» في تايبي، جامعة إوها الراقية في سيول، ومكتبة بارنتيز في هونغ-كونغ. كنتُ جالسًا إلى طاولة برفقة إحدى الصحافيّات، في بار الطابق 25 من فندق منداريِن أوريينتال. خطّ الأفق يمتدّ إلى ما لا نهاية أمامي، ومع ذلك، كلّ اهتمامي كان مُنصَبًّا منذ بعض الوقت، على رجل يجلس على بُعد عشرة أمتار. إنّه فرنسيس، ومع ذلك لم أعرفه بسهولة. يقرأ صحيفة «وول ستريت» ويرتدي طقمًا دقيق القَصَّة (كتفًا ملفوفة على طريقة السيجارة، ثنايا باريسيّة الطراز مملَّسة بإتقان) ويرطن بإنكليزيّة مرنة ما يكفي ليناقش الساقي حول الفارق بين أصناف الويسكي

اليابانيّة وتركيبات الخليط الاستكلندي. وفي لحظة ما، تُدرِك المُعلِّقة الصحافيّة أنّني غبتُ عن حديثها منذ وقت، فينجرح كبرياؤها. وها أنذا أحاول التعويض، أحكّ دماغي، علّني أجد إجابة حاذقة عن سؤالها. وحين أرفع عينيّ مجدّدًا، يكون فرنسيس قد غادر البار.

ربيع العام 1990، لم أبلغ بعد السادسة عشرة. أنا وحدي في المنزل أراجِع لامتحانات البكالوريا الفرنسيّة. لقد سافر والداي مع شقيقي وشقيقتي إلى إسبانيا لتمضية العطلة. تروقني عزلتي هذه. من الصباح حتّى المساء، أُغرِق في الكتب المُدرَجة على الجدول الدراسي: «العلاقات الخطرة» و«التربية العاطفية» و«أوريليان»... وكنت كلّما قرأتُ، رغبتُ في قراءة المزيد، وكلّما اكتشفتُ، دُعيتُ إلى استكشاف المزيد: الموسيقى، واللوحات، والأفكار المعاصرة في النصّ الذي كنت أدرسه. وذات يوم، في ختام الصبيحة، وفيما كنتُ أُخرج الرسائل من صندوق البريد، لاحظتُ أنّ الساعي دسّ بينها رسالة موجَّهة إلى فرنسيس. قرّرتُ الذهاب لتسليمه الظرف. ونظرًا إلى عدم وجود أيّ سياج فاصل بين المنزلين، مررتُ من خلف وعبرتُ مرجة آل بيانكارديني. كانت إحدى النوافذ الزجاجيّة العريضة مفتوحة. من دون أن أعلن عن حضوري، دخلتُ الصالون وفي نيّتي أن أترك الرسالة على الطاولة وأغادر فورًا. فجأةً، لمحتُ فرنسيس جالسًا على أريكة. هو لم يسمعني أدخل، بسبب الأنغام الصادحة من جهاز الهاي-فاي: مقطوعة مُرتَجلة لشوبيرت (وهذا بحدّ ذاته مثير للعجب في منزل لا يتنازل عن حقوق المُساكنة إلّا لميشال ساردو وجوني هوليداي). والأعجب أيضًا أنّ فرنسيس كان... يقرأ. وليس أيّ كتاب. وها أنذا، جامد مكاني، لا آتي بحركة، لكنّني ألمح انعكاس الغلاف على الزجاج: «مذكّرات هادريان» لمارغريت يورسنار. واعتراني الذهول! فما خلا المشاهد الإباحيّة في سلسلة روايات الجاسوسيّة، كان فرنسيس

يُفاخر جهارًا بأنّه لم يفتح كتابًا في حياته. فهو يصرخ قرفه واحتقاره في وجوه المُثقَّفين الذين يعيشون في قوقعاتهم الخاصّة فيما يكدّ هو ويكابد في الورش منذ الرابعة عشرة. ها أنا أنسحب خلسةً، على رؤوس أصابعي، ورأسي يطفح بالأسئلة. سبق أن رأيتُ مغفّلين كثرًا يحاولون التظاهر بالذكاء والفطنة، لكنّها المرّة الأولى التي أرى فيها رجلًا ذكيًّا حذقًا، يودّ الظهور بمظهر المغفَّل.

.4

– بابا، بابا!

انتشلتني الصرخات من دوّامة ذكرياتي. عند الطرف الآخر من المرجة كانت إيمّا ولويز تركضان في اتّجاهنا، تتبعهما أمّي. في ردّ فعل عفوي، أغلقتُ الملفّ وكلّ ما يحتويه من فظاعات. وبينما انقضّت الصغيرتان على أبيهما، أنذرتنا أمّي:

– أوكلكما الصغيرتين. سأذهب لشراء المشمش من متجر «فيرجيه دو بروفانس».

لوَّحت لي بمفتاح الميني كوبير الذي كنتُ تركتُه في سلّة المفاتيح الصغيرة، في ردهة المدخل.

– سآخذ سيّارتك يا توماس. فعربة ماكسيم تُعيق مروري.

– انتظري يا أنابيل، سأزيحها.

– لا، لا، عليّ أن أعرّج بعد ذلك على «كاب 3000» وقد تأخّرتُ.

نظرَت إليّ بإلحاح:

– وهكذا يا توماس، لن يسعك الهروب كاللصّ. ولا التعالي على فطيرة المشمش خاصّتي.

– ولكنّني سأعاود الخروج. وأحتاج إلى سيّارة!

– خذ سيّارتي. مفاتيحها في المقود.

وتـوارَت من دون أن تترك لي فرصة الـردّ. فيما كان ماكسيم يُخـرِج لعبًا متنوِّعة من جعبته ليلهي الفتاتين، رجّ هاتفي على الطاولة. رقم مجهول. بما أنّني لم أكن واثقًا، قرّرتُ الإجابة. كان كلود أنجوفين، رئيس تحرير نيس-ماتان سابقًا، وناصِح ستيفان بيانيلي ومرشده. كان ودودًا وثرثارًا جدًّا. راح يشرح لي كيف استقرّ في مقاطعة دورو، مشيدًا على مدى خمس دقائق بمحاسن تلك المنطقة البرتغاليّة. أعدتُه بلباقة إلى قضيّة فينكا روكويل، وأنا أحاول قراءة أفكاره، لأتبيّن قناعاته ورأيه في الرواية الرسميّة.

– نفاق وهراء، لن ينجح أحد في إثبات ذلك.

– ولِمَ تقول هذا؟

– مجرّد حدس. لطالما سلّمتُ جدلًا بأنّ الجميع مرّ مرور الكرام على ذلك التحقيق: الشرطة، الصحافة، العائلات. وصدقًا؟ أظنّهم اختاروا التحقيق الخاطئ.

– ماذا تعني؟

– أعني أنّنا جميعًا تجاهلنا الأساسي، منذ البداية. ولستُ أكلّمك عن مجرّد تفصيل بسيط، بل عن أمر فادِح. شيء لم يلحظه أحد، وشيء وجّه الأبحاث نحو سكّة لا تقود إلى أيّ مكان. هل فهمتَ ما أعني؟

كانت أقواله مبهمة، لكنّني فهمتُ، بل وشاركته الفكرة. وأردف الصحافي السابق:

– أخبرني ستيفان أنّك تبحث عن صاحب صورة الراقصَين؟

– أجل، هل تعرف من هو؟

– بالطبع أعرف! هو أحد أهالي التلاميذ: إيف دالانيغرا.

هذا الاسم لم يكن غريبًا عنّي. وسرعان ما أنعشَ أنجوفين ذاكرتي:

– أجريتُ أبحاثي. كان والد فلورانس وأوليفيا دالانيغرا.

لقد تذكّرتُ فلورانس الآن، ولو بشكل غير واضح. فتاة ممشوقة ورياضيّة، تفوقني بعشرة سنتيمترات. كانت في الصفّ الثانوي الثالث-د، خلال السنة التي قدّمتُ فيها امتحان البكالوريا–ج، لكنّنا كنّا معًا في صفوف الرياضة. حتّى أنّني أُلزِمت اللعب إلى جانبها في فريق كُرة اليد المختلط. أمّا والدها في المقابل، فلا أذكره على الإطلاق.

– هو مَن اقترح الصورة هذه علينا من تلقاء نفسه، العام 1993، مباشرةً بعد أن نشرنا مقالتنا الأولى حول اختفاء فينكا روكويل وألكسيس كليمان. اشتريناها منه من دون أيّ تردّد. وقد تمّ تداولها كثيرًا منذ ذلك الحين.

– هل أنتَ من عدَّل اللقطة؟

– كلّا، ليس وفق ما أذكر في أيّ حال، بل أظنّ أنّنا نشرناها تمامًا كما كانت حين باعنا الرجل إيّاها.

– إيف دالانيغرا، هل تعرف أين يقيم اليوم؟

– نعم، وجدتُ المعلومات اللازمة لك. سأرسلها بالبريد الإلكتروني، لكن تحضَّر للمفاجأة.

أعطيتُ أنجوفين عنوان بريدي الإلكتروني، وشكرتُه بعدما جعلني أعده بإخطاره إذا ما تقدّمت في تحقيقي.

– لا يمكننا أن ننسى فينكا روكويل هكذا بكلّ بساطة، رماني بتلك الكلمات الأخيرة، قبل أن يستأذن ويقفل الخطّ.

أوتقوله لي أنا يا صاح؟!

عندما أقفلتُ الخطّ، كان فنجان القهوة الذي أعدّه ماكسيم قد برد. فرحتُ لأعدّ لنا فنجانين جديدين. بعدما تأكّد من انشغال صغيرتَيه، أتى لموافاتي قرب آلة الإسبريسّو.

– لم تقل لي حتّى الآن لماذا استدعاك المفوّض ديبروين.

– أرادني أن أتعرّف إلى شيء على صلة بوفاة أبي.

– هيّا، كفّ عن تشويقي. تتعرّف إلامَ؟

– مساء الأربعاء، هبّت رياح عاتية وكان البحر هائجًا. فجرفت الأمواج معها أطنانًا من الطحالب والنفايات. وصباح أوّل من أمس، أطلق فريق النظافة المدنيّة حملة تنظيف على الشاطئ.

سارحًا في أفكاره، ولكن مُصوِّبًا نظره على ابنتيه، ارتشف جرعة قهوة قبل أن يتابع:

– وعلى شاطئ «لا ساليس»، وجد أحد عمّال البلديّة جعبة صغيرة من قماش الجوت كانت العاصفة قد لفظتها على الساحل. واحزَر ما كان داخلها...

في توهان كامل، هززتُ رأسي نفيًا.

– كانت الجعبة تحتوي على ساعات والدي. مجموعته الكاملة.

أدركتُ في الحال خطورة الاكتشاف. ما كان لرجال مقدونيا أيّ صلة بوفاة فرنسيس. وعمليّة السرقة المزعومة لم تكن كذلك في الحقيقة، بل استغلّ قاتل فرنسيس بدهائه وحنكته موجة السلب والنهب، ليموِّه جريمته. فهو لم يسطُ على مجموعة الساعات إلّا بهدف ادّعاء السرقة. ومن ثمّ تخلّص منها ليمحو آثاره أو لأنّه خشي حملة تفتيش مفاجئة.

تبادلنا نظرة مفعمة بالمعاني، أنا وماكسيم، ومن ثمّ التفت كلانا في آن واحد صوب الصغيرتين. دهمتني موجة من الصقيع.

بات الخطر في كلّ زاوية من الآن فصاعدًا. فالعدوّ المتربِّص بنا لدود وحازم جدًّا وليس كما ظننتُه أوّل وهلة، مجرّد مبتزّ أو شخص يحاول إخافتنا ليس إلّا.

كان قاتلًا محترفًا.

مُجرمًا على جبهة حرب. يُعدّ العدّة لثأر لا يرحَم.

فتى غير الفتيان كلّهم

كنتُ قد كشفتُ سطح سيّارة أمّي فيما سرتُ نحو المنطقة الداخليّة، تحيط بي خضرة البراح وزرقة السماء. كان النسيم لطيفًا، والمشهد ريفيًّا. نقيض العذابات التي تنهشني.

للمزيد من الدقّة، كنتُ قلقًا متوتّرًا لكن مفعمًا بالحماسة. ومع أنّني لم أكن أقرّ بذلك، فقد عاد إليّ الأمل. وبعد ظهر ذلك اليوم، اقتنعتُ حقًّا بضع ساعات، بأنّ فينكا لم تمُت وسأعثر عليها. وهكذا، تستعيد حياتي معناها، وخفّتها وحيويّتها دفعة واحدة، فيتوارى إحساس الذنب الذي يثقل كاهلي، إلى غير عودة.

بضع ساعات ليس إلّا، ظننتُني سأفوز بالرهان: ليس أن أكتشف حقيقة قضيّة فينكا روكويل فحسب، بل وأيضًا أخرج من مسعاي هذا، سعيدًا مغتبطًا وقد تجدّدت قواي. أجل، ظننتني حقًّا سأحرِّر فينكا من ذلك السجن الغامض الذي تقبع فيه فتحرّرني هي من أساي وحسرة سنيني المهدورة.

ففي البداية، كنتُ أبحث عن فينكا من دون كلل، ولكن مع مرور السنوات، انتظرتُها ريثما تعثر هي عليّ. ومع ذلك، لم أستسلم يومًا لأنّني أملك ورقة رابحة لا أحد يعرفها سواي. ذكرى أخرى.

لم تكن دليلًا دامغًا، بل مجرّد يقين شخصي. يقين إذا ما قدِّم إلى محكمة الجنايات، قادر على تدمير حياة أحد الأشخاص أو منحها دفعًا جديدًا.

***

يعود المشهد إلى بضع سنوات خلت. في العام 2010، وتحديدًا بين فترة عيد الميلاد ورأس السنة، شلّت نيويورك عاصفة ثلجيّة مروِّعة، لم تشهَد المدينة مثلها من قبل. أقفلت المطارات، وألغيت الرحلات الجويّة كلّها، وعلى مدى ثلاثة أيّام، عاشت مانهاتن تحت ثقل الثلج والصقيع. وفي الثامن والعشرين من ديسمبر، بعد فترة أشبه بنهاية العالم، علت الشمس المشهد لتدفئ المدينة وتنيرها طوال النهار. عند الظهر تقريبًا، خرجتُ من شقّتي لأتنزّه نزهة صغيرة ناحية واشنطن سكوير. عند مدخل المتنزَّه، وتحديدًا في الممرّ الذي يلتقي فيه لاعبو الشطرنج، أذعنتُ لإغراءات مباراة ودّية مع سيرغي، رجل روسي مُسنّ كنت صادفته بضع مرّات. لطالما هزمني في مباريات العشرين دولارًا، ودومًا في اللحظة الأخيرة. تمترستُ خلف طاولة من حجر، عازمًا على الأخذ بالثأر.

ما زلتُ أذكر تلك اللحظة بتفاصيلها. كنتُ أهمّ بتنفيذ حركة رابحة: إطاحة مجنون خصمي بفارسي. رفعتُ القطعة عن رقعة الشطرنج وعينيّ في آن واحد. وهنا، تلقّيتُ طعنة خنجر في قلبي.

كانت فينكا هناك، عند طرف الممرّ، على مسافة خمسة عشر مترًا منّي.

كانت مستغرقةً في كتابها، وقد جلست تلفّ ساقًا بساق على مقعد طويل، وفي يدها كوب من كرتون. كانت مُشرقة. أكثر بهجةً وتألّقًا، وأكثر نعومةً ورقّةً أيّام الليسّيه. كانت ترتدي جينز وسترة من

جلد الأيل بلون الخردل، وتتلفّع بوشاح سميك. على الرغم من قبّعتها الصوفيّة، أدركتُ أنّ شعرها بات أقصر، وقد فقدت خصلاته تموّجاتها الصهباء. فركتُ عينيّ. بلى، الكتاب الذي تحمله بيدها، هو كتابي أنا. لحظة فتحتُ فمي أهمّ بمناداتها، رفعت رأسها. فتلاقت عيوننا هنيهة و...

– إذًا، هل ستلعب أم ماذا؟ تبًّا! قال سيرغي.

غابت فينكا عن ناظريّ بضع ثوانٍ، في اللحظة التي اقتحَمت المتنزّه جمهرة من الصينيّين. وقفتُ وشققتُ دربي ركضًا وسط الحشد لموافاتها، لكن حينَ دنوت من ذلك المقعد، كانت فينكا قد اختفت.

***

ترى ما مدى صدقية تلك الذكرى؟ كانت رؤيتي هذه عابرة، قصيرة الأجل، أقرّ بذلك. بما أنّني خشيت تلاشي المشهد، رحتُ أعكسه مرارًا وتكرارًا في ذهني، علّني أجمّده فأحتفظ به إلى الأبد. لأنّها كانت تهدّئني، بل وتطمئنني، رحتُ أتشبّث بتلك الصورة، بيد أنّني كنتُ أدرك أنّها هشّة كالغيم. فكلّ ذكرى تتضمّن جزءًا من الخيال والاجتهاد الشخصي، وأمّا تلك الذكرى بالذات فكانت أجمل من أن تكون حقيقة.

ثمّ مرّت الأعوام، فانتهيتُ بالشكّ في صوابيّة المشهد هذا. لا بدّ من أنّني توهّمته. وأمّا اليوم، فقد اكتسبت تلك الحادثة معنًى مميّزًا. رحتُ أستعيد ما قاله كلود أنجوفين، رئيس تحرير نيس-ماتان السابق. الجميع مرّ مرور الكرام على ذلك التحقيق. وصدقًا؟ أظنّهم اختاروا التحقيق الخاطئ. تجاهلنا الأساسي منذ البداية...

كان أنجوفين مُحقًّا. ومع ذلك، فالأمور إلى تبدُّل. لقد انطلَقت عجلة الحقيقة. ربّما ثمّة قاتل متسلسل يطاردني، لكنّني لستُ خائفًا.

فهو مَن سيخوِّلني تتبُّع الخيط وصولًا إلى فينكا. ذلك القاتل هو فرصتي...

بيد أنّني لن أستطيع هزمه وحدي. بهدف خرق لغز اختفاء فينكا روكويل، كنتُ في حاجة إلى الغوص مجدّدًا في ذكرياتي، والعودة إلى ذلك الفتى الذي كان «غير الفتيان كلّهم»، والذي كنتُه في الماضي، في مكان ما بين سنة البكالوريا ومنتصف سنة الثانوي الثالث. ذلك الشابّ الإيجابي والشجاع، ذلك الكائن الرقيق، صاحب القلب النقي، الملموس بهبة من السماء. كنت أدرك تمامًا أنّني لن أفلح في إعادته إلى الحياة، بيد أنّه كان حاضرًا دائمًا معي. لم يغب عنّي يومًا. حتّى في أسوإ لحظاتي وأفظعها، كنتُ أحمله داخلي. في ابتسامة، في كلمة، أو في حكمة تراودني بين فينة وأخرى، لتذكّرني بالذي كنتُه.

والآن، أنا مقتنع خير اقتناع: هو الوحيد القادر على إظهار الحقيقة للعيان. فمن خلال بحثي الحثيث عن فينكا، وإنّما كنتُ أبحث أيضًا وخصوصًا عنّي أنا.

مكتبة t.me/ktabrwaya

11

خلف ابتسامتها

لا وجود للشكّ في فنّ التصوير. كلّ الصور صحيحة. ولا واحدة منها هي الحقيقة.

ريشار أفيدون

.1

كان إيف دالانيغرا يقطن منزلًا كبيرًا في أعالي بيو. قبل أن أظهر فجأة على عتبة بيته، كنتُ قد اتّصلتُ بالرقم الذي أعطاني إيّاه كلود أنجوفين. وسرعان ما تلقّيتُ الضربة الأولى: فيما دأب على العيش في لوس أنجلوس ستّة أشهر في السنة، كان دالانيغرا في كوت دازور حينذاك. تلتها الضربة الثانية: كان يعرفني تمامًا، ففلورانس وأوليفيا، ابنتاه الكبريان اللتان صادفتهما في الليسّيه – صحيح أنّ تلك الذكرى مشوَّشة بعض الشيء، لكنّها حقيقيّة – تطالعان رواياتي وتقدِّرانني. عليه، اقترح تلقائيًّا أن أزوره في الفيلّا التي حوّلها مُحترفًا، على طريق الفينياس.

تحضَّر للمفاجأة، أنذرني أنجوفين. حين بحثتُ في موقع دالانيغرا الإلكتروني، وفي بطاقته الخاصّة ضمن موسوعة ويكيبيديا،

إضافةً إلى مقالات عدّة في الإنترنت، أدركتُ أنّ الرجل أصبح نجمًا حقيقيًا في مجال التصوير. كانت مسيرته مُحيِّرة بقدر ما هي فريدة من نوعها. فحتّى سنّ الخامسة والأربعين، عاش دالانيغرا حياته بوصفه ربّ أسرة صالحًا. مراقب إدارة أعمال لدى إحدى المؤسّسات الصغيرة في نيس، بقي متزوِّجًا طوال 20 سنة بالمرأة نفسها، كاترين، والتي أنجب منها ولدين. في العام 1995، سبّبت وفاة والدته انعطافة مفاجئة في حياته فبدّلت مجراها جذريًا. ها هو يطلب الطلاق ويتخلّى عن وظيفته ليرحل إلى نيويورك ويطلق العنان لشغف حياته: التصوير.

بعد بضع سنوات، ذكر في مقالة ذاتيّة نُشرت في الصفحة الأخيرة من صحيفة «ليبيراسيون» بأنّه قرّر آنذاك أن يجاهر بمثليّته. أمّا الصور التي شهرته فكانت صور عُري تُحاكي جماليّة إيرفينغ بين وهلموت نيوتون. ومع مرور الزمن، تحوّلت أعماله شخصيّة أكثر. ما عاد يصوِّر إلّا الأجساد الخارجة عن معايير الجمال التقليدي: نساء بدينات أو منمنمات جدًّا، أصحاب بشرات محروقة أو مشوَّهة، أشخاصًا مبتوري الأطراف، مرضى يخضعون لجلسات العلاج الكيميائي. هيئات وأشكال جعلها دالانيغرا تسمو وترتقي إلى الجماليّة. مُرتابًا بادئ ذي بدء، بقيتُ فاغر الفم أمام القوّة النابعة من أعماله، التي لا يشوبها عته ولا سفاهة، بل معه كنّا أقرب إلى رسّامي الأسلوب التقليدي الفلامنكي، منه إلى حملة دعائيّة تشيد بتنوّع الأجساد واختلافها، من دون أن تجرح الأذواق. متكلّفة جدًّا، بإطار إخراجي مبتكر مرفق بعمل حثيث على الدرجات الضوئيّة وتفاوتاتها، كانت صوره أشبه باللوحات الكلاسيكيّة، تحملكَ إلى عالم يخالط فيه الجمال المتعة الخالصة، ولذّة الحواس ونشوة الفرح.

كنتُ أسير ببطء على الدرب الصغيرة وسط أشجار الزيتون وجدران الحجارة الجافّة الصغيرة. ومع كلّ منبسط وهاد جديد، درب جديدة تضيق أكثر فأكثر لتخدم حصّتها من المساكن: حصون قديمة مُجدَّدة، بيوت مُعاصرة أكثر، مجموعات من الفيلّات الريفيّة عائدة إلى فترة السبعينيّات. فجأةً، عند منعطف ضيّق، تراجعت أشجار الزيتون ذات الجذوع المعقودة العتيقة والأوراق المرتجفة، تاركةً المكان لما بدا لي بستانَ نخيل عجيبًا غريبًا، كأنّ قطعة من مراكش نُقِلَت لتُزرَع في قلب البروفانس. كان إيف دالانيغرا قد أعطاني رمز البوّابة. فركنتُ سيّارتي أمام مُشيَّد الحديد المُطرَّق، ومشيت في الممرّ تحيطني أشجار النخيل من الجانبين، وصولًا إلى المنزل.

فجأةً، انقضّت عليّ كتلة صهباء ضخمة، تنبح. كان كلبًا راعيًا من الأناضول، هائل الحجم. كنتُ أخاف الكلاب حتّى الموت. فعندما كنتُ في السادسة من عمري، هاجمني بغتةً أثناء حفلة عيد ميلاد أحد رفاقي، انقضّ كلب الأسرة على وجهي من دون سبب وجيه. كدتُ أخسر عيني في تلك الحادثة، وقد خرجتُ منها إلى جانب الندبة التي علَت عظمة أنفي، بهلع شديد ومُفرط حيال جنس الكلاب عمومًا، هلع تأصّل في أعماقي.

– اهدأ يا أوليس!

ظهر خلف الحيوان رجل قصير القامة، بذراعين مفتولَتي العضلات، لا تتناسبان مع حجم جسمه على الإطلاق. كان يرتدي قميصًا بحريًّا واسعًا ويعتمر كَسكيت تذكّر بشخصيّة بوباي.

– كلب مطيع، هيّا! قال وقد علت نبرته.

قصير الوبر، عريض الرأس، وقف الكلب التركي الأصول يتحدّاني من علوّ سنتيمتراته الثمانين، رادعًا تقدّمي. لا بدّ من أنّه شعر بتوجُّسي.

– أنا هنا لمقابلة السيّد دالانيغرا! بدأتُ أشرح للحارس. هو مَن أعطاني رمز البوّابة.

كان الرجل على استعداد تـامّ لتصديقي، بيد أنّ «أوليس» قد خطف أسفل بنطالي. أفلتَت منّي صرخة أرغمَت الحارس على التدخُّل والتعارُك بيد مُجرَّدة مع الكلب، علّه يفكّ قبضته.

– اتركه يا أوليس!

مستاءً بعض الشيء، أتحفني بوباي بسيل من الاعتذارات:

– لا أدري ما دهاه. عادةً هو حنون وودود كالدبّ-الدمية. ربّما هي آثار رائحة تحملها، سيّدي.

رائحة الخوف، فكّرتُ وأنا أكمِل طريقي.

كان منزل المُصوِّر مصمَّمًا بأسلوب مُبتَكر: مبنى كاليفورني الطراز على شكل L، مشيّد بكتل مرصوفة من الإسمنت شبه الشفّاف، وحوض سباحة بمياه فيّاضة يطلّ على منظر خلّاب للقرية وتلّة بيو. تناهَت إليّ من النوافذ الزجاجيّة العريضة نصف المفتوحة أنغام ثنائي أوبرا: اللحن الأشهر من الفصل II من Chevalier à la rose لريتشارد شتراوس. استغربتُ عدم وجود جرس عند باب المدخل. طرقتُ طرقات عدّة، لكنّني لم أحصل على جواب، ذلك بسبب الموسيقى العالية على الأرجح. على طريقة أهل الجنوب، عبرتُ الحديقة ملتفًّا حول المنزل، لأدنو أكثر من مصدر الموسيقى.

لمحني دالانيغرا من الزجاج. بحركة خاطفة من يده، أشار إليّ لأدخل من إحدى النوافذ العريضة.

كان المصوِّر يكمل جلسة عمل. وكان منزله عبارة عن مشغل واسع حوِّل استوديو تصوير. خلف عدسة كاميرته، لمحتُ إحدى العارضات ترتدي ملابسها. تحفة مكتنزة خلّد المصوِّر جمالها للتوّ – استنتجتُ ذلك بسبب وجود أكسسوارات الإخراج – في وضعيّة

لوحة «الماجا العارية»، نخبة لوحات غويا. كنتُ قد قرأتُ في مقالة عن نزوة الفنّان الحديثة: إعادة تشكيل تحف فنيّة ولوحات شهيرة بوساطة عارضات بدينات.

كان الديكور يُحاكي حدّ الابتذال، لكنّه لم يكن رديئًا: أريكة كبيرة من المخمل الأخضر، وسادات صغيرة مُريحة ودافئة، ستائر من الدانتيل المخرَّم، وشراشف رقيقة شفّافة كأنّها ترغي وتزبد في حمّام من الفقاقيع.

رفع دالانيغرا الكلفة بيني وبينه عند دخولي:

– كيف حالك يا توماس؟ تفضّل! قال لي بالإنكليزية. هيّا يمكنك الدخول، لقد انتهينا!

كانت ملامحه تشبه السيّد المسيح. أو بالأحرى للبقاء ضمن إطار المقارنة التصويريّة، صورة ذاتيّة لألبريخت ديورير: خصلات شعر متموِّجة تكاد تلامس كتفيه، وجهًا متساوي القسمات وبارز العظام، لحية قصيرة مشذّبة بدقّة، عينين جامدتين تحيط بهما هالات سوداء. أمّا من ناحية الملبس، فكان الوضع مختلفًا: جينز مطرَّزًا، صدريّة صيّاد إنّما بهُدُب، وحذاء سانتياغ مشقوقًا عند الكاحل.

– لم أفهم شيئًا ممّا شرحت لي عبر الهاتف. عدتُ من لوس أنجلوس مساء أمس، وما زلتُ مشوّشًا بالكامل.

دعاني إلى الجلوس عند طرف طاولة كبيرة من الخشب الخام، فيما كان يودِّع عارضته. وعندما بدأت أتلفّت صوب الصور المعروضة في كلّ زاوية، أدركتُ فجأةً أنّ لا وجود للرجال في أعمال دالانيغرا. مرذولين، بل وممحوّين عن الخريطة، قد أفسحوا مجالًا واضحًا أمام النساء للعيش والتباهي في عالم تحرَّر من سوء الذِكر (الذَكَر).

حين عاد المصوِّر أدراجه متّجهًا صوبي، ذكر أوّلًا ابنتيه، ثمّ ممثّلة أدّت في فيلم مقتبس من إحدى رواياتي، وقد خلّدتها عدسته مسبقًا. وعندما فرغنا من تلك الموضوعات، سألني:

– قُل لي، ما الذي أستطيع فعله لأجلك؟

2.

– أنا من التقط هذه الصورة طبعًا! أقرّ دالانيغرا.

كنتُ قد دخلتُ صلب الموضوع بما أنّه بدا على استعداد لمساعدتي، فأريته غلاف كتاب بيانيلي. انتزعه من يدي، ليتفحّص اللقطة، كأنّه لم يرها منذ سنوات.

– كان ذلك في حفلة نهاية العام الدراسي، صحيح؟

– بل حفلة نهاية الفصل الدراسي، تقريبًا في منتصف ديسمبر 1992.

وافقني الرأي:

– آنذاك، كنت أهتمّ بنادي التصوير في الليسّيه. والواقع أنّه وجب عليّ الحضور إلى حرم الكليّة وقد عرّجتُ سريعًا على مكان الحفل بهدف التقاط صور لفلورانس وأوليفيا. ومن ثمّ راقت لي الأجواء، فرحتُ أصوِّر هنا وهناك وأيًّا كان. لكنّني لم أفكّر في تحميض الصور إلّا بعد بضعة أسابيع حين بدأ الحديث عن هروب تلك الصبيّة مع أستاذها. هذه الصورة كانت ضمن المجموعة الأولى التي حمّضتُها. اقترحتُها على نيس-ماتان التي اشترتها على الفور.

– لكنّها معدَّلة، أليس كذلك؟

زمّ عينيه:

– صحيح. عينكَ متمرِّسة. اضطررتُ إلى عزل الراقصَين لزيادة عمق المشهد.

– وهل احتفظتَ بالأصليّة؟

– حوّلتُ كلّ لقطاتي المأخوذة بالتصوير الفضّي منذ العام 1974 رقميّةً، بدأ يقول.

ظننتُ أنّ الحظّ ابتسم لي أخيرًا، هذا قبل أن ألمح تكشيرته:

– كلّها مخزَّنة في مكان ما على مُلقِّم أو على الـ«كلاود» كما يُسمّى اليوم، لكنّني لا أعرف كيف أصل إليها.

أمام خيبتي، اقترَح أن يتّصل بمعاونته في لوس أنجلوس عبر سكايب. ظهر في شاشة كمبيوتره وجه شابّة يابانيّة ما زالت شبه نائمة.

– مرحبًا يوكو، هلّا أسديتِني خدمة؟

بشعرها الطويل الأزرق الفيروزي المربوط على شكل ذيلين، وقميصها الناصع البياض وربطة عنقها التي تذكِّر بتلميذات المدارس، بدت أشبه بلاعبة كوسبلاي، متنكّرة في زيّ امرأة أعمال.

شرح دالانيغرا ليوكو ما يبحث عنه بالتفصيل، فوعدتنا بالعودة إلينا حالما تجد شيئًا.

بعدما أقفل الخطّ، انسلّ المصوِّر خلف منضدة العمل الحجريّة في المطبخ، وتناول خلّاطًا ليعدّ الشراب. وضع في الزبديّة الزجاجيّة بعض السبانخ، وقطعًا من الموز وحليب جوز الهند. بعد ثلاثين ثانية، صبّ مخفوقًا ناعمًا مُخضَرًّا في كوبين كبيرين.

– هيّا ذُق هذا! بادرني وهو يعود. إنّه نافع جدًّا للبشرة والمعدة.

– ألديك ويسكي؟

– المعذرة، أقلعتُ عن الشرب منذ عشرين سنة.

ابتلعَ نصف مشروبه قبل أن يعود إلى فينكا:

– تلك الصبيّة، ليس من الضروري أن تكون مُحترفًا لكي تصوِّرها، قال سريعًا وهو يضع كوبه قرب الكمبيوتر. يكفي أن تضغط الزرّ ومتى

حمّضتَ الشريط، أتت النتيجة أجمل من الواقع. قلّما صادفتُ شخصًا في هذه الأناقة وفي هذا الرُقيّ.

أجفلني كلام دالانيغرا بعض الشيء. كان يتكلّم كَمَن صوَّر فينكا مرارًا وتكرارًا.

– صحيح! أكّد لي عندما سألتُه.

وأمام اضطرابي الجلي، روى لي حادثة كنتُ أجهلها.

– قبل شهرين أو ثلاثة من اختفائها، طلبت منّي فينكا أن ألتقط صورًا لها. ظننتها تريد جمع ألبوم يمكّنها من العمل في مجال عرض الأزياء، على غرار بعض رفيقات ابنتيّ، لكنّها انتهَت بأن اعترفت بأنّ تلك الصور لحبيبها.

التقط الفأرة وراح ينقر الزرّ ليفتح برنامج التصفُّح.

– نفّذنا جلستين ناجحتين حقًّا. صور رقيقة لكنّها تشعّ رونقًا.

– وهل احتفظتَ بتلك الصور؟

– لا، كان ذلك ضمن اتّفاقنا ولم أصرّ، لكنّ الأغرب في الأمر، هو أنّ الصور عادت لتظهر في الإنترنت منذ بضعة أسابيع.

وجّه شاشته نحوي. كان قد دخل حساب الإنستاغرام الخاصّ بالهيتيروديّات، تلك الحركة المناصرة للمرأة في سانت-إكز، التي كانت تبجِّل فينكا. وقد نشرت المناصرات اليافعات في صفحتهنّ الإلكترونيّة، الصور العشرين التي حدّثني دالانيغرا عنها.

– وكيف حصلنَ على هذه الصور؟

أجاب مُلوِّحًا بيده بلامبالاة:

– اتّصل وكيلي بهنّ لحلّ مشكلة حقوق النشر. زعَمنَ أنّهنّ استلمنها بالبريد الإلكتروني مِن مُرسل مجهول.

رحتُ أتفحَّص الصور الحصريّة بشيء من التأثُّر. أنشودة تحتفي بالحُسن والجمال، وفيها مكوِّنات سحر فينكا كلّها. لا شيء في تلك

المرأة كان كاملًا متكاملًا. وإنّما يكمن جمالها الفريد في شوائب طفيفة تنتهي بتأليف مجموعة متوازنة، قوامها، الرشاقة والأناقة، ما يؤكِّد صحّة القول المأثور: ليس الكُلّ مجموع الأجزاء على الدوام.

خلف ابتسامتها، خلف قناعها الملوَّن بمسحة من العجرفة، أخذتُ أستشفَ عذابًا أليمًا لم أتبيّنه قطّ آنذاك. أو في الأقلّ طيفًا من عدم الأمان، وإنّما يُثبِت ما اختبرتُه لاحقًا من خلال معاشرتي نساء أخريات: الجمال هو أيضًا اختبار فكري. قدرة هشّة لا نفهم أحيانًا ما إذا كنّا نمارسها أو نخضع لها.

بعد ذلك، أردف دالانيغرا:

– طلبت فينكا منّي صورًا مبتذلة أكثر، أقرب إلى الخلاعة. وهنا، رفضتُ، إذ شعرتُ بأنّها تنفّذ إرادة عشيقها ليس إلّا، وليس رغبتها هي.

– ومَن كان عشيقها؟ ألكسيس كليمان؟

– أجل، وفق ما أتصوَّر. قد يبدو طلبها تافهًا اليوم لكنّه آنذاك كان سيجلب المتاعب. ولم أشأ أن أتـورَّط في أمر من هذا القبيل. خصوصًا أنّ...

قطع عبارته هنيهة ليستجمع كلماته.

– خصوصًا أنّ ماذا؟

– يصعب شرح ذلك. كانت فينكا تبدو مشرقة متألّقة في يوم، ومُحبَطة أو منهارة كليًّا في اليوم التالي. بالنسبة إليّ، ما كانت تبدو مستقرّة ولا متّزنة. ثمّ جاءتني بطلب آخر من طلباتها، أحبط عزيمتي: اقترحَت أن أقتفي أثرها خفية لألتقط صورًا غرضها ابتزاز رجل آخر إنّما أكبر سنًّا، كان الأمر مريبًا وتحديدًا...

قاطعَه رنين معلنًا ورود رسالة إلكترونيّة.

– آه! إنّها يوكو! قال وهو يلقي نظرة على شاشة الكمبيوتر.

نقر نقرة ليفتح الرسالة. كانت تحتوي على حوالى خمسين صورة ملتقطة أثناء حفلة نهاية الفصل الدراسي. تسلَّح بنظّارته نصف الدائريّة وسرعان ما عثر على الصورة الشهيرة. فينكا وألكسيس كليمان يرقصان.

لقد صدق رافا. تمّ تعديل الصورة حقًّا. فحين استعادت حجمها الأصلي، اكتسبت اللقطة معنى مختلفًا: الواقع أنّ فينكا وكليمان ما كانا يرقصان معًا، بل كانت فينكا ترقص وحدها وهي تنظر إلى شخص آخر. رجل لا نرى سوى ظهره. مجرّد شكل مشوَّش المعالم في مقدِّم الصورة.

– اللعنة!

– عمَّ تبحث على وجه التحديد؟

– صورتَك هذه كاذبة.

– كالصور كلّها، أجابني بهدوء ووداعة.

– كفى، لا تتلاعب بالكلمات.

تناولتُ قلم رصاص كان على طاولة المكتب لأشير إلى كتلة محجوبة، لا شكل لها ولا ملامح.

– أودّ أن أعرف هويّة الرجل الواقف هنا. ربّما هو على علاقة باختفاء فينكا.

– فلننظر إلى الصور الأخرى، اقترَحَ عليّ.

قرّبتُ مقعدي من الشاشة والتصقتُ بالمصوِّر لأشاهد معه مختلف اللقطات. صحيح أنّ دالانيغرا صوَّر الفتيات بشكل خاصّ، بيد أنّنا استطعنا أن نرى مُشاركين آخرين في بعض الصور. هنا، وجه ماكسيم، وهناك سحنة فاني. ثمّ عصابة التلاميذ التي صادفتُ هذا الصباح بعض أعضائها: إيريك لافيت، و«ريجيس مجرَّد مغفَّل»، وكاثي ديلانو المتألّقة... وأنا نفسي ظهرتُ في إحدى الصور، مع أنّ

تلك الأمسية قد امّحت من ذاكرتي. كنتُ شارد النظر وأبدو منزعجًا بعض الشيء، بقميصي الأزرق السماوي السرمدي وسترتي البلايزر العاديّة. وأيضًا مجموعة الأساتذة ودومًا بالترتيب ذاته. صفّ الأوغاد الذين يبقون متلاصقين لينعموا بالدفء: ن. دونغ، أستاذ الرياضيّات السادي الذي كان يتلذّذ بتعذيب التلاميذ متى مثلوا أمام اللوح، ليمان، أستاذ الفيزياء المكتئب-المهووس، و«لا فونتانا» الأكثر انحرافًا وفسادًا: عاجزة عن فرض احترامها أثناء الدروس، لطالما فضّلت تصفية حساباتها الشخصيّة بوحشيّة قصوى، أثناء انعقاد مجلس الصفّ. وفي الجهة المقابلة، المدرِّسون الأكثر إنسانيّة: الآنسة دوفيل، أستاذة الأدب الجميلة على الصفوف التمهيديّة، والتي تتحلّى بسرعة بديهة استثنائيّة – بعبارة واحدة تقتبسها من شكسبير أو إيبسيت، تكمّ فاه كلّ مشاغب تعيس – والسيّد غراف، مُرشدي القديم، أستاذ الفرنسيّة الرائع الذي علّمني في الثانوي الأوّل والثانوي الثاني.

– تبًّا، لا يظهر المجال المقابل في أيّ واحدة! قلتُ بغضب واضح، إذ بلغنا نهاية اللائحة.

كنتُ أدرك جيّدًا أنّني فوّتُ عليّ فرصة اكتشاف عنصر حاسم.

– صحيح، هذا مُحبط حقًّا، أقرّ دالانيغرا وهو يُنهي مشروبه الأخضر.

أمّا أنا فلم أمسّ كوبي حتّى. فهذا يتجاوز قدرة احتمالي. في الغرفة، كانت الإنارة قد خفتت. كانت بنية الإسمنت شبه الشفّافة ملائمة جدًّا للمؤثِّرات الضوئيّة، فراحت تُحوِّل المنزل شيئًا فشيئًا فقّاعةً صافية ينعكس فيها أدنى تقلُّب في النور، تموُّجات مُشعّة أخّاذة تتردّد إلى ما لا نهاية، فتوقظ ظلالًا خفيفة تدور وتحوم حولنا كالأشباح.

شكرتُ المصوِّر رغم كلّ شيء على المساعدة القيّمة وقبل أن أستأذن مغادرًا، سألته عمّا إذا كان في وسعه إرسال تلك اللقطات إلى عنوان بريدي الإلكتروني، وهذا ما قام به فورًا.

– هل تعلم ما إذا التقط شخص آخر صورًا ذلك المساء؟ سألته وقد اجتزتُ عتبة الباب.

– بعض التلاميذ على الأرجح، قال متردِّدًا. لكن، كان ذلك قبل ظهور الكاميرات الرقميّة، بل وكنّا في تلك الفترة ندّخر كلّ قطعة فيلم.

في تلك الفترة... تردَّدت أصداء العبارة الأخيرة وسط صمت الصالون الخاشع، ففتَحت أعين كِلينا على حقيقة مفجعة، ألا وهي أنّنا على عتبة الكهولة.

.3

استعدتُ مرسيدس أمّي وسرت بضعة كيلومترات من دون أن أحدِّد وجهتي. فقد أبقتني زيارتي هذه على ظمإي. ربّما كنتُ أسلك الاتّجاه الخاطئ، لكنّني مُلزم اكتشاف هذه الدرب حتّى النهاية. كان عليّ لا محالة أن أكشف هويّة رجل الصورة.

مع وصولي إلى بيو، تجاوزتُ ملاعب الغولف لأصل إلى ملتقى طرق البراغ. عوضًا عن مواصلة دربي نحو القرية القديمة، انعطفتُ إلى طريق الكول. ذلك المؤدّي إلى صوفيا-أنتيبوليس. كانت قوّة عجيبة تناديني رغمًا عنّي لأعود أدراجي إلى ليسّيه سانت-إكزوبيري. فهذا الصباح، ما كنتُ أتحلّى بالشجاعة التي تخوّلني مواجهة الأطياف، أطيافًا لطالما أنكرتُ وجودها.

في طريقي، رحتُ أفكّر مجدّدًا في الصور المتنوِّعة التي رأيتها عند دالانيغرا. واحدة منها قد أثارت اضطرابي على نحو خاصّ. كانت صورة طيف: جان-كريستوف غراف، أستاذ الفرنسيّة السابق. طرفتُ

عينيّ. توالى موكب الذكريات أمامي، بأفراحه وأتراحه. فالسيّد غراف كان المُدرِّس الذي وجّهني في قراءاتي وشجّعني على كتابة نصوصي الأولى. كان رجلًا طيّبًا، مرهفًا وكريمًا. قامة رفيعة وفارعة الطول كالعمود المستقيم، له وجه رقيق لا يخلو من ملامح الأنوثة، منديل طويل حول عنقه صيفًا شتاء. كان أستاذًا قادرًا على إنجاز تحاليل أدبيّة لامعة، مع أنّه كان يبدو تائهًا وشاردًا بعض الشيء، بل وعلى هامش الواقع.

كان جان-كريستوف غراف قد مات انتحارًا العام 2002. مضت خمس عشرة سنة على تلك الحادثة. بالنسبة إليّ، كان شخصًا طيّبًا آخر على لائحة ضحايا لعنة سوء الطالع؛ ذلك القانون الجائر، ذلك المصير القذر الذي يُضني بعض الحسّاسين الضعفاء ويقهرهم. خطأهم الوحيد هو أنّهم حاولوا معاملة الغير بالحُسنى. مَن كان ذلك الذي يزعم أنّ المرء لا يتلقّى من القدر إلّا ما يستطيع تكبّده، نسيت اسمه، لكنّه كان مخطئًا. فغالبًا ما يكون القدر سافلًا، ملتويًا ومنحطًّا يتلذّذ بسحق حياة الأكثر ضعفًا فيما يترك كثرًا من الأقوياء الحقيرين يتنعّمون بعيش طويل رغيد.

لقد دمّرني موت غراف. قبل أن يرمي بنفسه من شرفة مبناه، كان كتبَ لي رسالة مؤثّرة جدًّا استلمتُها في نيويورك بعيد أسبوع من وفاته. لم أتحدّث يومًا في الأمر، إلى أيّ شخص. كان يُخبرني فيها بأنّه عاجز عن التكيّف مع قساوة الحياة، وقد أقرّ بأنّ وحدته تميته. ذكر لي خيبته العظيمة أمام كتب لطالما ساعدَته في اجتياز الأوقات العصيبة، بيد أنّها اليوم باتت أعجز من أن تمنعه من الغرق. روى لي باحتشام وحرص كيف حطّم فؤاده حبّ كبير غير متبادل. وفي سطوره الأخيرة، تمنّى لي التوفيق في حياتي، مؤكّدًا أنّه لا يشكّ ولو ثانية واحدة في أنّني سأنجح حيث فشل هو: البحث عن توأم روح،

شريكة عُمر، أواجه معها عواصف الحياة. ومع ذلك، هو الآخر قد غالى في تقدير قدراتي، ففي أحلك أيّامي، قد خطر لي وغير مرّة، أنّ ثمّة احتمالًا كبيرًا في أن ألقى المصير عينه.

فيما دنوتُ من غابة الصنوبر، سعيتُ جاهدًا لطرد تلك الأفكار الكئيبة. وهذه المرّة، لم أتوقّف أمام مقهى «شي دينو»، لكنّني تابعتُ سيري وصولًا إلى المحرَس عند مدخل الليسّيه. كان مظهر الحارس الشابّ يشي بأنّه ابن بافيل فابيانسكي على الأرجح. كان يتفرّج على مقاطع فيديو لجيري ساينفلد في شاشة هاتفه. لم تكن في حوزتي أيّ بطاقة، لكنّني أوهمته بأنّني جئتُ أساعد في تحضيرات الحفلة. فتح لي البوّابة من دون أن يحاول معرفة المزيد، وما لبث أن عاد ليركّز في شاشته. دخلتُ الحرم، ضاربًا بعرض الحائط القواعد والأصول، ركنتُ السيّارة مباشرةً على مساحة الإسمنت قبالة الأغورا.

دخلتُ المبنى، ثمّ قفزتُ فوق بويب المكتبة لأقتحم أخيرًا الصالة الرئيسيّة. خبر سارّ! لم تكن زيلي في الجوار. كان إعلانًا صغيرًا معلّقًا على لوح من فلّين يذكّر الزائر بأنّ جلسات نادي المسرح التي تُشرف هي عليها، سيّدة مطلقة، تُقام بعد ظهر الأربعاء والسبت.

خلف قاعدة البيانات، تموضعت امرأة شابّة على عينيها نظّارة. متربّعة على كرسي مكتبها، كانت غارقة في النسخة الإنكليزيّة من «في الكتابة» لتشارلز بوكوفسكي. كانت قسماتها رقيقة لطيفة، ترتدي قميصًا بحريًّا بياقة من طراز كلودين، وشورت من التويد، وجوربين لاصقين مطرّزين وحذاء دربي بلونين.

– صباح الخير، هل أنتِ مَن ينوب عن إيلين بوكمانز؟

رفعَت عينيها عن الكتاب لتنظر إليّ مبتسمة.

أعجَبَتني في الحال. أحببتُ كُعيكة شعرها الرزينة التي تُناقض حبّة الماسّ الملتمعة في منخرها؛ وتلك الزخارف الموشومة التي

ترتسم خلف أذنها لتعود وتنحدر فتغرق تحت ياقة قميصها؛ و«الماغ» الذي تشرب به الشاي، تعترضه عبارة «المطالعة إثارة». الواقع أنّ الأمر ما كان ليحدث معي إلّا نادرًا. لا يُشبه الحبّ من أوّل نظرة، لكنّه شعور يجعلني أسلِّم جدلًا بأنّ الشخص الموجود قبالتي يقف في معسكري أنا لا في معسكر الخصم، أو في أرض اللاأحد واللامكان، التي يسكنها هؤلاء الناس الذين لم ولن أشاركهم يومًا أيّ شيء.

– أدعى بولين دولاتور، قالت معرِّفةً بنفسها. هل أنتَ أستاذ جديد؟

– ليس حقًّا، بل أنا...

– كنتُ أمازحك، أعرف من تكون، أنتَ توماس دوغاليه. فالكلّ تنبّه لحضورك اليوم في ساحة المارونييه.

– كنتُ تلميذًا هنا، منذ وقت طويل، شرحتُ لها. ربّما قبل أن تبصري النور حتّى.

– لا أنتَ تبالغ هنا، وإن قصدتَ الإطراء، فيجب أن تبذل جهدًا أكبر.

أرجَعت بولين دولاتور خصلة من شعرها خلف أذنها وهي تضحك، ثمّ رفعت ساقًا عن الأخرى قبل أن تقف. في وهلة، ظننتني أدركتُ ما لفتني فيها. فهي تجمع بين أمور نادرًا ما تتماشى مع بعضها: دلالًا شبقيًّا مُثبَتًا وجريئًا، لكنّه خالٍ من أيّ غرور، حبًّا حقيقيًّا للحياة، وشيئًا من الرقيّ الفطري، رُقيّ يخلّف ذلك الانطباع الغريب، بأنّها ومهما فعلت، فلن تجد البذاءة سبيلًا إليها.

– لستِ من هنا أليس كذلك؟

– من هنا؟

– من الجنوب. من كوت دازور.

– لا، أنا باريسيّة. وصلتُ إلى هنا منذ ستّة أشهر، أي حين أوجدوا هذه الوظيفة.

– ربّما يمكنك مساعدتي يا بولين. عندما كنتُ تلميذًا هنا، كانت تصدر مجلّة خاصّة بالليسّيه اسمها «كورييه سود».

– وما زالت.

– أودّ الاطّلاع على أرشيفها.

– سأحضره لك. أيّ عام بالتحديد؟

– فلنقُل العام الدراسي 1992-1993. وسيكون رائعًا إن وجدتِ أيضًا المجلَّد السنوي لذلك العام.

– هل تبحث عن أمر معيّن؟

– معلومات عن تلميذة ارتادت الليسّيه: فينكا روكويل.

– طبعًا، فينكا روكويل الشهيرة... من الصعب ألّا تسمع عنها هنا.

– هل تلمّحين إلى كتاب ستيفان بيانيلي الذي تُحاول زيلي فرض الرقابة عليه؟

– بل ألمّح إلى الفتيات المدلَّلات اللواتي أصادِف يوميًّا، ممَّن يخلنَ أنفسهنّ مناصرات المرأة، فقط لأنّهنّ قرأنَ الفصول الثلاثة الأولى من La Servante écarlate.

– الهيتيروديّات...

– الواقع أنّهنّ يحاولنَ سلب ذكرى الصبيّة لتحويلها إلى شخصيّة رمزيّة لا صلة لها بحقيقة فينكا روكويل المسكينة.

أخذت بولين دولاتور تنقر أزرار الكمبيوتر، وما لبثت أن دوّنت على وريقة لاصقة مراجع الكتب والمؤلَّفات التي طلبتُها منها.

– يمكنك الجلوس والانتظار. سآتي لك بالأعداد المطلوبة عندما أعثر عليها.

4.

جلستُ في موقعي المعهود: في مؤخَّرِ القاعة، في ظلّ تجويفة جداريّة، قرب النافذة. كان المنظر يطلّ على باحة مربّعة صغيرة غير متناسقة، مع نافورتها التي تآكلها اللبلاب المتعرّش وحجرها المرصوف. كان يحيط بها رواق من الحجر الزهري، التي لطالما شبّهتها بدير مُحصَّن. ما كان ينقص إلّا الترانيم الغريغوريّة لنعبر عتبة الروحانيّة.

وضعتُ حقيبتي الإيستباك الفيروزيّة اللون التي استعدتُّها من بيت والديّ، على الطاولة. ثمّ أخرجتُ منها أقلام الحبر وأغراضي، كأنّني أهمّ بتحرير بحث أدبي. شعرتُ بارتياح عارم. فحالما أصبح في حضرة الكتب وفي أجواء الدراسة، تهدأ اختلاجات نفسي، بل وأشعر بموجة القلق تتراجع وتهجر أوصالي. كان ذلك بفاعليّة قرص مهدئ، لكن بحجم يصعب حمله من مكان إلى آخر.

غارقًا في روائح الفتيل المُحترق والشمع الذائب، لطالما حافظ هذا الجزء من القاعة – التي تحمل اسمًا رنّانًا: صالة الآداب – على سحره العتيق. كأنني دخلتُ مكانًا مقدَّسًا. كانت لاغارد وميشار الهرمة قابعة على الرفوف تستقبل الغبار، طبقة تلو أخرى. وخلفي، خريطة فيدال لابلاش المدرسيّة القديمة – وقد عفّى عليها الزمن مُذ كنتُ تلميذًا – تستعرض حقبة الخمسينيّات وبلدانها التي زالت من الوجود اليوم: الاتّحاد السوفياتي، وجمهوريّة ألمانيا الديمقراطيّة، ويوغوسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا...

راحت الأجواء الشاعريّة يشوبها شيء من الحزن والحنين، تعتمل فيّ نابشةً الذكريات من الأعماق. فهنا اعتدتُ إنجاز فروضي ومراجعة دروسي. وهنا كتبتُ روايتي القصيرة الأولى. أخذتُ أستعيد أقوال أبي بالتتالي – أنتَ تعيش في عالمك الأدبيّ والرومانسي، لكنّ الحياة الحقيقيّة لا تمتّ بصلة إلى ذلك. الحياة كلّها عنف. الحياة

حرب ضروس – ومن ثمّ ملاحظة أمّي: لم يكن لديك أيّ رفيق يا توماس، بل كانت الكتب رفيقتك الوحيدة.

وتلك هي الحقيقة. حقيقة أفخر بها وأعتَزّ. فلطالما كنتُ مقتنعًا بأنّ الكتب أنقذَتني من موت محتَّم، ولكن، هل يستمرّ الوضع على هذا النحو مدى العمر؟ على الأرجح، لا. ألم ينذرني جان-كريستوف غراف بذلك بين سطور رسالته؟ فبين ليلة وضحاها، تخلّت الكتب عن غراف وسط صحراء الحياة، فارتمى في أحضان العدم. وإذا ما شئتُ أن أحلّ قضيّة فينكا روكويل، أوّلًا يجدر بي التخلّي عن عالم الكتب، حارسي وحاميّ، لأمسك بخناق ذاك العالم الآخر، العالم القاتم العنيف الذي حدّثني أبي عنه!

«خُض الحرب»...، همس لي صوت في أعماقي.

– تفضَّل، أعداد مجلّتك والمجلّد السنوي!

أرجعني صوت بولين دولاتور الحازم إلى اللحظة الحاضرة.

– هل في وسعي أن أطرح سؤالًا؟ سألتني وهي تضع على طاولتي كدسة من أعداد مجلّة «كوريبه سود».

– يبدو لي أنّك لستِ من النوع الذي ينتظر ريثما نأذن له.

– لماذا لم تكتب عن قضيّة فينكا روكويل؟

مهما حاولتُ أو فعلت أو قلت، فثمّة مَن يعيدني دومًا إلى كتبي ورواياتي.

– ربّما لأنّني روائي، ولست صحافيًّا.

أصرّت:

– تفهم تمامًا ما أودّ قوله. لماذا لم ترو قصّة فينكا؟

– لأنّها قصّة حزينة، وأنا ما عدت أتحمّل الحزن.

لم يكن ذلك كافيًا لردعها:

– تمامًا، وهـذا من امتيازات الـروائـي، لا؟ كتابة قصص من الخيال بـهدف تـحـدّي الـواقـع. ليس فحسب بغية تصحيحه، بل ومحاربته في عقر داره. تفحّصه وفحصه، لنكرانه ونفيه. معرفته من كثب لمجابهته بعالم بديل من وعي واقتناع.

– وهل أنت صاحبة هذه الأبيات الدراميّة؟

– حاشا وكلّا، بل أنتَ صاحبها. هي أقوالك التي تتسلَّح بها في مقابلة من أصل اثنتين... بيد أنّه يصعب تطبيقها في الحياة الواقعيّة، أليس كذلك؟

وما لبثت أن تَركتني بعد هذا السيل من النصائح، راضية عن التأثير الدرامي الذي خلّفته.

مكتبة t.me/ktabrwaya

12

ذوات خصل الشعر الناريّة

> صهباء كانت، ترتدي فستانًا رماديًا من دون كمّين. [...] وكان غرينوي مائلًا عليها يعبّ عطرها الصافي النقي، كما هو... عطرًا يفوح من عنقها، من شعرها، من تقويرة فستانها [...]. لم يشعر يومًا بهذا الحبور.
>
> **باتريك سوسكيند**

.1

بين أعداد مجلّة «كورييه سود» المبسوطة أمامي، انقضضت على عدد يناير 1993 الذي يتناول أحداث حفلة نهاية الفصل الدراسي. كنتُ أتمنّى أن أجد صورًا كثيرة فيه، ولكن للأسف، لم أرَ إلّا بضع لقطات عاديّة تُعيد تجسيد أجواء الأمسية، بيد أنَّ واحدة منها لم تسمح لي بكشف هويّة الرجل الذي أبحث عنه.

على الرغم من خيبتي، واصلتُ تصفُّح مختلف الأعداد لأغرق في أجواء الأيّام الخوالي وأتشبّع منها. كانت مجلّة الليسّيه ثروة لا تثمَّن لمَن يريد تكوين فكرة واضحة عن الحياة المدرسيّة في أوائل

التسعينيّات. تورِد النشاطات كلّها وترويها بالتفاصيل المملّة. رحتُ أقلّب الصفحات كيفما اتّفق، منقّبًا في ثنايا الأحداث والمناسبات التي وقّعت نمط الليسّيه يومًا فيومًا: بطولات التلاميذ في الرياضة، رحلة الصفوف الثانويّة إلى سان فرانسيسكو، برنامج نادي السينما (هيتشكوك، كاسّافيتس، بولاك)، كواليس إذاعة الليسّيه، قصائد المشاركين ونصوصهم في مشغل الكتابة والتأليف. كان جان-كريستوف غراف قد نشر فيها أيضًا روايتي القصيرة الأولى خلال ربيع 1992. وفي سبتمبر من العام عينه، كان نادي المسرح يعلن برنامجه للعام المقبل. ما بين العروض المسرحيّة، واحد مُعدَّل، حرّ ومتحرِّر – لا بدّ كتبته أمّي التي كانت تهتمّ بشؤون إدارة النادي آنذاك – مقتبس من بعض مقاطع كتاب «العطر» لباتريك سوسكيند. مع فينكا في دور «فتاة شارع الماريه» وفاني في دور لور ريشي؛ صهباوين بعينين فاتحتين، عفيفتين مُغريتين، وما لم تخنّي ذاكرتي، قد لقيا نهايتهما، مذبوحتين على يد جان-باتيست غرينويل. لا أتذكّر البتّة أنّني شاهدتُ تلك المسرحيّة ولا شيئًا من ردود الفعل التي أثارها عرضها. فتحتُ كتاب بيانيلي لأتحقّق ممّا إذا كان يذكرها في سياق تحقيقه.

الواقع أنّ الصحافي لم يتكبّد عناء ذكرها حتّى، ومع ذلك أثناء تصفّحي الكتاب، وقعتُ على نسخة مطابقة للرسائل التي بعث بها ألكسيس كليمان إلى فينكا، مُدرَجة في مُلحق الصور. وأنا أعيد قراءتها المرّة الألف، سرت القشعريرة في جسمي، بل وشعرتُ بالإحباط عينه الذي اعتراني في منزل دالانيغرا. شعور غريب، بأنّني أكاد ألامس الحقيقة لكنّها سرعان ما تفلت من يدي مجدّدًا. يُفترض أن أربط بين محتوى الرسائل وشخصيّة كليمان، بيد أنّ حاجزًا ذهنيًّا مجهول المصدر كان يردعني كلّ مرّة. نوع من الجمود النفسي،

وكأنّني أخشى «عودة المكبوت» إلى واجهة وعيي. فالمشكلة هي أنا نفسي: شعوري بالذنب، وقناعتي الثابتة منذ البداية بأنّني المسؤول الأوّل عن مأساة كان في وسعي تفاديها لو بقيتُ ذلك الفتى. فتى غير الفتيان كلّهم. لكنّني حينذاك، وبعدما أعماني وجعي وشغفي المدمِّر، تجاهلتُ انحراف فينكا وتقهقرها.

بدافعٍ من حدس غريب، تناولتُ هاتفي المحمول واتّصلتُ بأبي.

– هلّا أسديتَ لي خدمة يا أبي؟

– قُل، زمجر ريشار.

– نسيتُ بعض الأغراض على طاولة المطبخ.

– أجل، تركتَ فوضى لا توصَف! أجاب مؤكِّدًا.

– بين أوراقي، ثمّة نسخ عن امتحاناتي في الفلسفة، هل رأيتها؟

– لا.

– هيّا أبي ابذل بعض الجهد، من فضلك. أو مرِّر لي أمّي.

– لم تعُد بعد. حسنًا انتظِر، سأضع نظّارتي.

شرحتُ له ما أريد على وجه التحديد: أن يصوِّر بهاتفه الملاحظات والتعليقات المدوَّنة بيد ألكسيس كليمان على أبحاثي ونصوصي، ويرسلها إليّ عبر رسالة نصّية. كان الأمر سيستغرق دقيقتين ليس إلّا، لكنّه طال حتّى ربع ساعة، تخلّلته تعليقات مدموغة بدماثة أبي ولطافته الشهيرة. فقد ثارت ثائرته إلى حدّ أنّ حوارنا اختُتم بالملاحظة الآتية:

– الآن، وقد بلغتَ الأربعين، لم تجد أفضل من الغوص في سنواتك الماضية في الليسّيه؟ أبهذا فقط تَمضي حياتك: تضايقنا على مدى النهار وأنت تنبش الماضي الغابر؟

– شكرًا أبي، أراك لاحقًا.

تلقّيتُ ملفّ الملاحظات التي خطّها ألكسيس كليمان، وفتحتُه في شاشتي. شأنه شأن بعض الكتّاب المغرورين، كان أستاذ الفلسفة يهوى التباهي بكتاباته، لكنّني ما كنتُ لآبه بتعرُّجات فكره، بل بخطّ يده. كبّرتُ اللقطة إلى أقصى حدّ ورحتُ أدرس شكل الحروف ونمطها. كان خطّه خاملًا يحاكي الاستخفاف: لا زخارف ولا حروف صغيرة دقيقة، بل كان أشبه بخطّ الأطبّاء الذي يجعلك تتساءل ثواني عدّة عن معنى الكلمة أو الجملة.

كنت كلّما رأيتُ صورة جديدة، تسارعَت نبضات قلبي أكثر فأكثر. أخذتُ أقارنها بالرسالة الموجَّهة إلى فينكا وبالإهداء المخطوط على ديوان شعر مارينا تسفيتاييفا. وسرعان ما ظهر ما لم يدع مجالًا للشكّ. ولئن كان خطّ الرسالة يطابق خطّ الإهداء، إلّا أنّه اختلف الأمر كليًّا في ما يتعلّق بنسخ امتحاناتي التي صحّحها أستاذ الفلسفة.

.2

شعرتُ بوخز متكرِّر واختلاجات في أنحاء جسمي كلّها. لم يكن ألكسيس كليمان عشيق فينكا، بل ثمّة رجل آخر. ألكسيس آخر. لا ريب في أنّه الطيف المشوَّش الذي يظهر موليًا ظهره في الصورة، ذاك الذي فرّت معه صباح يوم الأحد الشهير. ألكسيس مَن أرغمني على ذلك. لم أشأ أن أعاشره! كانت أقوال فينكا تلك صحيحة، لكنّني أنا مَن أساء فهمها، بل والجميع أساؤوا فهمها، على مدى خمس وعشرين سنة. كلّ هذا بسبب صورة عُدِّلت وشائعة أطلقها التلاميذ. عزونا إلى فينكا علاقة غراميّة برجل لم يكن عشيقها يومًا.

امتلأت أذناي طنينًا. فعواقب اكتشافي هذا كانت كثيرة إلى درجة أنّني رحتُ أكابد وأعاني لجمعها كلّها. بيد أنّ العاقبة الأولى كانت الأكثر مأسويّة: لقد قتلنا أنا وماكسيم رجلًا بريئًا. عاودني

صراخ كليمان فيما كنتُ أنسف صدره وركبته. وفي ومضات خاطفة، الواحدة تلو الأخرى، ظهر المشهد أمامي بوضوح تامّ: ملامح الأستاذ المذهولة حين ضربتُه بالقضيب الحديد. لماذا اغتصبتَها أيّها المخبول؟! ثمّ وجهه المستنكر بفعل المفاجأة، وجه يشي باستنكاره وعدم فهمه شيئًا ممّا يحصل. هو لم يدافع عن نفسه لأنّه ببساطة ما كان يُدرِك أيّ تهمة تلك التي أقذفه بها. وأمام ذهوله الجلي حينذاك، تردَّد صدى خافِت في ذهني. قوّة تنبيه، جرس إنذار جعلاني أفلت سلاحي. ومن ثمّ دخل ماكسيم المشهد.

أسندتُ رأسي إلى يديّ وقد اغرورقت عيناي بالدموع. مات ألكسيس كليمان بسببي أنا، ومهما حاولتُ ومهما فعلتُ، فهو لن يعود أبدًا. مكثتُ جامدًا عشر دقائق كانت طويلة قبل أن أقوى على التفكير بما قد يلي. رحتُ أحلِّل خطإي. نعم، كان لفينكا عشيق اسمه ألكسيس. بيد أنّه لم يكن ألكسيس أستاذ الفلسفة. أمر غير معقول، بل وأفدح من أن يكون الحقيقة! ومع ذلك كان التفسير الوحيد المحتمل.

لكن، مَن إذًا؟ لكثرة ما قلّبتُ وأنعمتُ في التفكير، تذكّرتُ أخيرًا – أو بالكاد – أحد التلاميذ: ألكسيس ستيفانوبولوس أو شيئًا من هذا القبيل. نسخة هزليّة عن اليوناني الثري: ابن صاحب باخرة، كان يدعو رفاقه ورفيقاته إلى رحلات حول أرخبيل السيكلاد خلال أيّام العطلة. والحقّ يقال أنّه لم يدعني يومًا.

أمسكتُ مجلّد العام الدراسي 1992-1993 الذي أعطتني إيّاه بولين دولاتور. دليل تصويري، على الطريقة الأميركيّة، يحصي مجموع التلاميذ والأساتذة ممّن ارتادوا الليسّيه في تلك السنة. انهمكتُ أتصفّحه بحماسة محمومة. وبما أنّ الأسماء كانت مصنّفة بالتسلسل الأبجدي، وجدتُ اليوناني في الصفحات الأولى. أنطونوبولوس

(ألكسيس)، ولد في 26 أبريل 1974 في سالونيك. ظهر في الصورة كما أذكره تمامًا: شعره أجعد متوسِّط الطول، قميصًا أبيض، كنزة كحليّة مزيّنة بشعار. أمّا تلك اللقطة فكانت الفتيل الذي أشعل ذاكرتي.

سرعان ما تذكّرتُ أنّه كان من الفتيان القلائل المُسجَّلين في الصفّ التمهيدي-الأدبي. كان شابًّا رياضيًّا، وبطلًا في مباريات التجذيف أو المبارزة بالسيف. مُستَغرِق النزعة، لم يكن شعلة من الذكاء، لكنّه قادر على تلاوة مقاطع كاملة من سافو أو تيوقريطوس، عن ظهر قلب. تحت ستار الثقافة المُبهرَج، لم يكن ألكسيس أنطونوبولوس سوى أنموذج عن عاشق لاتيني يتقن فنّ الإغواء ولكن كان غبيًّا بعض الشيء. يصعب عليّ التصديق أن تُجَنَّ فينكا في حبّ هذا المغفَّل. في المقابل، لستُ الشخص المناسب لمناقشة الموضوع.

ولكن، ماذا لو لسبب أو آخر أجهله تمامًا، كان اليوناني يقتصّ منّا أنا وماكسيم؟ رحتُ أبحث عن الآي-باد في حقيبتي، لكنّني كنتُ قد تركتُه في السيّارة التي استأجرتُها، والتي استعارتها أمّي. اكتفيتُ إذًا بهاتفي للقيام ببعض الأبحاث. عثرتُ بسهولة على سيرة ألكسيس أنطونوبولوس بفضل ريبورتاج مصوَّر على موقع «بوان دو فو» يعود تاريخه إلى يونيو 2015 وهو مخصَّص لزفاف أمير السويد، كارل فيليب. كان أنطونوبولوس وزوجته الثالثة في عداد القلائل المحظوظين الذين تلقّوا دعوة إلى حضور الحفل. من نقرة إلى أخرى، نجحتُ في رسم صورة أوّليّة للرجل. شبه رجل أعمال وشبه فاعل خير، كان اليوناني ينعم بحياة النخبة السياسيّة، طائرًا حرًّا في ذهاب وإياب بين كاليفورنيا والسيكلاد. وقد ذكر موقع «فانيتي فير» أنّه كان يشارك في عشاء amfAR الساهر، كلّ عام تقريبًا. وكان ريعه يعود إلى تمويل أبحاث ضدّ مرض السيدا، كان يُقام كما جرت العادة

على هامش مهرجان مدينة كان، في فندق إيدين روك الفخم. إذًا، قد بقي أنطونوبولوس على تواصل مع كوت دازور، لكنّه لم يُبقِ عمّا يسمح بإقامة رابط مُقنِع بيننا وبينه.

«مكانك راوِح». عليه، قرّرتُ تبديل وجهتي. من أين تنبع عذاباتنا هذه كلّها، في الحقيقة؟ طبعًا، من التهديد الذي يدهمنا نتيجة عمليّة الهدم الممنهجة للجمنازيوم القديم. وهذا الهدم بحدّ ذاته يندرج في خانة الورشة العملاقة التي تَعِدُ بإعادة صنع موقع الليسّيه، من خلال تشييد مبنى جديد من الزجاج، وإنشاء مركز رياضي فائق العصريّة، مزوَّد بمسبح أولمبي، وتشكيل حديقة طبيعيّة.

هذا المشروع الشامل بات موضوعًا مُستهلَكًا ومستنفَدًا – تحدَّثوا عنه منذ خمس وعشرين سنة – بيد أنّه لم يتمّ إطلاقه، لأنّ الليسّيه لم يستطع يومًا جمع التمويلات المطلوبة. وفقًا لمعلوماتي، تطوّرت طريقة تمويل المؤسّسة على مرّ العقود، إذ كان الليسّيه معهدًا خاصًّا بأكمله عند إنشائه، تحوَّل في ما بعد تركيبة مختلطة، تدخُل نوعًا ما في دائرة التربية الوطنيّة وتتلقّى مُساعدات ماليّة إقليميّة. ومع ذلك، هبّت رياح التمرُّد على سانت-إكزوبيري خلال السنوات الأخيرة. فقد استبدَّت تلك الإرادة الجديدة بمختلف الفعاليّات التربويّة، إرادة عنيفة تهدف إلى تحرير الليسّيه من قبضة البيروقراطيّة. وجاء انتخاب فرنسوا هولاند ليسرِّع الأمور، فانتهت المواجهة الشرسة مع الجسم الإداري بنوع من الانشقاق. استعاد الليسّيه استقلاليّته التاريخيّة بيد أنّه خسر تمويلاته العامّة. عليه، ارتفعت كلفة الأقساط المدرسيّة ولكن في رأيي، ما كانت تشكّل سوى غيض من فيض المال المطلوب لتمويل ورشة الأعمال الموعودة. لخوض هذا النوع من المشروعات، لا بدّ من أنّ المؤسّسة اضطرّت إلى قبول تبرّع خاصّ ضخم. تذكّرتُ خطاب المديرة صباح وضع حجر

الأساس. فقد شكرت «المُتبرِّعين الكرماء» الذين سمحوا بإطلاق «الورشة الأكثر طموحًا وتحدّيًا التي عرفتها مؤسّستنا منذ زمن بعيد»، ولكنّها تكتّمت عن الأسماء. وذلك خيط جديد يجب اكتشافه.

لم أجد شيئًا في الإنترنت. أو أقلّه لا شيء يمكن التحقّق منه مباشرةً، بل وكانت السريّة التامّة تكتنف مسألة تمويل تلك الأعمال. إذًا، إن أردتُ التقدّم فليس لديّ من خيار إلّا إعادة زجّ ستيفان بيانيلي في اللعبة. كتبتُ للصحافي رسالة نصيّة تختصر كلّ ما اكتشفته حتّى الآن. ولمزيد من التأثير، أرفَقتُها بصور لعيّنات خطّ اليد. خطّ ألكسيس كليمان على أبحاثي في الفلسفة وخطّ الرجل-اللغز على الرسائل الموجّهة إلى فينكا والإهداء.

عاود الاتّصال بي على الفور. فتحتُ الخطّ بشيء من التوجُّس. كان بيانيلي ندًّا ممتازًا، بل وذهنًا ثاقبًا، سريع البديهة يميل إلى التمحيص والتوسّع، ولكن في حالتي هذه، كنتُ كبهلوان معلّق بحبل رفيع: يجب أن أفصح له عن المعلومات، مع الحرص على ألّا يقلبها ضدّي أو ضدّ ماكسيم أو فاني، بين ليلة وضحاها.

.3

– اللعنة، هذا جنون مطبق! بادرني بيانيلي سريعًا بلهجة تشوبها لكنة مرسيليا. ولكن، كيف فاتنا ذلك؟

كان الصحافي مرغمًا على الصياح، ليعلو صوته فوق ضجيج الحشد الثائر في مدرّجات حلبة موناكو.

– الشهادات والشائعات كلّها كانت تصبّ في هذا الاتّجاه، قلتُ له. وصاحبك أنجوفين هذا، كان محقًّا: لقد خُدعنا كلّنا منذ البداية.

ثمّ استأنفتُ، وأنا أذكُر الصورة التي عدّلها دالانيغرا كما وجود الرجل الثاني في اللقطة.

– مهلًا، هل تريد القول أنّ ذاك الرجل كان يدعى ألكسيس، هو الآخر؟

– فهمتَ تمامًا.

ساد صمت طويل. كان بيانيلي يقلّب أفكاره على الأرجح. حتّى أنّني كدت أسمع في الطرف الآخر من الخطّ عجلات دماغه تدور وتفتل. وبالفعل، استغرق أقلّ من دقيقة ليمسك بالخيط.

– كان هناك ألكسيس آخر في سانت-إكز، قال متذكِّرًا. يوناني الأصل. لطالما سخرنا منه ولقّبناه راستابوبولوس[1]، هل تذكر؟

– ألكسيس أنطونوبولوس.

– هذا هو!

– فكّرتُ فيه، أجبته، ولكنّني أشكّ في أن يكون هو ضالّتنا.

– ولِمَ لا؟

– كان مجرَّد فتى غليظ الذهن. لا أتصوَّر فينكا برفقته.

– هذا استنتاج متسرِّع، لا؟ كان ثريًّا، ووسيمًا و... لو اكتفَت فتيات الثامنة عشرة بمواعدة الأذكياء، لكنّا أوّل مَن يعلم... ألا تذكر كم عانينا نتيجة ذلك؟

بدّلتُ الموضوع.

– ألديك معلومات حول تمويل ورشة ترميم الليسّيه؟

تراجع الضجيج الخلفي فجأةً، كأنّ بيانيلي لجأ إلى زاوية بعيدة من الضجّة.

– منذ بضع سنوات والليسّيه يعمل على الطريقة الأميركيّة: كلفة تسجيل أكثر من باهظة، أهالي بعض التلاميذ الأثرياء يتبرّعون بالمساعدات فحسب ليروا أسماءهم مقرونة بمجموعة أبنية، وعدد

[1] شخصيّة مضحكة في سلسلة تان-تان المُصوَّرة.

ضئيل من المنح الدراسيّة حصرًا لتلامذة معوزين ومُستحقّين عن جدارة، وبصورة تُرضي ضمائر المسؤولين.

– لكنّ أعمال الترميم ستكلّف ملايين. كيف استطاعت الإدارة جمع هذا المبلغ؟

– أتخيّل أنّها اقترضت جزءًا. فسعر الفائدة منخفض هذه الأيّام و...

– ما من قرض يغطي هذا المبلغ الضخم يا ستيفان. ألا تريد التمحيص أكثر في هذا الخيط؟

استشفّ خدعتي، فتفادى السؤال.

– لا أرى أيّ رابط بين ذلك واختفاء فينكا.

– فلتفعل من فضلك. أودّ التحقّق من أمر ما فحسب.

– ما لم تخبرني بما تبحث عنه تحديدًا فلن يكون لتمحيصي أيّ معنى.

– أودّ أن أعرف ما إذا تبرَّع أحد الأفراد أو إحدى المؤسّسات بمبلغ مهمّ لتمويل ورشة تشييد الأبنية الجديدة، وحوض السباحة والحديقة.

– حسنًا، سأوكل أحد المتدرّبين المهمّة.

– لا، ليس أحد المتدرِّبين! المسألة جديّة ومعقّدة. أوكل رجلًا متمرِّسًا.

– ثق فيّ، فالشابّ الذي أفكِّر فيه بارع في تقفّي الأثر، ككلب صيد. كما لا يهوى الطبقة التي تحاول وضع اليد على سانت-إكز.

– شخص يشبهك إذًا...

أفلتت من بيانيلي ضحكة قصيرة، ثمّ سألني:

– وفي رأيك مَن خلف مسألة التمويل؟

– لا أدري يا ستيفان. وبما أنّنا نتحدّث بالأمر، أودّ أن أطرح عليك سؤالًا آخر. ما رأيك بوفاة فرنسيس بيانكارديني؟

.4

– أظنّ أنّ كوكبنا قد تخلّص من سافل آخر، وهذا أمر حسن.

عبارته الاستفزازيّة هذه التي أرادها هزليّة لم تضحكني قطّ.

– أجبني بجدّية من فضلك.

– ألا يفترض بنا التحقيق حول فينكا؟ ما هي لعبتك الآن؟

– سأزوّدك بالمعلومات التي جمعتُها كلّها، أعدك بذلك. فرضيّة عمليّة السطو التي انتهت بحادثة مؤسفة، هل تصدّقها؟

– ليس بعدما عثروا على مجموعة ساعاته.

من الواضح أنّ بيانيلي على علم بكلّ شاردة وواردة. لا بدّ من أنّ المفوَّض ديبروين مرّر له المعلومة.

– إذًا، ماذا؟

– بالنسبة إليّ، هي مسألة تصفية حسابات. فبيانكارديني كان بحدّ ذاته تلك السوسة الخبيثة التي تعيث فسادًا في كوت دازور: التجارة، والفساد السياسي، والعلاقات المشبوهة مع المافيا.

هببتُ أدافع عن فرنسيس:

– أنتَ تهذي الآن. فعلاقات بيانكارديني مع المافيا الكلابريّة مجرّد تلفيق وتضليل. حتّى المدّعي العام ديبروين قد فشل آنذاك في إثبات ذلك.

– بالفعل، فأنا على معرفة جيّدة بإيفان ديبروين، وقد استطعتُ الاطّلاع على بعض ملفّاته.

– لطالما استهواني المشهد: قُضاة يمرّرون معلوماتهم للصحافيّين. كَم هي جميلة سرّيتنا القضائيّة!

– هذا موضوع آخر، قاطعني فجأةً، ولكن ما يمكنني قوله الآن هو أنّ فرنسيس كان غارقًا حتّى أذنيه. تعرف بما كان رجال المافيا الكلابريّة في إيطاليا يلقّبونه؟ «ويرلبول»! ذلك لأنّه كان المُشرف الأوّل والأخير على «غسّالة» تبييض الأموال الضخمة.

– لو حصل ديبريون على أدلّة دامغة لدانَ فرنسيس في الحال.

– حبّذا لو كان الأمر بهذه البساطة... قال متنهِّدًا. في أيّ حال، عاينتُ كشوف حسابات جدّ مشبوهة. مبالغ تسافر مجدّدًا إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، أي حيث تحاول خلايا المافيا الكلابريّة في إيطاليا أن تستقرّ منذ أعوام عدّة.

غيّرتُ وجهة الحديث:

– أخبرني ماكسيم أنّك تضيّق عليه مذ أعلن نيّة انخراطه في العمل السياسي. لماذا تنبش تلك الملفّات القديمة كلّها عن والده؟ تُدرك تمامًا أنّ ماكسيم نظيف الكفّ وأنّ الأبناء ليسوا مسؤولين عن أفعال والديهم.

– أبدًا، ليس بهذه البساطة! عاجلني الصحافي بالردّ. في رأيك، بأيّ مال أنشأ ماكسيم مؤسّسته البيئيّة الصغيرة الظريفة، وحاضنة الشركات المبتدئة؟ وبأيّ مال سيموّل حملته الانتخابيّة؟ طبعًا بالنقود المشبوهة الوسخة التي كسبها فرنسيس في الثمانينيّات. «دود الخلّ منه وفيه»، يا صاح.

– وماذا إذًا؟ لم يعد يحقّ لماكسيم أن يقوم بأيّ عمل؟

– لا تتظاهر بعدم الفهم حضرة الفنّان.

– هذا تمامًا ما لم يعجبني يومًا عند أمثالك يا ستيفان: هذا التشدُّد، هذا الجانب الواعظ، مُلقِّن الدروس. لجنة السلامة العامّة على طريقة روبسبيير.

– وهذا ما لم يعجبني يومًا عند أمثالك يا توماس: قدرتهم على نسيان ما يقضّ مضاجعهم، مهارتهم في إقناع أنفسهم بأنّهم ليسوا مذنبين في شيء.

استحالت نبرة بيانيلي سامّة. شيئًا فشيئًا، راح حديثنا المتبادل يرسم الحدود بين مفهومين مُختلفين للعالم، بل وغير قابلين للاندماج برأيي. كنت سأجيبه بأن يذهب إلى الجحيم، لكنّني كنتُ في حاجة إليه. اخترتُ التراجُع:

– نتحدّث في الأمر في وقت لاحق.

– لا أفهم لماذا تدافع عن فرنسيس.

– لأنّني كنت أعرفه أكثر منك. في الانتظار، إن شئت معرفة المزيد عن وفاته، أستطيع أن أمرّر لك تلميحًا.

– أنتَ حقًّا بارع في قَلب المعادلات!

– هل تعرف تلك الصحافيّة من «الأوبسرفاتور»، أنجيليك غيبال؟

– لا، لا يعني لي الاسم شيئًا.

– يبدو أنّها استطاعت الحصول على تقرير الشرطة. وبحسب ما قرأتُ، جرّ فرنسيس نفسه متخبّطًا في دمائه حتّى بلغ إحدى النوافذ العريضة، حيث حاول كتابة اسم قاتله على الزجاج.

– آه طبعًا! قرأت المقالة: هراء الصحف الباريسيّة.

– بالتأكيد، في عصر الأخبار الملفّقة هذا، لحسن الحظّ أنّ نيس-ماتان لا تزال موجودة لتحافظ على شرف المهنة.

– أنت تتهكّم، لكنّ ذلك صحيح بعض الشيء.

– ألا يمكنك الاتّصال بأنجيليك غيبال، علّك تستحصل على أخبار إضافيّة؟

– وهل تظنّ أنّنا نمرّر معلوماتنا بهذه السهولة نحن معشر الصحافيّين؟ أنت مثلًا، هل تصادق كتّاب الساحة الباريسيّة كافّة؟

كم هو مزعج في بعض الأحيان! بعدما استنفدتُ حججي كلّها، انطلقتُ في مناورة دنيئة:

– إن كنت حقًّا أكثر حذاقة من الصحافيّين الباريسيّين، فبرهن لي ذلك يا ستيفان. حاول الحصول على تقرير الشرطة.

– فخّك هذا فادح بعض الشيء، لا؟ أتظن أنّك ستقنعني بهذه الحجّة الواهية؟

– إذًا، ظنّي في محلّه. ليس لديك سوى أقاويل وشائعات. لم أكن أعلم أنّ فريق مرسيليا يخشى فريق باريس سان جيرمان إلى هذه الدرجة. مع مُشجّعين من أمثالك، لن نُحسَد على وضعنا.

– عمّ تتحدّث؟ لا صلة لهذا بذاك!

صمت بضع ثوانٍ ومن ثمّ قبل بأن يطبق عليه فخّي المُتقَن:

– بالطبع، نحن أكثر حذاقة من الباريسيّين، قال مغتاظًا. سأعود بتقريرك اللعين. ربّما لا نملك أموال قطر، لكنّنا نملك الحنكة.

تواصل النقاش وسط أجواء من المرح الخفيف ليدور حول عموميّات ممتعة، برز فيها اسما برنار تابي وريمون غوتالز. وانتهى بالواقعة التي ستجمعنا دائمًا أبدًا، على الرغم من اختلافنا: العام 1993، حينَ قدَّم فريق أوليمبك مرسيليا لمشجّعيه كأس أوروبا الحقيقيّة والوحيدة. تلك التي لن يستطيع أحد انتزاعها منّا.

.5

وقفتُ لآتي بكوب قهوة من الموزِّع الآلي في آخر القاعة. كان باب صغير مخصَّص للخدمة يفضي إلى الباحة الخارجيّة، حيث يمكن المرء أن يتمشّى ويتنفّس الصعداء. وهذا ما فعلتُه، بل وحين أصبحتُ في الخارج، ذهبتُ في «نزهتي» إلى أبعد، وصولًا إلى المباني الأسطوريّة

العتيقة: قاعات الصفوف، بقرميدها الأحمر المُستَلهَم من الفنّ القوطي.

كان نادي المسرح قد اتّخذ الجناح الأفخم في الليسّيه مقرًّا له، بإذن خاصّ. فيما دنوتُ من المدخل الجانبي، صادفتُ بضعة تلاميذ ينزلون الدرج وسط جلبة شديدة. كانت الساعة السادسة مساءً، وقد بدأت الشمس تغيب فيما انتهى دوام الدرس. سلكتُ الدرج المؤدّي إلى مدرَّج صغير يتصاعد منه شذى خشب الأرز والصندل المُدخَّن. كانت الحلبة مهجورة. تُحيط بها من كلّ جهة صور بالأبيض والأسود – الصور عينها منذ خمس عشرة سنة: مادلين رينو، جان-لويس بارو، ماريا كاساريز... – إلى جانب ملصقات تستعرض أشهر مسرحيّاتها: «حلم ليلة صيف» و«التبادل» و«ستّة أشخاص يبحثون عن كاتب»... لطالما اتّسم نادي مسرح الليسّيه بالنخبويّة والحقّ يقال أنّني ما شعرتُ يومًا بالارتياح بين جدرانه. وفي طبيعة الحال، لن نشهد في الغد القريب هنا أيّ عرض من نوع «قفص المجنونات» أو «زهرة الكاكتوس». عملًا بمواصفاته العالية، حدّد النادي أنّه لا يستقبل أكثر من عشرين تلميذًا. وأنا لم أشأ أن أكون منهم يومًا، حتّى حينَ كانت أمّي تتعاون مع زيلي في إدارة النادي. ولكن، على سبيل إنصافها ليس إلّا، قد بذلت أنابيل ما في وسعها لينفتح على ثقافة أقلّ تصلّبًا وأمام المزيد من التلاميذ، بيد أنّ العادات والأعراف كانت صلبة صامدة، وما كان أحد يريد أن يتحوَّل حصن الذوق الرفيع والضيّق المنعزل هذا مُلحَقًا لنادي كوميديا دجاميل.

فجأةً، فُتح باب خلف المنصّة وظهرت زيلي على المسرح. وإنّما ألطِّف كلامي حينَ أقول أنّها استقبلتني بعين شرّيرة:

– لماذا أتيتَ تتسكّع هنا يا توماس؟

بوثبة واحدة اعتليتُ المنصّة المرفوعة لموافاتها.

– ترحابك هذا يبهجني حقًّا.

سمّرت عينيها فيّ من دون أن يرفّ لها جفن.

– لم تعد في بيتك هنا. ولّى ذاك الزمن، انتهى.

– الواقع أنّني لم أشعر بأنّني في بيتي في أيّ مكان، لذا...

– توقّف أرجوك، سوف أذرف الدموع.

بما أنّني ما كنت أملك سوى فكرة مبهمة عمّا أبحث، رميتُ صنّارتي الأولى عشوائيًّا:

– ما زلتِ من أعضاء المجلس الإداري، صحيح؟

– وما شأنك أنت بذلك؟ أجابتني وهي توضّب أغراضها في حقيبة جلديّة.

– في هذه الحال، يجب أن تعرفي مَن يموّل ورشة الأعمال الجديدة. أتصوّر أنّكم لجأتم إلى إعلام الأعضاء والتصويت.

رمقتني بنظرة تشي باهتمام جديد.

– موّلت الورشة الأولى بقرض، أخبرتني. وهذا هو الجزء الذي صوّتَ عليه في اجتماع مجلس الإدارة.

– وماذا عن الباقي؟

هزّت كتفيها وهي تقفل حقيبتها.

– سيصوَّت على الباقي في الوقت المناسب، لكن، هذا صحيح، لستُ أدري حقًّا أين ستجد الإدارة المال المطلوب كلّه.

نقطة لمصلحتي. راودني سؤال آخر، خارج عن الموضوع:

– هل تذكرين جان-كريستوف غراف؟

– طبعًا، كان أستاذًا كفوءًا، أقرّت. ضعيف حسّاس ولكن طيّب. أحيانًا، ما كانت زيلي لتتفوّه فحسب بالحماقات.

– هل تعرفين سبب انتحاره؟

وسرعان ما أفحمتني:

– أما زلت تعتقد أنّ ثمّة إجابة واحدة منطقيّة كافية لشرح أسباب انتحار البعض؟

– قبل وفاته، كتب جان-كريستوف رسالة لي يشرح فيها أنّه أغرم بامرأة لكنّها لم تبادله الحبّ.

– حبّ من طرف واحد، ذلك هو مصير كثر.

– بعض الجدّية من فضلك.

– أنا بغاية الجدّية، للأسف.

– هل كنت على علم بتلك القصّة؟

– كلّمني جان-كريستوف بالأمر، أجل.

لسبب أجهله تمامًا، كان غراف، مرشدي وناصحي والشخص الأكثر كرمًا ورهفًا الذي صادفته في حياتي، يقدّر زيلي بوكمانز.

– كنت تعرفين تلك المرأة؟

– نعم.

– ومن هي؟ مكتبة t.me/ktabrwaya

– أنتَ تسقمني!

– إنّها المرّة الثانية اليوم التي تُقال لي.

– ولن تكون الأخيرة في رأيي.

– من هي تلك المرأة؟

– إن كان جان-كريستوف قد كتم ذلك عنك، فلستُ أنا من سيفصح لك، قالت متنهّدة.

لم تكن مخطئة في كلامها وهذا ما آلمني كثيرًا. لكنّني كنتُ أعرف السبب.

– لم يُخبرني لشدّة حيائه.

– احترِم حياءه إذًا.

– سوف أعطيك ثلاثة أسماء وقولي لي إذا كنتُ مخطئًا، اتّفقنا؟

– لن نمارس هذه اللعبة التافهة. لا تُدنِّس ذكرى الموتى.

ومع ذلك، كنتُ أعرف زيلي ما يكفي لأدرك أنّها لن تقاوم هذه اللعبة الدنيئة. وذلك لأنّ القائمة على المكتبة ستحظى بشيء من السطوة ولو بضع ثوانٍ.

وبالفعل، فيما كانت ترتدي سترتها المخمليّة المضلَّعة، عدلت عن موقفها:

– لو أردت اقتراح اسم، بمَن تبدأ؟

كان الأوّل حاضرًا:

– لم تكن والدتي، أليس كذلك؟

– لا! ولكن من أين تنبش تلك الأفكار؟

نزلت درجات المنصّة.

– أنتِ إذًا؟

قهقهت بشدّة:

– حبّذا، لكن لا.

اجتازت قاعة المدرَّج وصولًا إلى المخرج.

– أغلقِ البابَ بعد خروجك، اتّفقنا؟ قالت لي من بعيد.

ارتسمَت ابتسامة رديئة على وجهها. بقيت أمامي فرصة أخيرة:

– كانت فينكا، لا؟

– انتهى وقتك. باي باي توماس! هتفَت وهي تُغادر.

.6

بقيت على المنصّة، وحيدًا في مدرَّج الأشباح هذا، فيما بقي الباب مفتوحًا في محاذاة اللوح الأسود. ما زلتُ أذكر تقريبًا تلك الحجرة المُلحَقة التي كانت تُسمّى أحيانًا «سكريستيا». دفعتُ الباب لأتبيّن

ما إذا كان شيء قد تبدَّل. لا تزال حجرة منخفضة السقف، لكنّها رحبة ما يكفي، وتصلح لشتّى الاستعمالات: كواليس لتمارين الأداء، مخزنًا للأزياء والمعدّات، ومكان حفظ الوثائق.

وفي آخر القاعة، رفوف معدنيّة تحوي ملفّات وعلبًا من كرتون. لكلّ سنة دراسيّة علبتها الخاصّة بها. عدتُ بالزمن إلى العام الدراسي 1992-1993: وجدتُ في الداخل مناشير، مُلصقات إعلانيّة ودفتر موليسكين سميكًا، حيث وثّقت أرقام تذاكر عروض مسرحيّة مختلفة، قسائم طلبات شراء، فواتير صيانة القاعة، إضافة إلى تكاليف إدارة المعدّات.

كلّها موثَّقة في فهارس ولوائح منظَّمة، ليس بخطّ يد أمّي الرقيق والمتقارب الحروف، بل بخطّ أعرض، مُنساب، مُستدير ومُتباعِد الحروف، خطّ زيلي بوكمانز. تناولتُ الدفتر ودنوت به من النافذة الوحيدة، لأستطلع البيان المخصَّص للمعدّات. في الوهلة الأولى، لم أتبيَّن ما يستحقّ الذكر، لكنّ القراءة الثانية أنبأتني بشيء مهمّ: في 27 مارس 1993، تاريخ جردة الربيع، كانت زيلي قد ذكرت:

1 شعر مستعار أصهب مفقود

قرّرتُ تأدية دور محامي الشيطان – هذه المعلومة لا تثبت أيّ شيء، فالمعدّات سريعة التلف، ومن النادر ألّا يختفي أحد الأزياء أو الملحقات، أو يُفقَد. ومع ذلك... شعرتُ بأنّني أخطو خطوة إضافيّة صوب الحقيقة. بيد أنّها حقيقة مرّة ومحزنة، تلك التي أدنو منها وإنّما بالمقلوب.

أغلقتُ الباب وغادرتُ المدرَّج عائدًا إلى المكتبة. وضّبتُ أغراضي في حقيبتي وعدتُ أدراجي إلى المدخل، حيث مكتب الاقتراض.

كانت بولين دولاتور منهمكة بممارسة سحرها على تلميذين من الصفوف التمهيديّة: عيني غزال، ضحكة مفتعلة بعض الشيء، شعر نصف مسرّح إلى الخلف، فَتَيين أشقرين طويلَي القامة، مفتولَي العضلات، وبحسب لباسيهما، حديثهما وتعرّقهما الشديد، كانا يعودان من جولة ضروس في كرة المضرب.

– شكرًا للمساعدة، قلت لها وأنا أعيد أعداد «كورييه سود».

– من دواعي سروري يا توماس.

– هل في وسعي الاحتفاظ بالمجلّد السنوي؟

– لا بأس، سأتدبّر أمري مع زيلي، لكن فكِّر في إعادته ذات يوم.

– ثمّة أمر أخير. ينقص عدد أكتوبر 1992.

– أجل، هذا ما لاحظتُه. لم يكن العدد في مكانه المعهود. ففتّشتُ لأرى ما إذا كان قد وقع خلف الرفوف، لكنّني لم أعثر عليه.

كان لاعبا كرة المضرب يحدجانني بنظرات شرّيرة. لا بدّ يستعجلان ذهابي. والاستئثار مجدّدًا باهتمام بولين الشغوف.

– لا يهمّ، قلتُ.

كنت قد استدرتُ وهممت بالرحيل، حينَ أمسكت بكمّ قميصي.

– مهلًا! لقد حوّل الليسّيه وثائق «كورييه سود» كلّها رقميّةً في العام 2012.

– ويمكنك العثور على العدد؟

جرّتني إلى مكتبها الخاصّ فيما غادر الرياضيّان المرذولان خائبَين.

– حتّى أنّني سأطبع لك نسخة عنه.

– عظيم! شكرًا.

استهلّت عمليّة الطباعة التي استغرقت أقلّ من دقيقة، ثمّ دبَّست الأوراق بعناية قبل أن تسلّمني العدد. لكن، فيما مددتُ يدي لألتقطه، عادت فسحبته منّي فجأةً:

– ألا يستحقّ هذا دعوة إلى العشاء؟

وإذا بثغرة شخصيّة دولاتور تنكشف: ميلًا إلى الإغواء، دائمًا وملتهبًا، ولا بدّ من أنّه يفقدُها الأمان ويتطلّب منها طاقة مهولة.

– لا أظنّك تحتاجين إلى خدماتي لكي تتلقّي دعوة إلى العشاء.

– هل أترك لكَ رقم هاتفي المحمول؟

– لا بل العدد الذي تفضَّلتِ بطبعه للتوّ فحسب.

دوَّنتْ رقمها على النسخة المطبوعة والبسمة لا تفارق شفتيها.

– وماذا تريدين أن أفعل به يا بولين؟

أجابتني كأنّ الأمر بدهيّ:

– أعجبُك وتُعجبني، وتلك بداية لا بأس بها، لا؟

– لا تسير الأمور في هذا الشكل.

– بل تسير هكذا، ومنذ قرون.

قرّرتُ التوقّف عند هذا الحدّ، لئلّا أمنحها فرصة للتمادي. مددتُ يدي بكلّ بساطة فانتهت هي بالإذعان وأعطتني العدد الذي خربشت عليه. ظننتُني نجوتُ من هذا الوضع الحرج، لكنّها لم تستطع المقاومة فأتحفتني بإهانة أخيرة.

– اغرُب عن وجهي! أحمق!

ولكن، ما بالهم جميعًا يحتفون بي اليوم؟! انتظرتُ ريثما أصل إلى سيّارتي لأتصفّح العدد. كانت الصفحة التي تهمّني تتناول ملخّصًا عن المسرحيّة المقتبسة من «العطر». كان التلاميذ قد حرّروا المقالة فكتبوا: «عرض مؤثّر صادم، مطبوع بعمق أداء الممثّلتين الرئيستين». لكنّني كنتُ منهمكًا أكثر في مشاهدة صور الأمسية.

ففي أكبرها، ظهرت فينكا وفاني، الواحدة في مواجهة الأخرى: فتاتين بخصل شعر ناريّة، كأنّهما توأمان. تذكّرتُ الفيلم «فرتيغو» لهيتشكوك والثنائي مادلين إيلستر وجودي بارتون: وجهان لامرأة واحدة.

على خشبة المسرح، بقيت فينكا هي هي. لكنّ فاني تحوَّلت بالكامل. عاودَني الحديث الذي دار بيننا بداية فترة بعد الظهر. فراودني تفصيل كنتُ أغفلته، وعندذاك عرفتُ أنّها لم تخبرني بالحقيقة كاملة.

الصبيّة والموت

13

ساحة الكارثة

أحيانًا لا تحمل الحقيقة جمالًا ولا طيبة.

أنطوني بورغيس

1.

السابعة مساءً.

غـادرتُ الليسّيه لأمرّ مجدّدًا بمستشفى «لا فونتون». هذه المرّة، متجاوزًا مكتب الاستقبال، صعدتُ مباشرةً إلى قسم أمراض القلب. عندما خرجتُ من المصعد، صادفتُ ممرِّضة ببنطال وبلوزة زهريّين، فسألتني:

– أنتَ ابن أنابيل دوغاليه!

كانت بشرتها مُحدقة السواد، جديلات شعر تلوّحها تموّجات شقراء، ابتسامة مُشرقة، كانت تلك الشابّة شعاع نور وفرح في أجواء المستشفى الكامدة الضجرة: لورين هيل فترة أغنية «اقتلني بهداوة».

– أدعى صوفيا، قالت معرِّفة بنفسها. أعرف والدتك معرفة وثيقة. لا تتحدّث سوى عنكَ، كلّما أتت لزيارتنا!

– لا بدّ من أنّ الأمور اختلطت عليك بيني وبين أخي جيروم. هو مَن يعمل مع «أطبّاء بلا حدود».

كنتُ قد اعتدتُ مدائح أمّي، بل وحفظتها عن ظهر قلب، حيال ابنها البكر، وما كنتُ أشكّ البتّة بأنّ جيروم يستحقّ تلك الإطراءات وعن جدارة. في أيّ حال، لن أكون يومًا في المستوى المطلوب لمنافسة شخص يمضي يوميّاته في إنقاذ حياة الناس، في بلدان دمّرتها الحروب أو الكوارث الطبيعيّة.

– لا أبدًا، بل أنتَ مَن أقصد: الكاتب. حتّى أنّك ذيّلتَ إحدى رواياتك بإهداء لي بوساطة والدتك.

– عجبًا! لا أظنّ...

لكنّ صوفيا أبت الاستسلام:

– الكتاب معي. هنا في صالة استراحة الممرّضات! تعال وانظر، في الغرفة المجاورة.

استيقظ فضولي، فتبعتها إلى آخر الرواق حتّى صالة تمتدّ طولًا. هناك، ناولتني نسخة من روايتي الأخيرة، «بضعة أيّام بصحبتك». وبالفعل، كانت تحمل إهداءً: إلى صوفيا، على أمل أن تمنحك قصّتي هذه سببًا للاستمتاع والتأمُّل. مع محبّتي، توماس دوغاليه. إلّا أنّه لم يُخَطّ بيدي، بل بيد أمّي! راودني مشهد سوريالي: والدتي تقلِّد توقيعي استجابةً لطلب القرّاء.

– وهل وقّعتُ الكثير من هذه؟

– حوالى العشرة. فكثرٌ يقرأون كتبك هنا في المستشفى.

حيّرني سلوكها. لقد فاتني أمر ما.

– والدتي... هل تتعالج هنا منذ وقت طويل؟

– منذ عيد الميلاد الفائت، في ما أظنّ. المرّة الأولى التي أُوكلتُ الاعتناء بها، كانت أثناء دوام أمسية الميلاد. فقد تعرّضت لأزمة قلبيّة في منتصف الليل.

سجّلتُ المعلومة في إحدى طيّات دماغي.

– أتيتُ لمقابلة فاني براهيمي.

– غادرت الطبيبة للتوّ، أجابتني صوفيا. هل تريد أن تكلّمها في شأن والدتك؟

– أبدًا. فاني صديقة قديمة. لقد تابعنا دراستنا معًا منذ الابتدائيّة.

هزّت صوفيا رأسها:

– أجل، أخبرتني الطبيبة بذلك حين أوكلتني أمر والدتك. مؤسف أن تكون قد أتيت بعد لحظات قليلة على مغادرتها ليس إلّا.

– يجب أن أكلّمها، الأمر مهمّ جدًّا، هل لديك رقم هاتفها المحمول؟

تردّدت صوفيا هنيهة، وبادرتني بابتسامة متأسّفة:

– لا يحقّ لي أن أعطيك الرقم، صدقًا. لكن لو كنت مكانك لذهبت في نزهة إلى بيو...

– لماذا؟

– إنّه مساء السبت. غالبًا ما تتناول العشاء في ساحة الأركاد، برفقة الدكتور سينيكا.

– تييري سينيكا؟ المختصّ في البيولوجيا؟

– أجل.

تذكّرته في الحال: أحد تلاميذ الثانوي الثالث-العلمي، وقد دخل سانت-إكز، قبلنا بعام أو اثنين. ثمّ فتح مختبر تحاليل طبيّة في

بيو 3000، موقع يعجّ بالحركة في أسفل البلدة، وحيث يجري والداي تحاليل الدم وفحوصاتهم الدوريّة.

– إذًا، سينيكا حبيب فاني؟ سألتها.

– يمكننا القول، وافقتني بشيء من الارتباك، إذ وعت أنّها أفرطت في ثرثرتها.

– حسنًا، أشكرك.

كنتُ قد وصلت إلى الطرف الآخر من الرواق، حين سألتني صوفيا:

– ومتى تصدر روايتك المقبلة؟

تظاهرتُ بأنّني لم أسمع، واندفعتُ داخل المصعد. كان السؤال هذا يفرحني عادةً. تلميحة لطيفة من قرّائي. لكنّني أدركتُ حالما انغلق باب المصعد، أنّه لن تكون هناك رواية مقبلة. فيوم الإثنين المقبل، سيعُثر على جثّة ألكسيس كليمان ويُزجّ بي في السجن خمس عشرة سنة أو ربّما عشرين. وسوف أخسر إلى جانب حريّتي، سبب وجودي، السبب الذي يشعرني بأنّني حيّ حقًّا. للهروب من تلك الأفكار المميتة، نظرتُ تلقائيًا إلى هاتفي. قد فاتني اتّصال من والدي – الذي ما كان يتّصل بي على الإطلاق – ورسالة نصيّة من بولين دولاتور التي تدبّرت أمرها لا أدري كيف، للحصول على رقمي: أعتذر عمّا جرى منذ قليل. لا أعرف ماذا دهاني. أحيانًا أرتكب الحماقات. ملاحظة: وجدتُ عنوان الكتاب الذي ستؤلّفه ذات يوم عن فينكا: الصبيّة والليل.

.2

عدتُ إلى سيّارتي وسلكتُ الطريق في اتّجاه قرية بيو. حاولتُ جاهدًا التركيز على الطريق، من دون جدوى. فقد شحذت انتباهي تلك

الصورة التي اكتشفتُها في مجلّة الليسّيه. بشعرها المستعار الأصهب، كانت فاني – التي لطالما عرفتها شقراء – تبدو شبيهة بفينكا إلى حدّ مقلق. ليس لون الشعر فحسب، بل قوامها ووقفتها، وملامح وجهها، وشموخ رأسها. تلك التوأمة وإنّما ذكّرتني بالتمارين الارتجاليّة التي اعتادت أمّي اقتراحها على تلاميذها في نادي المسرح: إعادة تشكيل حالات حقيقيّة وديناميكيّة. تمارين لطالما استهواها اليافعون. تقضي بتجسيد شخصيّات عدّة متتالية، من تلك التي نصادفها في الشوارع، في محطّة الباصات، أو في المتاحف. كانت تُعرف بلعبة الحرباء. لعبة لطالما برعت فاني فيها.

أخذت فرضيّة تتشكّل رويدًا رويدًا في ذهني. ماذا لو عمدت فاني وفينكا إلى تبادل الأدوار؟ وفي صباح ذلك الأحد الشهير، ماذا لو كانت فاني هي التي استقلّت القطار المتوجّه إلى باريس؟ ربّما بدا الأمر عجيبًا، لكنّه ليس مستحيلًا. ما زالت ذاكرتي تحتفظ بمقتطفات من الشهادات التي جمعها كلّ الذين حاولوا التحقيق في القضيّة. ماذا قال حارس الليسّيه على وجه التحديد، وعمّال البلديّة، ثمّ ركّاب القطار السريع المتوجِّه إلى باريس، أو أيضًا حارس الفندق الليلي؟ إنّهم صادفوا امرأة شابّة، صهباء، بل وصهباء جميلة، فتاة ذات عينين فاتحتين وشعر بلون الصدإ. وتلك أوصاف مبهمة ما يكفي لتتناسب مع فرضيّتي. ربّما أمسكتُ أخيرًا به، ذلك الخيط الذي لطالما بحثتُ عنه طوال هذه السنوات! ذلك الاحتمال المنطقي في أن تكون فينكا في قيد الحياة. طوال مساري، رحتُ أستعيد ذلك السيناريو مرارًا وتكرارًا في ذهني، علّني أمحضه شيئًا من الحقيقة. لسبب ما زلتُ أجهله، غطّت فاني فرار فينكا. فالجميع راحوا يبحثون عن فينكا في باريس، لكن لعلّها لم تركب ذلك القطار أساسًا.

بلغتُ مَداخل بيو فيما كانت الشمس ترسل شعاعها الأخير. كان موقف السيّارات العامّ مكتظًّا مُتخَمًا: رتل من العربات ينتظر وإشاراته المضيئة بالصفّين، ريثما يتفضّل آخرون بالرحيل. بعدما جلتُ حول ساحة القرية مرّتين من دون أن أتمكّن من ركن سيّارتي، استسلمتُ فسلكتُ نزولًا درب الباشيت التي تصل مباشرةً إلى وادي الكومب: أخيرًا، وجدتُ مكانًا على بُعد ثمانمئة متر في الأسفل، أمام ملاعب كرة المضرب. وأتت النتيجة بالتعادُل، فقد أُجبرتُ على معاودة صعود الدرب المتعرِّجة الشاقّة، بين ترنُّح ولهاث: هو منحدر وعر بنسبة 20 في المئة ينال من سيقانكم وأنفاسكم. كنت على وشك بلوغ خواتيم مشقّتي حينَ وردني اتّصال جديد من أبي.

– أنا قلق يا توماس. والدتك لم تعد بعد. وهذا ليس بأمر طبيعي. فقد خرجت لتبتاع بعض الحاجات وحسب.

– اتّصلتَ بها، في ما أظنّ؟

– هذا بالضبط ما يقلقني. لقد تركت هاتفها في البيت. ما عساي أفعل الآن؟

– لستُ أدري يا أبي. متأكّد من أنّك لا تبالغ في قلقك هذا؟

لقد أذهلني ردّ فعله حقًّا، خصوصًا أنّ أمّي أمضت حياتها في ذهاب وإياب كالرحّالة. ففي أوائل العام 2000، كانت انخرطت في منظّمة غير حكوميّة، تؤمّن الدراسة لبنات في أفريقيا، وغالبًا ما كانت تتغيّب عن المنزل، الأمر الذي لم يزعج زوجها أو يقلقه يومًا.

– لا، أجاب ريشار. لدينا مدعوّون، وهي ما كانت لتتركني هكذا من دون إنذار!

خفتُ أن أفهم. كان ريشار يشكو ويتذمّر، لأنّ زوجته ليست موجودة لتهتمّ بالأعمال المنزليّة!

– إن كنتَ قلقًا حقًّا، فلتبدأ الاتّصال بالمستشفيات.

– حسنًا، قال مغمغمًا.

عندما أقفلتُ الخطّ، كنت قد بلغتُ أخيرًا مدخل المنطقة المخصّصة للمشاة. كانت القرية أغرب وأعجب حتّى ممّا أذكره. ولئن بقيت بعض الآثار من هيمنة فرسان الهيكل القديمة، فقد أخذت الشعوب المتوافدة من شمال إيطاليا على عاتقها مهمّة هندسة خطوط القرية. في هذه الساعة من النهار، كانت واجهات الأبنية تعكس تلويناتها المغراء والبرونزيّة المعتَّقة، تموّجات دافئة على الأزقّة المبلَّطة، فيشعر زائرها بأنّه يتنزّه في بلدة صغيرة من سافون أو جين.

كان الشارع الرئيسي محاطًا من الجانبين بمحالّ صغيرة تعرض منتجاتها الريفيّة التي لا تتبدَّل أبدًا (صابونًا، عطورًا، أدوات حرفيّة من خشب الزيتون)، لكن كذلك الأمر بمحترفات فنّية تستعرض أعمال الزجّاجين، الرسّامين والنحّاتين المحليّين. أمام ترّاس إحدى حانات النبيذ، كانت صبيّة تقتصّ بسرور وحبور من رصيد أغاني الكرانبيريز، متسلِّحة بغيتارها. بيد أنّ الحشد المتحلّق حولها، والذي راح يصفِّق بيديه موقِّعًا إيقاعها الصاخب، أضفى لمسة مرحة على أولى ساعات الأمسية هذه.

مع ذلك، في ذهني، ظلّت بيو مربوطة بذكرى محدّدة. ففي الصفّ المتوسّط الأوّل، كنت أجريتُ أوّل عرض لي في حياتي المدرسيّة، حول قصّة محليّة لطالما سحرتني: في أواخر القرن التاسع عشر ومن دون سبب وجيه، انهارت عمارة كبيرة في أحد شوارع البلدة. وقعت المأساة مع حلول المساء، لحظة اجتمع سكّان المبنى حول مائدة كبيرة، احتفاءً بالمناولة الأولى لأحد الأولاد. في غضون ثوانٍ معدودة، انتهى المساكين هؤلاء مسحوقين مطمورين. يومذاك، انتشل فريق الإنقاذ حوالى ثلاثين جثّة من بين الركام. ظلّت تلك

الكارثة مطبوعة في الأذهان والنفوس أمدًا طويلًا، وبعد مضي قرن كامل، لا تزال آثار الصدمة واضحة بما أنّ أحدًا لم يجرؤ على إعادة ترميم ذاك المبنى في موقع الأنقاض، إذ بقي فارغًا مهجورًا. تلبّس المكان اليوم تسمية «ساحة الكارثة».

عند وصولي إلى ساحة الأركـاد، صُعقتُ لرؤيتها على حالها، تمامًا كما تركتُها منذ خمس وعشرين سنة خلت. كانت تمتدّ طولًا في طول، حتّى كنيسة سانت-ماري-مادلين، يحيط بها رواقان بقناطر، تعلوهما أبنية صغيرة ملوَّنة بطابقين أو ثلاثة.

لم أحتج البحث طويلًا عن تييري سينيكا. جالسًا إلى إحدى طاولات مقهى الأركاد، أومأ لي بيده، كأنّه ينتظرني أنا لا فاني. كان شعره بنّيًا وقصيرًا جدًّا، له أنف متناسق، وسكسوكة مشذّبة بدقّة، لم يتبدّل سينيكا كثيرًا. كان لباسه مريحًا عمليًّا: بنطالًا من كتّان، قميصًا قصيرًا، كنزة مرميّة بلامبالاة على كتفيه، كأنّه قفز للتوّ عن سطح سفينة. ذكّرني بإعلانات أحذية السيباغو القديمة، أو تلك اللافتات الانتخابيّة في أيّام مراهقتي، حيث يقصد مرشّحو حركة التجمُّع للجمهوريّة أن يظهروا بمظهر ودّي ومُنشرح. وإنّما غالبًا ما كانت النتيجة تأتي بعكس النوايا.

– مرحبًا تييري، بادرته وأنا أوافيه تحت الممرّ المسقوف.

– مساء الخير توماس. لم أرك منذ زمن.

– أبحث عن فاني. قيل لي أنّها تتناول العشاء معك.

بحركة خاطفة دعاني إلى الجلوس قبالته.

– لن تتأخّر. أخبرَتني أنّها التقتك مجدّدًا هذا الصباح.

استحال لون السماء ورديًّا، وراحت تنثر أنوارها البرّاقة كحبّات ملبَّس ملتمعة على الأحجار القديمة، فيما عبق الجوّ بروائح الحساء بالبستو والأطباق الشهيّة التي تُطهى على نار هادئة.

– لا عليك، لن أفسد عليكما الأمسية، بل أودّ التحقّق من شيء فحسب، لن يستغرق الأمر سوى دقيقتين.

– لا مشكلة.

كان مقهى الأركاد مؤسّسة بيوطيّة بامتياز. بيكاسو، فرنان ليجيه، وشاغال، جميعهم كانوا من روّاده الأوفياء ذات يوم. كانت الطاولات المكسوّة شراشف مزيّنة بالمربّعات الزاهية، تملأ كلّ زاوية.

– أما زال المقهى جيّدًا؟ غالبًا ما كنّا نرتاده أنا وأهلي في السابق.

إذًا، لن تشعر بالغربة. حتّى لائحة الطعام ما زالت هي هي منذ أربعين سنة.

ناقشنا هنيهات محاسن الفلفل الحلو بالزيت، حبّات الكوسى النضرة المحشوّة، الأرنب بالأعشاب، مرورًا بدقّة خطوط العارضات الخشبيّة البارزة التي تسند الرواق الخارجي. ثمّ خيّم صمت طويل قرّرتُ أن أملأه أخيرًا.

– إذًا، هل يسير العمل في شكل جيّد في مختبرك؟

– لا تزعج نفسك في محادثتي يا توماس، ردّ بنبرة شبه عدائيّة.

وعلى غرار بيانيلي هذا الصباح، أخرج عالم البيولوجيا سيجارة إلكترونيّة، وشرع يسحب أنفاسًا معطّرة بالكراميل. رحتُ أتساءل، بمَ قد يفكّر الرجال أمثال فرنسيس أو والدي، أمام أشخاص عصريّين يتلذّذون حتّى أقصى حدّ في شمّ موادّ تافهة بنكهة السكاكر أو شرب مخفوقات ديتوكس مصرِّفة السموم بالسبانخ والخضار، عوضًا عن كأس من الويسكي؟

– تعرف تلك النظريّة العتيقة والمخبولة عن توأم الروح؟ أردف تييري سينيكا وهو يرمقني بنظرات ملؤها التحدّي. تلك التي تزعم أنّ جميعنا في بحث دائم عن نصفنا الآخر، النصف الذي يكمّلنا.

الشخص الأوحد والوحيد الذي يستطيع أن يشفينا من عزلتنا إلى الأبد.

أجبته من دون أن أهتزّ:

– في كتابه «الندوة»، يعزو أفلاطون هذه الصفة إلى أرسطوفانيس، ولا أظنّها غبيّة ولا مخبولة، بل أجدها شاعريّة وأحبّ رمزيّتها.

– أجل، طبعًا، نسيتُ أنّك كنتَ رومانسي عصرك، قال هازئًا.

بما أنّني لم أفهم ما يرمي إليه حقًّا، تركته يواصل:

– حسنًا، فاني أيضًا تؤمن بذلك. أفهم أن نفكِّر على هذا النحو في سنّ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، لكن مع الدنوّ من الأربعين، يصبح الأمر مدعاة للقلق، بل ويطرح مشكلة حقيقيّة.

– ما الذي تحاول قوله يا تييري؟

– ثمّة أناس لا يزالون عالقين في طيّات الزمن الغابر. أناس لم يمضِ ماضيهم بعد.

شعرتُ بأنّ سينيكا كان يرسم مواصفاتي أنا ليس إلّا، ولكنّه لم يكن يعنيني بكلامه.

– هل تعرف ما تتخيّله فاني في قرارة نفسها؟ أنّك ستعود إليها في يوم من الأيّام. هي تؤمن حقًّا بأنّك ستعي فجأةً بين ليلة وضحاها، أنّها امرأة حياتك وستهرع إليها على صهوة جوادك الأبيض لتحملها نحو مصير أفضل. في طبّ النفس، يُعرف هذا بـ...

– أظنّك ترسم صورة مبالغة بعض الشيء، قاطعتُه.

– حبّذا لو...

– هل أنتما معًا منذ فترة طويلة؟

ظننته سيوبّخني واضعًا حدًّا لوقاحتي، لكنّه اختار أن يكون صادقًا:

– خمس سنوات أو ستًّا. عرفنا فترات من السعادة الخالصة وأوقاتًا أخرى عصيبة. لكن أتَعلَم؟ حتّى في لحظاتنا السارّة، حتّى عندما نختبر أمورًا جميلة، كنتَ دومًا تشغل تفكيرها. فلا يمكن فاني أن تمتنع عن التعليق بأنّ اللحظة قد تكون أعمق، بل وأكمل لو كانت معك أنت.

خافض العينين، كان تييري سينيكا يلفظ كلماته بصوت خافت، مخنوق. لم يكن ألمه مصطنعًا.

– تعلم؟ من الشاقّ التنافس معك أنت، الفتى غير الفتيان كلّهم. ولكن، ما الذي يميّزك من سواك يا توماس دوغاليه، ما خلا أنّك هادِم العلاقات الزوجيّة وبائع الأوهام؟

حدجني بنظرة من الحقد والكرب، كأنّني داؤه ودواؤه في آن. لم أسعَ حتّى إلى تبرئة نفسي، لشدّة ما بدت أقواله مُغالية.

نكش سكسوكته نكشًا، ثمّ أخرج هاتفه من جيبه ليريني صورة كان جعلها خلفيّة شاشته: صبيًّا في الثامنة أو التاسعة يلعب كرة المضرب.

– ابنك؟

– نعم، هذا ماركو. حصلت أمّه على حقّ الحضانة واصطحبته إلى الأرجنتين، حيث تعيش مع رجلها الجديد. أمّا أنا فأكاد أموت من شدّة اشتياقي إليه.

كانت قصّته مؤثِّرة، لكنّ هذا السيل المفاجئ من الاعترافات العاطفيّة الذي انصبّ عليّ من شخص لم أكن يومًا مقرّبًا منه، ضايقني وأربكني.

– أريد ولدًا آخر، تابع سينيكا مؤكّدًا. وأودّ أن أنجبه من فاني، لكنّ عائقًا مهمًّا يردعني عن أخذ المبادرة. وهذا العائق هو... أنت يا توماس.

رغبتُ في الردّ بأنّني لستُ طبيبه النفسي وبأنّ العائق ليس إلّا هو نفسه، إن كانت فاني ترفض الإنجاب. لكنّه كان تعيسًا ومضطربًا إلى درجة أنّني لم أجد القوّة لأرديه بالضربة القاضية.

– لن أنتظرها إلى ما لا نهاية، تابع مهدِّدًا.

– تلك مشكلتك أنت، لا مشـ...

لم أنهِ جملتي. فقد أطلّت فاني فجأةً تحت القناطر وما لبثت أن جمدت حين رأتنا جالسين إلى الطاولة. أومأت إليّ – أنِ اتبعني – واجتازت الساحة لتدخل الكنيسة.

– سررتُ بمجيئك يا توماس، عاجلني عالم البيولوجيا فيما كنتُ أقوم عن الكرسي. ثمّة ما لم تتمّ تسويته آنذاك وآمل بأنّك ستتولّى ذلك بنفسك هذا المساء.

استأذنتُ من دون أن أصافحه وابتعدتُ متقدِّمًا نحو فناء الكنيسة الذي تفترشه حصى رماديّة وزهريّة، لأنضمّ إلى فاني في الداخل.

.3

فور دخولي، استقبلتني رائحة البخور والخشب المدخَّن لتغمرني بأجوائها الخشوعيّة. كانت الكنيسة جميلة ببساطتها، وبدرجها الذي ينحدر مباشرةً من المدخل الرئيسي، في اتّجاه الجناح المركزي. جالسة عند أسفل الدرجات، كانت فاني تنتظرني أمام حاملة نذور ضخمة تحترق فيها عشرات الشموع.

المكان الأنسب للاعتراف؟

كانت تلبس الجينز عينه، وتنتعل الحذاء الخفيف ذاته وترتدي القميص عينه كما رأيتها هذا الصباح. لكنّها زرّرت معطفها

الترينشكوت وقد تكوّمت مرجعةً ركبتيها نحو صدرها، كأنّها تكاد تتجمّد من شدّة البرد.

– مرحبًا يا فاني.

كان وجهها قد تحوَّل شاحبًا أبيض، وعيناها متوّرمتين وملامحها مُرهَقة.

– يجب أن نتحدّث، أليس كذلك؟

أومأت برأسها إيجابًا. هممتُ أسألها عن الشعر المستعار والسيناريو الذي كنتُ ركّبتُه وأنا في السيّارة، لكنّها رفعت عينيها نحوي وما قرأتُه فيهما من أسًى وكرب أجفلني إلى حدّ أنّني أوّل مرّة في حياتي، ما عدت واثقًا في أنّني أودّ معرفة الحقيقة.

– كذبتُ عليك يا توماس.

– متى؟

– اليوم، في الأمس، وأوّل من أمس، ومنذ خمس وعشرين سنة... كذبتُ عليك وكنت أكذب عليك طوال الوقت. ولا شيء ممّا رويته لكَ اليوم هو الحقيقة.

– كذبت عليّ حينَ أخبرتني أنّك على علم بوجود جثّة داخل جدار الجمنازيوم؟

– لا، هذا كان صحيحًا.

فوق رأسها، كانت لوحة مزخرفة تلتمع بأنوار دافئة، حمراء، في ضوء الشموع المرتجفة. وفي وسط الإطار الخشبي المُذَهَّب، كانت العذراء مريم أمّ الرحمة تمسك الطفل يسوع بيد وبالأخرى سبحة الورديّة، الحمراء اللون، الملتهبة كالنار.

– أعرف منذ خمس وعشرين سنة أنّ ثمّة جثّة مطمورة في قاعة الرياضة، قالت متابعة.

تمنّيتُ لو يتوقّف الزمن. لم أشأ أن تروي لي ما تبقّى من القصّة.

– لكنّني ما كنت أعرف أنّها جثّة ألكسيس كليمان، إلى أن أطلعتني بنفسك، واصلت فاني.

– لم أفهم.

بل لا أريد أن أفهم.

– ثمّة جثّتان داخل الجدار اللعين! صرخت في وجهي وهي تنهض. لم أكن أعلم بشأن كليمان، فأحمد لم يخبرني بشيء، لكنّني كنت على علم بالجثّة الأخرى.

– أيّ جثّة أخرى؟

كنتُ على يقين أنّها ستجيبني، فشرع دماغي يؤلّف الذرائع والخطط البديلة ليرفض الحقيقة جملةً وتفصيلًا.

– جثّة فينكا، قالت أخيرًا.

– لا، أنتِ مخطئة.

– هذه المرّة، أقول لك الحقيقة يا توماس: فينكا ماتت.

– ومتى ماتت؟

– ليلة مقتل ألكسيس كليمان. في ذلك السبت الشهير. في 19 ديسمبر 1992، يوم هبوب العاصفة الثلجيّة.

– وكيف يمكنك أن تجزمي؟

نظرت فاني أيضًا إلى لوحة سيّدة الورديّة. خلف العذراء مريم، كان ملاكان مكلَّلان بهالة يفتحان ذيل ثوبها واسعًا، داعيين النفوس المتواضعة إلى اللجوء إلى حمايتها. في تلك اللحظة، اجتاحتني رغبة في الانضمام إلى جمعهم، هروبًا من جراح الحقيقة وعذاباتها. بيد أنّ فاني رفعت رأسها لتنظر في عينيّ، وبكلمة واحدة، هدمَت كلّ ما عنى لي في الحياة:

– لأنّني أنا مَن قتلها يا توماس.

فاني

السبت 19 ديسمبر 1992

جناح الطلّاب نيكولا-دو-ستايل

مجهَدَة منهوكة، رحتُ أسلسل التثاؤبات، الواحد تلو الآخر. كانت الملاحظات التي دوّنتُها صفحات صفحات خلال صفوف البيولوجيا الجزيئيّة ترتجف متراقصة أمام عينيّ، لكنّ دماغي ما عاد قادرًا على تجرّعها. أخذتُ أصارع النعاس، فيما اخترقني الصقيع حتّى العظام. على قاب قوسين من لفظ أنفاسه، ما عاد جهاز تدفئتي الموقَّت ينفث إلّا هبّات فاترة مليئة بالغبار. أذكر أنّني شغّلتُ شريط الموسيقى لأبقى صاحية. من مكبِّر صوت جهاز الهاي-فاي، راحت أنغام الموسيقى تستغيث مكتئبة، أغنية تلو أخرى... عاكسةً كالمرآة شجن روحي اليتيمة.

مسحتُ بكمّ كنزتي البخار على زجاج نافذة غرفتي. في الخارج طالعني مشهد خيالي. حرم الكليّة فارغ، مهجور وأخرس، جامد تحت قشرة بيضاء برّاقة. تاه نظري في الأفق البعيد هنيهة، أبعد من السماء الرماديّة اللؤلؤيّة التي لا تزال تُسقط الثلج ندفًا ندفًا.

معدتي تعاني الأمرّين: حرقة تارةً وزقزقة طورًا. فأنا لم أتناول شيئًا من الطعام منذ الأمس. خزانة الأطعمة والثلّاجة فارغتان. شأنهما شأن جيبي. أدرك تمامًا أنّ عليّ الإذعان للنعاس والكفّ عن ضبط منبّهي على الساعة الرابعة والنصف فجرًا، لكنّ شعوري بالذنب يمنعني. فأنا أفكّر في برنامج مراجعة الدروس الذي وضعتُه بجهد جهيد لمناسبة أسبوعَي العطلة. وأفكّر أيضًا في عامي الدراسي الأوّل اللعين في كليّة الطبّ، والذي سينتهي بتصفية ثلثي تلامذة صفّي. وأتساءل: هل من معنًى لكلّ ذلك؟ أو بالأحرى، هل أنا في المكان المناسب؟ هل رسالتي فعلًا أن أصبح طبيبة؟ وأيّ وجهة ستسلكها حياتي إن فشلتُ في المسابقة هذه؟ وكنت كلّما فكّرتُ في مستقبلي، بادرني مشهد كالح كئيب لا غير: ليس بمنبسط ثلجي أبيض حتّى، بل باقة لامتناهية من الرمادي: رمادي الإسمنت، رمادي المباني ورمادي الطرقات السريعة كما نوبات الصحو عند الخامسة فجرًا. ورمادي صالات المستشفيات، وذاك المذاق المعدني الرديء في فمك متى صحوتُ متعرِّقًا، دبِق الجسم بجانب جسم الشخص غير المناسب. أعرف تمامًا أنّ هذا ما ينتظرني، فأنا لم أتمتّع يومًا بشعلة الخفّة المرحة واللامبالاة والتفاؤل الدائم، التي يشهرها في وجه الجميع عدد كبير من تلامذة الليسّيه، بل وكلّما تخيّلتُ مستقبلي، رأيتُ الخوف والضجر والفراغ والهروب والوجع.

***

إلى أن... لمحتكَ أنتَ يا توماس! من خلال الزجاج، لاح طيفك تلويه الريح، واضحًا بارزًا وسط بياض وخمول بعد ظهر ذلك النهار الشتائي. وكما في كلّ مرّة، اختلج قلبي في صدري وانفرجت أساريري. فجأةً، ما عاد النعاس يثقلني. فجأةً رغبتُ في العيش وفي السير قدمًا. فحياتي

لن تكون رغيدة، هانئة وواعـدة، ومحمَّلة بالمشروعات الطموحة، بالرحلات والأسفار وضحكات الأطفال، إلّا معكَ أنت. أدركُ أنّ الدرب إلى السعادة ضيّقة، ولن أقوى على سلوكها إلّا معك. لستُ أدري بأيّ سحر ساحر تزول العذابات كلّها، والوحول السوداء التي أحملها داخلي منذ نعومة أظافري، حينَ نكون معًا. لكنّني أعرف أنّني من دونك، سأبقى وحيدة طوال أيّام حياتي.

لمحتُكَ يا توماس، لكنّ السراب الجميل سرعان ما عاد ليختفي كما ظهر، فقد فهمتُ أنّك لستَ هنا من أجلي أنا. سمعتُ وقع قدميك على الدرج، وتدخل إلى غرفتها هي. ما عدتَ تأتي من أجلي أنا، قَطّ، بل من أجل الأخرى. من أجلها هي. دائمًا هي.

عرفت فينكا أفضل ممّا عرفتها أنـت. وعرفت أنّ لديها ذلك «الشيء» في عينيها، وفي مشيتها، وحينَ تُرجِع بأناقة وخفّة، خصلة من شعرها خلف أذنها، أو يفترّ ثغرها عن ابتسامة من دون أن يبتسم حقًّا. وعرفت أيضًا أنّ هذا «الشيء» لم يكن ضارًّا فحسب، بل مُميتًا. فوالدتي كانت تتمتّع به أيضًا: تلك الهالة الشيطانيّة التي تُفقد الرجال صوابهم. أنتَ تجهل ذلك ولكن حين هَجَرَتنا، حاول أبي أن ينتحر. اعتلى طوعًا ركيزة من حديد صدئة في كتلة إسمنت لتخترق جسده. ومع ذلك، بسبب بوالص التأمين، لطالما زعمنا أنّها حادثة عمل، لكنّها كانت انتحارًا في الواقع. بعد الإهانات كلّها التي كالتها له أمّي، راح المغفَّل يزعم أنّه لا يستطيع الاستمرار من دونها، بل كان مستعدًّا لهجر أولاده الثلاثة القاصرين.

أمّا أنتَ يا توماس، فمختلف كليًّا، لكن يجب أن تتحرّر من تلك السطوة قبل أن تدمّرك. قبل أن تجعلك ترتكب أفعالًا قد تندم عليها مدى العمر.

***

ها أنتَ تطرق بابي فأسرِع لأفتح لك.

– أهلًا توماس، قلتُ لك وأنا أنزع نظّارتي الطبيّة عن عينيّ.

– مرحبًا فاني، أحتاج إلى أن تساعديني.

ثمّ رحت تشرح لي أنّ فينكا متوعّكة، وأنّها تحتاج إلى أدوية وإلى مَن يصغي إليها. ها أنت تنهَب صيدليّتي الصغيرة وتطلب منّي حتّى أن أعدّ لها الشاي. كالبلهاء، لم أجد إجابة سوى: سأتدبّر الأمر. وبما أنّ الشاي كان قد نفد لديّ، اضطررتُ إلى إعادة انتشال كيس صغير منه، من قعر سلّة المهملات.

طبعًا، فأنا لا أصلح إلّا لهذا: خدمة فينكا، العصفورة الصغيرة الجريحة. ولكن، مَن تظنّني؟ كم كنّا سعيدَين قبل أن تأتي وتهدم حياتنا! والآن، انظر ماذا جعلتَنا نفعل! انظر إلى ما أجبرتَني أنتَ على أن أفعل لألفت انتباهك وأثير غيرتك: أنتَ وأنتَ فحسب مَن يرميني في أحضان هؤلاء الرجال كلّهم الذين أعاشرهم. أنتَ مَن يرغمني على إيذاء نفسي بنفسي.

مسحتُ دموعي قبل أن أخرج إلى الرواق. وهنا، دفَعتَني أنت من دون اعتذار، من دون كلمة، لتنزل الدرج كالمجنون.

***

إذًا، أنا في غرفة فينكا الآن، وأشعر بأنّني ساذجة بعض الشيء، أقف وحدي وفي يدي كوبُ الشاي كالبلهاء. لم أسمع حديثكما، لكنّني حزرتُ أنّها عادت لتعزف اللازمة عينها. تلك التي تتقنها عن ظهر قلب: التلاعب بالأشخاص في مسرح دُماها الصغير، لتتقمّص هي دور الضحيّة.

وضعتُ كوبَ الشاي اللعينَ على طاولة قرب السرير ورحتُ أنظر إلى فينكا التي كانت قد استسلمت للنوم. كان جزء منّي

يتفهّم الرغبة التي تستثيرها لديّ. وجزء منّي يرغب حتّى في التمدّد جانبها، ولمس بشرتها الشفّافة، وفمها الأحمر كالكرز الناضج وشفتيها المرسومتين، وتقبيل أهدابها الطويلة المعقوفة. لكنّ جزءًا آخر كان يكرهها، بل ويجفل منها حينَ تأتي صورة أمّي لتتطابق مع صورتها.

***

عليّ العودة إلى العمل. ومع ذلك، ثمّة ما يبقيني عالقةً في تلك الغرفة. زجاجة فودكا نصف فارغة كانت على حافّة النافذة. عببتُ مباشرةً منها جرعتين. من ثمّ رحتُ أنقّب، أتفحّص الأوراق على طاولة المكتب، أتصفّح مفكّرة فينكا. أفتح الخزائن، أقيس وأجرّب بعض ملابسها، وأكتشف محتوى علبة أدويتها. لم يذهلني البتّة أن أجد فيها منوّمات ومهدّئات.

فهي تملك ترسانة المُدمن الكامل المكتمل: روهيبنول، وترانكسين، وتيميستا. ولئن كانت العلبتان الأخيرتان شبه فارغتين، فأنبوب أقراص المخدِّر كان مليئًا عن آخره. رحتُ أتساءل، كيف حصلت على تلك العقاقير. تحت الأغلفة، عثرتُ على وصفات طبيّة قديمة حرّرها طبيب من مدينة كان، الدكتور فريديريك روبينز. من الواضح أنّ ذلك الطبيب كان يصف تلك المخدِّرات بوفرة كأنّها سكاكر.

كنتُ أعرف جيّدًا مواصفات الروهيبنول: جزيئاته الأساسيّة أي الفلونيترازيبام، لا تُوصَف إلّا لمعالجة حالات الأرق البالغة، لكن بما أنّها تسبّب الإدمان وهي طويلة المفعول والصلاحيّة، يجب أن يقتصر استعمالها على فترات محدودة. عليه، ليست بدواء يوصف عشوائيًا أو فترة طويلة. كنتُ أدرك كذلك أنّ القرص هذا قد يتناوله شخص للشعور بالنشوة شرط مزجه بالكحول أو بالمورفين في أقصى الحالات.

لم أتعاطَ هذا النوع يومًا، لكنّني سمعتُ أنّ تأثيراته ضارّة جدًّا: فقدان السيطرة وتقلّبات مزاجيّة وتصرّفات غير واعية، وأحيانًا غيابًا كاملًا للذكريات. فقد أخطَرَنا أحد أساتذتنا في الكليّة، وهو طبيب في قسم الطوارئ، أنّ مرضى كثرًا يدخلون المستشفى بسبب جرعة زائدة منه، وأنّ هناك مغتصبين يستعملون الروهيبنول أحيانًا لشلّ دفاعات ضحاياهم وإفقادها الذاكرة. ثمّة معلومة رائجة أيضًا: خلال إحدى حفلات الرايف الصاخبة، في ريف غراس، عمدت فتاة كانت تناولت جرعة كبيرة من الدواء المذكور إلى تقديم نفسها أضحية، قبل أن تقفز من أعلى جرف صخري.

كنتُ تعبة منهارة، إلى درجة أنّ أفكاري كلّها باتت مشوَّشة. وفي لحظة، من دون أن أعي كيف راودتني تلك الفكرة، تمنّيتُ لو أذوِّب أقراص البنزوديازيبين في الشاي. لا أريد أن أقتل فينكا، بل أريدها أن تختفي من حياتي وحياتك فحسب. أحيانًا، كنت أحلم في أنّ سيّارة مسرعة تدهسها وسط الشارع أو في أنّها تنتحِر. لا أريد قتلها، ومع ذلك ها أنذا أدسّ حفنة من الأقراص في يدي. ثمّ أتركها تسقط في الكوب الساخن. لم يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ، كأنّني صررتُ نسختين. كأنّني خرجتُ من ذاتي ومن المشهد أمامي، فيما نفّذت أخرى غريبة عنّي أنا، ذلك كلّه.

أغلقتُ الباب وعدتُ إلى غرفتي. خانتني ساقاي. وهذه المرّة، هدَّني الإرهاق. تمدّدتُ على سريري. تناولتُ إضبارتي وبطاقات علم التشريح: عليّ أن أعمل، وأن أركّز على دروسي، لكنّ عينيّ أغمضتا تلقائيًّا وأخذني النعاس.

***

حينَ صحوتُ، كان الظلام حالكًا، والعرق يبلّلني كأنّني مُصابة بحمّى شديدة. إنّها الثانية عشرة والنصف ليلًا، بحسب ساعة الراديو-المنبِّه. لستُ أصدِّق! لقد نمتُ ثماني ساعات متتالية! لستُ أدري ما إذا كنتَ عدتَ في تلك الأثناء يا توماس. ولم أدرِ شيئًا عن حال فينكا.

استبدّت بي نوبة ارتداديّة من الهلع، هرعتُ أطرق بابها. وبما أنّني لم أحصل على جواب، قرّرتُ دخول غرفتها. على الطاولة الصغيرة في محاذاة السرير، كان كوبُ الشاي فارغًا. أمّا فينكا فكانت لا تزال نائمة، في الوضعيّة ذاتها التي تركتُها فيها. أو أقلّه هذا ما حاولتُ إقناع نفسي به، لكن حينَ انحنيتُ فوقها، كان جسمها باردًا وما كانت تتنفّس على الإطلاق. توقّف قلبي عن الخفقان. اجتاحتني صعقة كهربائيّة تردّدت في أنحاء جسدي. انهرتُ على الأرض.

ربّما كانت القصّة مكتوبة سلفًا. ربّما خاتمتها مكتوبة منذ البدء: أن ينتهي كلّ شيء هكذا، في الموت والخوف. وكنتُ أدرك جيّدًا الخطوة التالية: أن أنتهي أنا أيضًا مرّة واحدة من ذلك كلّه. أن أتخلّص نهائيًّا من ذلك العذاب الماكر الذي يلازم كياني، ملتصقًا بمسامّي منذ زمن بعيد. فتحتُ نافذة الحجرة على مصرعيها. ابتلعَني الصقيع القارس، لسعني، تآكلني. اعتليتُ حافّة النافذة أتهيّأ للقفز، لكنّني لم أستطع إكمال فعلتي، كأنّ الليل الذي اشتمّ رائحتي، ما عاد يريدني. وكأنّ الموت بحدّ ذاته ما عاد يهدر وقته الثمين على شخصي الضئيل الوضيع.

***

مبهوتة شاردة، عبرتُ الحرم كالميت الحيّ. البحيرة، ساحة المارونييه، المباني الإداريّة. كلّها كانت سوداء فاحمة، منطفئة. لا روح ولا حياة. ما خلا مكتب والدتك. وهي تمامًا الشخص الذي أبحث عنه. لمحتُ

طيفها من خلال الزجاج. دنوتُ أكثر. كانت في خضمّ نقاش مع فرنسيس بيانكارديني. حينَ رأتني، فهمَت في الحال أنّ شيئًا رهيبًا قد حصل. أتت هي وفرنسيس لملاقاتي. ما عدتُ أقوى على الوقوف. انهرتُ بين ذراعيهما، ورويتُ لهما القصّة كلّها، بعبارات غير مفهومة، يتخلّلها بكاء ونحيب. قبل استدعاء فريق الطوارئ، هرع كلاهما إلى غرفة فينكا. كان فرنسيس أوّل من تفحّص جسمها. وبإشارة من رأسه، أكّد أنّ لا داعي لاستدعاء الإسعاف.

وهنا أغمي عليّ.

***

حين استعدت وعيي، كنتُ ممدّدة على الأريكة في مكتب والدتك، فيما غطَّت بطّانيّة دافئة ركبتيّ.

كانت أنابيل قربي. فاجأني هدوؤها لكنّه طمأنني في الوقت عينه. لطالما قدّرتُها. فمُذ تعارفنا وهي تعاملني بطيبة ورأفة قلّ مثيلهما. ولطالما ساندتني وساعدتني في سعيي. فبفضلها هي استطعتُ الحصول على غرفتي في حرم الكليّة. وهي من حثّني على الوثوق في نفسي لكي أجرؤ على خوض دراسة الطبّ. حتّى أنّها راحت تعزّيني وتواسيني عندما ابتعدتَ أنتَ منّي.

أرادت أن تستعلم ما إذا كانت حالي قد تحسّنت، طالبةً منّي أن أروي لها ما حدث بالضبط.

– لا تغفلي أيّ تفصيل.

فيما امتثلتُ لطلبها، عاودتني عجلة الأحداث المفجعة التي قادت إلى وفاة فينكا: غيرتي العمياء، ضرب الجنون الذي ألمّ بي، جرعة الروهيبنول الزائدة. وبينما كنتُ أبحث عمّا يبرّر فعلتي هذه، وضعَت إصبعها على فمي لإسكاتي.

– ندمكِ هذا لن يعيدها إلى الحياة. هل من المحتمل أن يكون شخص آخر قد رأى جثّة فينكا؟

– توماس ربّما، لكن لا، لا أظنّ. كنّا أنا وهي الوحيدتين اللتين لم تغادرا الحرم أثناء العطلة.

وضعَت يدها على ساعدي برفق، فيما راح نظرها يترصّد عينيّ قبل أن تعلن لي بكلّ جديّة:

– اللحظات المقبلة ستكون الأهمّ في حياتك يا فاني. لن يكون عليك أخذ قرار صعب فحسب، بل وعليك أخذه في أسرع ما يمكن.

سمَّرتُ عينيّ في عينيها، من دون أن أتصوّر ولو ثانيةً ما تهمّ بقوله.

– عليكِ الاختيار. التوجُّه الأوّل هو أن نتّصل بالشرطة ونعترف بالحقيقة. وعليه، تمضين ليلتك في الزنزانة منذ الآن. وأثناء المحاكمة، سيمزّقك كلٌّ من المدّعي العام المدني كما الرأي العام إربًا. أمّا وسائل الإعلام فستنقضّ انقضاضًا على القضيّة. ستكونين تلك الداعرة الحقيرة التي يتأكّلها الحسد والشرّ، تلك المتوحّشة التي قتلت بدم بارد صديقتها الأعزّ، ملكة الليسّيه الجميلة التي كان الجميع يعشقها. أنتِ راشدة، بالتالي سيحكمون عليك بالسجن سنوات طويلة.

لبثتُ مصعوقة، بيد أنّ أنابيل استمرّت تغرز خناجرها، واحدًا تلو آخر.

– وعندما تخرجين من السجن، تكونين قد بلغتِ الخامسة والثلاثين، وطوال أيّامك المتبقيّة، ستحملين وصمة عار «القاتلة المجرمة». بمعنى آخر، تنتهي حياتك قبل أن تبدأ حتّى. لقد وطأتِ هذا المساء عتبة جحيم ستبقين أسيرته إلى الأبد.

شعرتُ بأنّني أغرق، كأنّني تلقّيتُ ضربة على رأسي. رحتُ أبتلع المياه، مياهًا جارفة تخطف أنفاسي.

لزمتُ الصمت هنيهة قبل أن ألفظ كلماتي:

– والتوجُّه الثاني؟

– تصارعين لتفلتي من الجحيم. وأنا مستعدّة لمساعدتك.

– لستُ أفهم كيف.

هنا، قامت والدتك عن كرسيّها.

– هذا... ليس مشكلتك، أقلّه ليس مباشرةً. يجب أوّلًا إخفاء جثّة فينكا. أمّا بالنسبة إلى الباقي، فكلّما عرفتِ أقلّ، كنتِ مرتاحة أكثر.

– لا يمكن إخفاء جثّة هكذا بسحر ساحر، قلتُ لها.

في تلك اللحظة، دخل فرنسيس المكتب ووضع على الطاولة الخفيضة جواز سفر وبطاقة اعتماد، ثمّ رفع سمّاعة الهاتف. طلب رقمًا وشغّل زرّ مكبِّر الصوت:

– فندق سانت-كلوتيلد. مساء الخير.

– مساء الخير، أودّ أن أعرف ما إذا كانت ثمّة غرفة شاغرة لشخصين، لمساء الغد؟

– نعم، لكنّها الأخيرة المتبقيّة، أعلن مدير الفندق قبل أن يشرع في عرض لائحة الأسعار.

كان العرض مرضيًا، فأجاب فرنسيس بأنّه سيحجزها، وأكّد الحجز باسم ألكسيس كليمان.

نظرَت والدتك إليّ لتُفهمني أنّ العجلة انطلقت وهي لا تنتظر سوى إشارة منّي لتُستَكمل.

– سأتركك وحدك دقيقتين لتفكّري في الأمر.

– لا أحتاج دقيقتين لأختار بين الجحيم والحياة.

وشت نظرتها بأنّها كانت تتوقّع الإجابة هذه. عادت إلى الجلوس جانبي وأمسكت كتفيّ بهدوء:

– عليكِ أن تفهمي أمرًا مهمًّا. لن تنجح الخطّة ما لم تنفّذي ما أقوله لك بحذافيره. ومن دون أن تطرحي أسئلة أو تبحثي عن سبب أو شرح. هذا الشرط الوحيد، وهو غير قابل للمساومة.

ما زلتُ لا أفهم: كيف لخطّة كهذه أن تنجح، ومع ذلك رحتُ أستشفّ ذاك الشعور الغريب وغير المعقول، بأنّ أنابيل وفرنسيس يسيطران على الوضع، ويستطيعان إصلاح ما لا يمكن إصلاحه.

– إن ارتكبتِ أدنى خطإ، انتهى أمرك، حذّرتني أنابيل بلهجة صارمة. لن تنتهي في السجن فحسب، بل ستجرّيننا معك أنا وفرنسيس.

وافقتُ بصمت، ثمّ استفهمتُ عمّا يجدر بي فعله.

– حاليًّا تقضي الخطّة بأن تخلدي للنوم لتكوني بكامل نشاطك غدًا، أجابتني. مكتبة t.me/ktabrwaya

***

أتعرف ما الأغرب في الأمر؟ تلك الليلة، نمتُ نومًا هنيئًا.

في صباح اليوم التالي، حينَ أتت أمّك توقظني، كانت ترتدي جينز وسترة قصيرة للرجال. كانت قد عقصت شعرها وأخفته تحت قبّعة برَفرَف: كَسكيت نادي كرة قدم ألماني. حينَ ناولتني شعرًا مستعارًا أصهب، وكنزة فينكا الزهريّة المنقّطة بالأبيض، أدركتُ خطّتها. خطّة شبيهة بتلك التمارين الارتجاليّة التي كانت تجعلنا ننفّذها في نادي المسرح، حينَ تطلب منّا تلبُّس شخصيّة ما أو تبادل الأدوار. حتّى أنّها كانت تعتمد تلك الطريقة لتوزّع الأدوار في مسرحيّة ما. بيد أنّ الارتجال في حالتي هذه لن يدوم خمس دقائق،

بل نهارًا كاملًا، ولستُ أراهن على دور في عرض مسرحي، بل على حياتي برمّتها.

ما زلتُ أذكر الإحساس الذي ألمّ بي وأنا أرتدي ملابس فينكا وأضع الشعر المستعار: إحساسًا بالامتلاء، بالحماسة والاكتمال. لقد كنتُ فينكا. أتمتّع برشاقتها، ولباقتها وسرعة بديهتها، وذلك الدلال الطائش والأنيق الذي تملكه هي وحدها.

تمترست أمّك خلف مقود الألبين وغادرنا الحرم. أنزلتُ زجاج نافذتي لألقي التحيّة على الحارس حين رفع الحاجز أمامنا، ثمّ حيّيتُ عاملَي البلديّة اللذين كانا يكنسان مستديرة الطرق. مع وصولنا إلى محطّة قطارات أنتيب، لاحظنا أنّ شركة السكك الفرنسيّة قد أوفدت قطارًا إضافيًا متوجّهًا إلى باريس، وذلك للتعويض عن الرحلات التي أُلغيت يومَ أمس. اشترَت أمّك لنا تذكرتين. مرَّت الرحلة نحو العاصمة كالنسمة. تمشّيتُ في كلّ مقصورة ما يكفي ليلمحني أكبر عدد من الركّاب وليذكروا مظهري نوعًا ما، مع الحرص على عدم المكوث طويلًا في المكان عينه. لدى بلوغنا باريس، قالت أمّك أنّها اختارت فندق شارع سان-سيمون لأنّها قد أقامت فيه منذ ستّة أشهر خلت، ولأنّ حارسه الليلي رجل مسنّ يسهُل تضليله. وبالفعل، حينَ وصلنا حوالى الساعة العاشرة ليلًا، طلبنا تسديد فاتورة غرفتنا مسبقًا بحجّة أنّنا سنغادر مع بزوغ فجر اليوم التالي. وقد خلّفنا أدلّة كافية لنوهِم الجميع بأنّ فينكا قد جاءت حقًّا إلى هنا. كنتُ أنا صاحبة فكرة الكوكا بالكرز؛ ووالدتك صاحبة فكرة نسيان جعبة أدوات التجميل مع فرشاة شعر تحتوي على آثار من حمض فينكا النووي.

أتريد أن تعرف الأكثر جنونًا في الأمر؟ ذلك النهار – الذي اختتمتُه بكأسين من الجعّة مع قرص روهيبنول – كان الأكثر سحرًا ومتعة في حياتي.

***

بيد أنّ السقوط والعودة إلى أرض الواقع ضاهيا تلك المتعة وتفوّقا عليها. فمنذ صباح اليوم التالي، عاد كلّ شيء مُعتمًا، مخيفًا ومقلقًا. عندما فتحتُ عينيّ، كدتُ أنهار. ما كنتُ أتصوّر أن أعيش يومًا واحدًا وأنا أحمل عبء هذا الذنب وثقل تقزُّزي من نفسي. لكنّني كنت وعدتُ أمّك بالاستمرار حتّى النهاية. فأنا قد أفسدتُ حياتي، ولا يجوز أن أجرفها هي في سقوطي، فأفسد حياتها أيضًا. غادرنا الفندق مع ساعات الفجر الأولى، على متن المترو. بادئ ذي بدء، عبر الخطّ 12، من شارع «دو باك» إلى ساحة الكونكورد، ومن ثمّ الخطّ 1 مباشرةً إلى محطّة ليون. كانت أنابيل قد ابتاعت لي أمسِ تذكرة العودة إلى نيس. وكانت مزمعة أن تذهب هي، في وقت لاحق إلى محطّة مونبارناس، لتركب القطار الذي سيقودها إلى داكس، في اللاند.

حينَ استرحنا في أحد المقاهي قبالة المحطّة، أسرّت لي بأنّ الآتي أعظم: أن أتعلّم كيف أتعايش والفعلة التي ارتكبتُها. لكنّها سرعان ما أضافت أنّها لا تشكّ في نجاحي، لأنّني مُحارِبة شرسة، ولأنّها لا تحترم سوى هذا النوع من السيّدات.

ثمّ ذكّرتني بأنّ الحياة حرب متواصلة بالنسبة إلى النساء أمثالنا اللواتي انطلقنَ أساسًا من الصفر، من لا شيء. وبأنَّ الأقوياء والضعفاء ليسوا دومًا كما نظنّهم. وبأنّ كثرًا يخوضون بصمت وبسالة صراعاتهم الشخصيّة الأليمة. وأردفَت أنّ الثمن الأبهظ الواجب تسديده، هو

إتقان الكذب في الأمد الطويل، بل الدائم. ولكي نجيد الكذب على الآخرين، يجب أن نتقن أوّلًا الكذب على أنفسنا.

ليس هناك إلّا طريقة وحيدة في الكذب يا فاني، ألا وهي نكران الحقيقة: أن يبيد كذبك الحقيقة إلى أن يتحوّل هو حقيقة.

رافقتني أنابيل على رصيف المحطّة حتّى مقصورتي، حيث قبّلتني. أمّا كلماتها الأخيرة فكانت: يمكننا العيش مع ذكرى الدماء. كانت تُدرك ذلك جيّدًا لأنّها اختبرته بنفسها. وما لبثَت أن تركتني مع تلك الجملة، جملة أتأمّلها ما حييت: «ليست الحضارة سوى قشرة رقيقة هشّة فوق أتون من الفوضى».

14

الحفلة

كان قد غرق في عتمة الليل. ولحظة أدرك
ذلك، غابَ عن الإدراك.

جاك لندن

1.

اختتمت فاني قصّتها وهي على شفا الهذيان بعد أن استبدَّت بها حمّى الجنون. كانت قد هبطَت الدرجات المحفورة في الصخر لتقف وسط الكنيسة، على قاب قوسين من التهاوي. مترنّحة بين المقاعد الخشبيّة، بدت أشبه براكبة تُصارِع على متن سفينة غارقة.

أمّا أنا، فما كنتُ أفوقها قوّة ولا شجاعة، بل أوشكتُ على أن أفقد أنفاسي. لقد تلقّيتُ وابل اعترافاتها كلكمات متتالية على الذقن، تَرَكَتني على شفا الإغماء والتوهان. أشبِع ذهني حتّى الشفة، فبات عاجزًا عن وضع الأحداث في إطارها الصحيح. فينكا مقتولة على يد فاني، ووالدتي المتواطئة الأولى في إخفاء الجثّة... لم أكن أرفض الحقيقة، لكنّها لم تبدُ مُطابقة لما عرفته أو كنت أعرفه عن طبع أمّي وأخلاق صديقتي.

– مهلًا يا فاني!

كانت قد اندفعَت إلى الخارج. بعدما أوشكت على فقدان الوعي قبل ثانية، ها هي الآن تلوذ بالفرار، كأنّها مسألة حياة أم موت! اللعنة!

بالكاد استطعتُ نزول الدرجات متعثِّرًا، والخروج أيضًا إلى باحة الكنيسة، حتّى باتت فاني بعيدة المنال. ركضتُ خلفها، لكن كاحلي التوى بشدّة. كانت أسرع منّي وقد سبقتني بأشواط. عبرتُ البلدة وأنا أعرج. ثمّ نزلتُ منحدر الفاشيت بأسرع ما يمكن. وجدتُ سيّارتي وعلى زجاجها مخالفة، قبضتُها ورميتُها. جلستُ خلف المقود ورحتُ أتساءل عن وجهة سيري التالية.

والدتي. يجب أن أكلّم والدتي. هي الوحيدة القادرة على تأكيد ما روته فاني ومساعدتي في كشف خيوط الحقيقة. شغّلتُ هاتفي الذي كنت أطفأته وأنا في الكنيسة. لا رسائل جديدة من الوالد، بل رسالة نصّيّة واحدة من ماكسيم يطلب فيها أن أعاود الاتّصال به. ففعلتُ وأنا أدير المحرِّك.

– يجب أن نتحدّث يا توماس. اكتشفتُ شيئًا. شيئًا خطيرًا قد...

لمستُ انفعالًا في نبرته. لم يكن خوفًا، بل هشاشة غير معهودة وغير مُفتعلة.

– أخبِرني.

– ليس عبر الهاتف. فلنلتقِ في «عشّ النسر» لاحقًا. وصلتُ للتوّ إلى أمسية سانت-إكز، ويجب أن أفعِّل حملتي بعض الشيء.

في طريقي، حاولتُ غربلة أفكاري بهدوء، تحت سقف المرسيدس الآمن. يوم السبت الواقع فيه 19 ديسمبر العام 1992، وفي حرم ليسّيه سانت-إكزوبيري، وقعت جريمتان إذًا، وبفارق بضع

ساعات. الأولى جريمة قتل ألكسيس كليمان والثانية جريمة قتل فينكا. جريمتان سمح تلازمهما لأمّي وفرنسيس بتركيب سيناريو مُحكَم، بهدف حمايتنا نحن الثلاثة، أي ماكسيم وفاني وأنا. حمايتنا أوّلًا بإخفاء الجثّتين، وثانيًا وهنا «ضربة المُعلِّم»، بنقل ساحة الجريمة من كوت دازور إلى باريس.

كان السيناريو هذا ينطوي على شيء من الرومانسيّة الخياليّة – تحالُف الأهل واستعدادهم لتحمّل الأخطار كلّها في سبيل إنقاذ أولادهم، هؤلاء الراشدين اليافعين الذين كنّاهم في السابق، لكنّ دماغي كان يرفضه لأنّه يثبت حقًّا وقانونًا موت فينكا.

فيما رحتُ أستعيد ما قالته فاني، قرّرتُ الاتّصال بطبيب، للتحقّق من نقطة أثارت حيرتي. إذًا، حاولتُ الاتّصال بطبيبي العامّ في نيويورك، لكنّني لم أكن أملك سوى رقم عيادته، التي تكون مقفلة خلال عطلة الأسبوع. ونظرًا إلى عدم توفُّر أرقام أطبّاء آخرين، لم أجد حلًّا إلّا مكالمة شقيقي.

حين أقول أنّنا نادرًا ما نتحادث، أكون أنمِّق كلامي. أن أكون شقيق البطل لأمر أكثر من مهيب، بل وكنت كلّما كلّمته، شعرتُ بأنّني أهدر وقته الثمين الذي يوظّفه في معالجة الأطفال، ما كان يضفي على محادثاتنا طابعًا غريبًا.

– مرحبًا أخي! بادرني.

كالعادة وبدلًا من أن تنتقل عدوى حماسته إليّ، سلبتني حصّة كبيرة من طاقتي.

– مرحبًا جيروم، كيف الحال؟ هل أمورك جيّدة؟

– لا تزعجّ نفسك بالدردشة يا توماس. بِمَ أخدمك؟

أقلّه قد سهّل عليّ المهمّة اليوم.

– قابلتُ أمّي بعد ظهر اليوم. هل كنت على علم بالنوبة التي أصابتها؟

– طبعًا.

– ولماذا لم تُعلمني بذلك؟

– هي طلبت ألّا أفعل. لم تشأ أن تثير قلقك.

بلا مزاح...

– الروهيبنول، هل تعرف ما هو؟

– نعم، طبعًا. دواء رديء. أوقف الأطباء وصفه اليوم.

– هل سبق أن تناولت منه؟

– لا، ولماذا تسأل؟

– من أجل رواية أكتبها حاليًا. قصّة تدور أحداثها في التسعينيّات. كم قرصًا يجب أن تبتلع لتكون الجرعة قاتلة؟

– لستُ أدري، هذا وقف على مقدار الجرعة. كانت معظم الأقراص آنذاك تحتوي 1 ملغ من الفلونيترازيبام.

– إذًا؟

– إذًا، أقول أنّ الأمر وقف على تركيبة كلّ جسم.

– لستَ تساعدني حقًّا.

– كورت كوبين قد تناول منه في محاولة للانتحار.

– ظننته انتحر برصاصة في رأسه.

– أتحدّث عن محاولة انتحار أُفشِلت قبيل أشهر قليلة. وجدوا آنذاك حوالى خمسين قرصًا في معدته.

تكلّمت فاني عن حفنة من الأقراص، أي لم تبلغ الخمسين.

– وماذا لو تناولتَ خمسة عشر قرصًا؟

– قد تتخدَّر في شكل بالغ إلى حدّ الهلوسة، أو ربّما تدنو من حالة الغيبوبة الكاملة، خصوصًا إذا مزجتَ الأقراص بالكحول. ولكن

أقول وأكرِّر: الأمر وقف على مقدار الجرعة. ففي فترة التسعينيّات، كان المختبر الذي يصنعه يسوِّق أيضًا أقراصًا من 2 ملغ. في هذه الحال، جرعة من خمسة عشر قرصًا ممزوجة بالجيم بيم قادرة بالفعل على أن تقودك إلى سابع سماء ومن دون عودة طبعًا.

عدنا إلى خانة الصفر...

خطر في بالي سؤال لم أتوقّعه.

– هل كنتَ على معرفة بطبيب في المدينة كان مارس الطبّ منذ عشرين سنة؟ اسمه فريديريك روبينز؟

– الدكتور مابوز[1]! كان الجميع يعرفه في المنطقة ولم يكن ذا سمعة حميدة، صدّقني.

– مابوز، أهذا لقبه؟

– بين ألقاب أخرى، أجاب جيروم مقهقهًا: فريدو المُدمِن، فريد كروجير تاجر مخدِّرات... مُدمِن ومورِّد في آن واحد. كان متورِّطًا في عمليّات التهريب كلّها سواء البسيطة أم الضخمة: ترويج منشِّطات ممنوعة، ممارسة مهنة الطبّ بصورة غير قانونيّة، تزوير وصفات...

– هل طُرد من نقابة الأطبّاء؟

– نعم، لكن ليس في وقت باكر، في رأيي.

– ألا يزال مقيمًا في كوت دازور؟

– مع كلّ ما كان يبتلعه من حثالات، ما كان ليعمِّر. كنتُ لا أزال طالبًا حين مات روبينز. وكتابك المقبل هذا... أهو رواية تشويق طبّية؟

[1] شخصيّة طبيب شرّير في فيلم سينمائي شهير.

.2

كان الليل على وشك الهبوط حينَ وصلتُ إلى الليسّيه، وقد كان الحاجز الأوتوماتيكي مفتوحًا. إذًا، يكفي أن نمرّ بالحارس ليتحقّق من ورود أسمائنا في لائحته. بالطبع، لم يكن اسمي مسجّلًا في أيّ سجلّ، بيد أنّ الرجل قد رآني منذ ساعات معدودة. تعرّف إليّ فورًا. تركني أدخل طالبًا منّي أن أركن السيّارة في الموقف الموقّت في محاذاة البحيرة.

في الليل، كان المنظر يستحيل خلّابًا، أكثر انسجامًا وتماسكًا منه تحت أشعّة شمس النهار. فقد طردت ريح الشمال الباردة الغيوم من السماء لتستبدلها بالنجوم. من موقعي في الموقف، رأيت انعكاسات الأنوار على مختلف أنواعها: مصابيح ساطعة، شعلات متراقصة، وأكاليل ملوّنة مشرقة... تضفي على الحرم لمسة سحريّة وتُرشد زائريه نحو التسلية والمرح. الواقع أنّ المسؤولين كانوا يقيمون حفلات عدّة، بحسب الدورة الدراسيّة. أمّا الحفلة المنظّمة في الجمنازيوم فتستضيف الدورات الممتدّة من عام 1990 إلى عام 1995.

فور دخولي القاعة، استبدّ بي الإعياء. فقد كانت الأجواء تُحاكي حفلة تنكّريّة؛ حفلة قد تحمل بسهولة، العنوانَ: أسوأ أزياء التسعينيّات. بالفعل، أخرج الأربعينيّون من عتمة خزائنهم، الأحذية الكونفرس، والبناطيل الجينز الـ501 المثقوبة والعالية الخصر، والسُترات البومبر شوت، والقمصان الصوفيّة بمربّعاتها الكبيرة. أمّا هواة الرياضة منهم ففضّلوا بناطيل الباغي، والبدلات الرياضيّة تاتشيني والمعاطف الشيفينيون الواقية من المطر.

لمحتُ ماكسيم من بعيد، بلباس شيكاغو بولز الرياضي. كان المدعوّون يحتشدون حوله، كأنّه فاز بمنصب النائب مسبقًا. وكان اسم ماكرون على كلّ شفة ولسان. ففي صفوف جمعيّة

المستثمرين ورجال الأعمال هؤلاء، من أصحاب المهن الحرّة والمديرين وكبار الموظّفين، ما كان أحد ليصدّق أنّ البلاد بات يحكمها رئيس جمهوريّة لم يبلغ الأربعين بعد، ويتكلّم الإنكليزيّة، ويعرف عن ظهر قلب خفايا العجلة الاقتصاديّة، ويعلن جهارًا وبطريقة براغماتيّة إرادته في تخطّي الانشقاقات الأيديولوجيّة العتيقة. ولئن كان ثمّة تغيير قد يطرأ على البلد، فإمّا الآن أو أبدًا. حينَ رآني ماكسيم، أومأ إليّ بحركة من يده: عشر دقائق؟ هززتُ رأسي إيجابًا وفي الانتظار، انخرطتُ في الحشد. اجتزتُ القاعة وصولًا إلى المائدة المفتوحة، والتي لسوء الطالع، كانت تمتدّ في ملاصقة الجدار الذي تتعفّن في داخله منذ خمس عشرة سنة جثّتَا ألكسيس كليمان وفينكا. كانت مزيّنة بزهور وبوسترات قديمة. وتمامًا كما في هذا الصباح، لم أشعر بأيّ انزعاج. لا ذبذبات سلبيّة. ومع ذلك، كنتُ أدرك أنّ دماغي يجهِّز الدفاعات الممكنة كلّها ليرفض موت فينكا وينكره.

– هل أقدّم لك شيئًا سيّدي؟

لحسن الحظّ، كانت هناك مشروبات حقيقيّة هذه المرّة. حتّى أنّ ساقيًا راح يعدّ كوكتيلات على الطلب.

– هل يمكنك أن تعدّ لي كأسًا من الكايبيرينا؟

– بكلّ سرور.

– اجعله اثنين! صاح صوت من خلفي.

استدرتُ وإذا بي أتعرّف إلى أوليفييه مونز، شريك ماكسيم وحبيبه الذي يدير المكتبة السمعيّة البصريّة العامّة في أنتيب. هنّأته على لطف ابنتيه الصغيرتين ورقّتهما ورحنا نتذكّر بعض نكات «الزمن الغابر الذي لم يكن سارًّا على الدوام» وطرفه. وبينما كنتُ أتذكّره كمثقَّف متفاخر، اكتشفتُ رجلًا ممتعًا، بل ويتحلّى بروح

النكتة. بيد أنّه أسرّ لي بعد حوار دام دقيقتين، بأنّه يرى ماكسيم قلقًا ومهمومًا في الآونة الأخيرة. وكان متأكّدًا من أنّ الأخير يخفي عنه سبب معاناته وعلى يقين أيضًا أنّني على علم بالأمر.

قررتُ أن أكون شبه صادق معه، فقلت له أنّ بعض أعداء ماكسيم، وذلك في إطار الانتخابات المقبلة، يحاولون نبش هفوات الماضي لثنيه عن الترشّح. حاولت البقاء مُبهَمًا، ذاكرًا في شكل عامّ الثمن الباهظ الواجب دفعه لخوض مجال السياسة. ثمّ وعدتُه بأنّني سأكون حاضرًا لمساعدته وبأنّ تلك التهديدات سرعان ما ستتلاشى لتصبح مجرَّد ذكرى.

وقد صدّقني أوليفييه. تلك من غرائب الحياة؛ وعلى الرغم من أنّ طبعي كان قلقًا متوجِّسًا، فقد كنتُ أملك القدرة على طمأنة الناس.

قدّم لنا الساقي شرابنا، وبعدما شربنا نخبنا، رحنا نتسلّى بمشاهدة ألبسة المدعوّين. من هذه الناحية، كان أوليفييه قد بقي صاحيًا على غراري. لكنّ تلك لم تكن حال الجميع. فمن الواضح أنّ المدعوّين في معظمهم من النساء، وقد غرقن في حنين الماضي، بحيث قصرت القمصان وانكشفت البطون. فيما فضّلت أخريات الشورتات الجينز، أو الفساتين بحمّالات فوق القمصان، العقود الضيّقة التي تطبق على الخناق، أو مناديل الباندانا المجدولة حول مقابض حقائب اليد. لحسن حظّنا أنّ واحدة منهنّ لم تجازف في اعتلاء أحد أحذية البوفالو تلك، ذات النعال المتّصلة الشاهقة العلوّ. ولكن، ما معنى هذا كلّه وما الهدف منه؟ الاستمتاع فحسب أو محاولة للتشبّث بنتف من الشباب الغابر؟

طلبنا شرابَي كوكتيل إضافيّين.

– وهذه المرّة، من فضلكَ التكرُّم علينا بمزيد من الكاتشاسا! طلبتُ من الساقي.

وسرعان ما التزم الأخير باقتراحي فأعدّ لنا شرابًا «ناسفًا». ودّعتُ أوليفييه وعدتُ بكوكتيلي إلى التراس، حيث تجمَّع المدخِّنون.

.3

كانت السهرة في بداياتها، لكنّ أحد الرجال كان قد شرع يوزِّع الكوكايين والحشيس علنًا، في مؤخّر القاعة. كلّ ما هربتُ وأهرب منه. في سترته الجلديّة القصيرة العتيقة المرتّقة وقميصه المدموغ بشعار ديبيش مود، كان ستيفان بيانيلي متّكئًا على الدرابزين، يشفط أنفاسًا مِن روح الأعشاب ويشرب زجاجة تورتيل خالية من الكحول.

– لم تذهب إلى الحفلة الموسيقيّة في النهاية؟

بإيماءة من رأسه، أشار إلى صبيّ في الخامسة من عمره، كان يلهو بالاختباء تحت الطاولات.

– كان يُفترض أن يجالس والدي إرنستو، لكن ثمّة ما طرأ عليهما فجأةً، شرح لي وهو ينفث بخاره المائي العابق برائحة الخبز الطازج بالزنجبيل.

كان هوس بيانيلي قد انتقل حتّى إلى الاسم الذي أطلقه على ابنه.

– هل أنتَ مَن اختار تسميته إرنستو؟ تيمّنًا بإرنستو غيفارا؟

– نعم، لماذا؟ ألم يعجبك؟ سألني وهو يرفع حاجبه مهدِّدًا.

– بلى، بلى، عاجلته بالردّ لئلّا يشعر بالمهانة.

– كانت والدته تعتبره كليشِه، مبتذلًا.

– ومن هي، والدته؟

تجهَّم وجهه:

– لا تعرفها.

كان بيانيلي يُضحكني حقًّا. فهو يعتبر من حقّه المشروع أن يتدخّل في شؤون الغير الخاصّة، وألّا يتدخّل أحد في شؤونه هو.

– هي سيلين فولبان، لا؟

– أجل، هي.

كنتُ أذكرها جيّدًا. فتاة في الثانوي الثالث-أ، ثائرة ضدّ الظلم وقلّة الإنصاف ودومًا في طليعة حركة الإضرابات في الليسّيه. ندّ ستيفان النسائي، ندّ رافقه حتّى كليّة الآداب. ومن ثمّ تحت سطوة اليسار المتطرِّف، قد تشارك الاثنان نضالات كثيرة لمصلحة حقوق الطلّاب والأقلّيات. كنت صادفتُها أخيرًا، منذ عامين أو ثلاثة على الأرجح، على متن رحلة من نيويورك-جنيف. لقد استحالَت امرأة أخرى. كانت تحمل حقيبة لايدي ديور، يرافقها طبيب سويسري بدت متيّمة بغرامه.

تبادلنا أنا وهي بضع كلمات وقد وجدتُها آنذاك مُشرقة فرحة، الأمر الذي حرصتُ على إخفائه عن بيانيلي.

– لديّ معلومات جديدة، قال مُغيِّرًا الموضوع.

تنحّى جانبًا فأنارت وجهه لمبة بيضاء صغيرة من شريط الزينة الملوَّن: كان هو الآخر محفورًا بالدارات السوداء، فيما كانت عيناه محقونتين بالدم، كأنّه لم يغمض له جفن منذ زمن.

– هل حصلت على معلومات حول تمويل ورشة المدرسة؟

– ليس حقًّا. أوكلتُ المتدرِّب المهمّة، لكنّ المسألة محاطة بسريّة تامّة. سوف يتّصل بك متى عثر على أيّ جديد.

جال نظره في الأرجاء بحثًا عن ابنه وأومأ إليه مُطَمئنًا.

– في المقابل، تمكّنتُ من إلقاء نظرة على المشروع النهائي. والواقع أنّ الورشة ضخمة جدًّا. وأمّا بعض الأعمال الباهظة الثمن، فلستُ أرى جدواها.

– فيمَ تفكِّر؟

– في مشروع حديقة الورود العملاقة: حديقة الملائكة. هل سمعتَ عنها؟

– لا.

– جنون مطبق. هناك طموح إلى بناء مكان استجمام يمتدّ من موقع حقول اللافندر الحالي إلى البحيرة.

– مكان استجمام، كيف ذلك؟

هزّ كتفيه.

– أخبرني المتدرِّب بذلك عبر الهاتف. لم أفهم كلّ ما قاله، لكن لديّ شيء آخر لك.

رسم على وجهه سيماء الغموض وهو يخرج من جيبه ورقة كان دوَّن عليها بضع ملاحظات.

– وردني تقرير الشرطة حول وفاة فرنسيس بيانكارديني. صحيح أنّه مُني بضربة قاسية، المسكين.

– هل تعرّض للتعذيب؟

التمع في عينيه بريق شرّير.

– أجل، وفي شكل فظيع. بالنسبة إليّ، هذا ما يؤكّد صحّة فرضيّة تصفية الحسابات.

تنهّدتُ:

– لكن، أيّ تصفية حسابات يا ستيفان؟ ما زلتَ مصرًّا على قصّة المافيا وتبييض الأموال؟ فكّر قليلًا، تبًّا! حتّى ولو كان فرنسيس يعمل لحسابها – ولا أعتقد ذلك – فلماذا قد تقتله؟

– ربّما حاول تخطّي رجال المافيا الكلابريّة.

– ولكن لماذا؟ كان في سنّ الـ 74، ولديه ثروة كبيرة.

– هذا النوع لا يشبَع.

– دعكَ من الأمر، أنتَ مجرّد مغفَّل. هل حاول فعلًا أن يخطّ اسمه بالدم؟

– لا، أقرّت الصبيّة بأنّها اختلقت ذلك لإضفاء بعض المأسويّة على مقالتها. في المقابل، حاول فرنسيس الاتّصال بأحد الأشخاص قبل أن يلفظ أنفاسه.

– هل نعرف ذلك الشخص؟

– أجل، كانت والدتك.

أبقيتُ على برودي، محاولًا نزع الفتيل الذي أشعله:

– منطقي. هما جاران ويعرف بعضهما بعضًا منذ أيّام المدرسة.

هزّ رأسه إيجابًا، لكنّ عينيه كانتا تقرآن العكس: قل هذا لأيّ كان يا صاح، لكن ليس لي أنا، لن تفلح في خداعي.

– وهل عرفتم ما إذا كانت ردَّت عليه؟

– ستسألها بنفسك، أجابني.

ثمّ أنهى شرابه الخالي من الكحول.

– هيّا، فلنعُد إلى المنزل. غدًا، جولة تدريب في كرة القدم، قال سريعًا وهو يوافي ابنه.

4.

ألقيت نظرة خاطفة على القاعة. ما زال ماكسيم مُحاطًا بجمهرته. وعند الطرف الآخر من التراس، بار جديد – بالأحرى حانة مشبوهة – تقدِّم جرعات فودكا.

شربتُ قدحًا (فودكا بالنعناع) ومن ثمّ آخر (فودكا بالحامض). تصرُّف غير متعقِّل، لكن لا أولاد أعود بهم إلى البيت ولا جولة تدريب رياضي مبرمجة للغد. وما كنتُ أحبّ التورتيل ولا عصير السبانخ، لا سيما أنني قد أكون قابعًا في السجن الأسبوع المقبل...

كان عليّ أن أعثر على أمّي، لا محالة. لماذا هربَت؟ هل لأنّها خشيت أن أكتشف الحقيقة؟ أم لأنّها تخشى الخضوع للفظاعات عينها التي عاناها فرنسيس؟

جرعة ثالثة من الفودكا (بالكرز). لعلّ تحليلي يصبح أفضل، وأنا في شبه حالة سكر. قد يكون هذا خاطئًا على الأمد البعيد، لكن ريثما ينال منّا السكر، قد نمرّ بمرحلة وجيزة من النشوة، تلك اللحظة حيث تتصادم الأفكار وقبل انتشار الفوضى العظمى، تلتمع شرارة صغيرة في نفق الضياع. لقد استقلّت أمّي السيّارة التي استأجرتُها. سيّارة مزوَّدة حتمًا بجهاز GPS كاشف. والحالة هذه، ربّما أتّصل بوكالة التأجير مدّعيًا أنّ السيّارة سُرقَت وأطلب أن ترصد مكانها. أمر يستحقّ عناء المحاولة، ما عدا أنّه مساء السبت ولن تكون العمليّة سهلة.

جرعة أخيرة من الفودكا (بالبرتقال) قبل الانطلاق، وراح دماغي يعمل بسرعة البرق. كانت النشوة عارمة غير أنّها لن تدوم. لحسن الحظّ، خطرت لي فكرة عبقريّة. لِمَ لا أحاول بكلّ بساطة أن أرصد مكان الآي-باد خاصّتي الذي بقي في السيّارة؟ كانت أجهزة الشرطة العصريّة تسمح بذلك عن سابق قبول وتراضٍ. لذا، شغّلتُ التطبيق المناسب على هاتفي. كان فعّالًا ويعمل في أكثر من خمسين في المئة من الحالات، شرط ضبط بياناته بدقّة. أدخلتُ الإحداثيّات – عنوان بريدي الإلكتروني وكلمة السرّ – وحبستُ أنفاسي. بدأت نقطة تومض على الخريطة. كبّرتُ الشاشة مُستعينًا بإصبعين اثنتين. إن كان الآي-باد قد بقي حقًّا في السيّارة، فهذه الأخيرة موجودة عند

الطرف الجنوبي من كاب دانتيب، وفي مكان أعرفه تمامًا: موقف شاطئ كيلير، حيث يركن زُبُنُ المطعم، أو السيّاح الذين يريدون التنزّه على الدرب الساحليّة، سيّاراتهم.

اتّصلتُ بوالدي على عجل.

– عثرتُ على سيّارة أمّي!

– وكيف نجحتَ في ذلك؟

– دعكَ من التفاصيل، لكنّها في موقف كيلير.

– ولكن، ماذا تفعل أنابيل هناك، اللعنة؟!

من جديد شعرتُ بقلقه المفرط وأدركتُ في الحال أنّه يخفي عنّي أمرًا ما. لكنّه أنكر بشراسة، فعاجلته بنبرة أشرس:

– ضقتُ ذرعًا بك يا ريشار! تتّصل بي حالما تواجه مشكلة، لكنّك لا تثق فيّ.

– حسنًا، أنتَ مُحقّ، أقَرَّ. حين غادرت أمّك المنزل، حملت معها...

– ماذا حملت معها؟

– إحدى بنادق الصيد خاصّتي.

كأنّ هوّة سحيقة انفتحت تحتي. ما كنتُ لأتصوّر أمّي تحمل سلاحًا. أغمضتُ عينيّ ثلاث ثوانٍ، ثلاثًا ليس إلّا، وسرعان ما ارتسم المشهد في ذهني: على عكس ما كنتُ أسلّم به واهمًا، تصوَّرتُها، تصوّرتُ أنابيل حقًّا، وفي يدها بندقيّة صيد.

– وهل ستُجيد استعمالها؟ سألتُ أبي.

– أنا ذاهب إلى كاب دانتيب، اكتفى بالقول.

لم أكن واثقًا في أنّها فكرة سديدة، لكن ما باليد حيلة.

– سوف أنهي عملًا ما وأوافيك هناك. اتّفقنا يا أبي؟

– اتّفقنا، لكن أسرِع.

أقفلتُ الخطّ وعدتُ إلى القاعة. كانت الأجواء قد أصبحت استرخائيّة. فالمشروب قد أذاب التحفّظات وبدّد الخجل والحياء. وقد علت الموسيقى صاخبة، تصمّ الآذان. رحتُ أبحث عن ماكسيم من دون جدوى. فأدركتُ أنّه غادر، ولا بدّ من أنّه ينتظرني في الخارج.

مكتبة t.me/ktabrwaya

«عشّ النسر»، بالطبع...

غادرتُ الجمنازيوم وسلكتُ الدرب التي تقود إلى الكورنيش المُزهر. كان المسار مرسومًا بدقّة، تحدِّده أنوار المصابيح والقناديل التي كانت ترافق خطاي تباعًا.

مع وصولي إلى قاعدة الأنف الصخري، رفعتُ رأسي لألمح سيجارة مشتعلة في الليل. متّكئًا على الدرابزين الصغير، أومأ ماكسيم إليّ.

– انتبِه وأنتَ تصعد! صرخ لي. ففي العتمة، قد تدقّ هذه الدرب الأعناق.

في حذر، أضأتُ مصباح هاتفي لئلّا تنزلق قدمي، وشرعتُ أتقدّم لموافاته. راح كاحلي الذي لويتُه وأنا أخرج من الكنيسة، يوبّخني على تهوُّري مع كلّ خطوة. وكلّ خطوة استحالَت مشقّة. فيما كنتُ أتسلّق الصخور، أدركتُ أنّ الريح التي كانت تعصف منذ الصباح قد هدأت فجأة. تلبّدت السماء، واختفت النجوم. كنتُ قد بلغتُ منتصف مساري، حين علا صراخ فظيع، جعلني أرفع رأسي جفلًا. لاح طيفان وسط غشاوة رماديّة. أحدهما كان ماكسيم، وأمّا الآخر فشخص مجهول، كان يعمل على... رميه من فوق السور! أفلتَت منّي صرخة شديدة ورحتُ أركض علّني أستطيع مؤازرة صديقي، لكن حين وصلتُ إلى فوق، كان الأوان قد فات. هوى ماكسيم من علوّ يناهز العشرة أمتار.

اندفعتُ خلف المعتدي أطارده، لكن وبسبب كاحلي الملتوي لم أستطع الذهاب بعيدًا. حين عدتُ أدراجي، كانت جمهرة من المحتفين قد دنت من جثّة ماكسيم وشرعت تستدعي فريق النجدة.

طرفتُ عينيّ لأطرد الدموع التي تجمَّعت فجأة. في الوهلة الأولى، ظننتُني لمحتُ شبح فينكا يجول بين حشود قدامى التلاميذ. كالرؤيا، شفّافة وجذّابة، كانت الشابّة تشقّ ستار الليل، بفستان نومها القصير، وسترتها البيرفيكتو السوداء، وجوربيها اللاصقين المشبَّكين وجزمتها الجلديّة.

بعيد المنال، عصيًّا على اللمس، بدا شبحها وكان حيًّا أكثر من حشد الأحياء المحيط به.

أنابيل

السبت 19 ديسمبر 1992

أنا أنابيل دوغاليه. ولِدتُ في إيطاليا في أواخر الأربعينيّات، في قرية صغيرة من بييمون. في المدرسة، كان الأولاد يلقّبونني بـ«النمسويّة». أمّا اليوم بالنسبة إلى التلاميذ والأساتذة في الليسّيه، فأنا «السيّدة المُديرة». أنا أنابيل دوغاليه وقبل نهاية الأمسية هذه، سأصبح مُجرمة قاتلة.

ومع ذلك، بعد ظهر هذا النهار، لا شيء كان لينبئ بتلك الخاتمة المأسويّة في اليوم الأوّل من العطلة المدرسيّة هذه. كان زوجي ريشار قد غادر مع اثنين من أولادنا الثلاثة، وتركني أدير الدفّة بمفردي في الليسّيه. أنا على قدم وساق منذ ساعات الصباح الأولى، لكنّني أعشق الفعل والقرار. لقد أخلّت الأحوال الجويّة الرديئة بنظام الحياة المحليّة، ناشرةً الفوضى والجلبة. إنّها السادسة مساءً، الفترة الأولى من النهار حيث يمكنني أخيرًا تنفّس الصعداء. بما أنّ الترموس قد فرغ، قرّرتُ الذهاب إلى صالة الأساتذة لآتي بكوب شاي من الموزِّع الآلي. بالكاد قمتُ عن الكرسيّ حتّى انفتح باب مكتبي وتقدّمَت شابّة نحوي من دون أن أدعوها إلى الدخول.

– مرحبًا يا فينكا.

– مرحبًا.

نظرتُ إلى فينكا روكويل بشيء من التوجُّس. على الرغم من البرد القارس، كانت ترتدي فستانًا قصيرًا من الترتان، وسترة بيرفيكتو جلديّة وجزمة بكعب عالٍ. أدركتُ على الفور أنّها مخدَّرة بالكامل.

– فيمَ أخدمك؟

– اعطيني 75.000 فرنك إضافي.

كنتُ على معرفة وثيقة بفينكا وأقدّرها حقًّا، مع أنّني كنت أعرف أنّ ابني متيّم بحبّها، بل ويعاني من حبّها. هي إحدى تلامذتي في نادي المسرح. وأكثرهم موهبةً. عقلانيّة وشهوانيّة مع جانب عنيد مُدلَّل يجعلها جذّابة ومحبَّبة لدى الجميع. مثقّفة، فنّانة ولامعة. كانت قد أسمعتني الأغاني الشعبيّة التي تؤلّفها خفية. لازمات مُتقَنة ذات عمق جمالي غامض، مُستلهمة من ب.ج. هارفي وليونار كوهين.

– 75.000 فرنك؟

ناولتني ظرفًا سميكًا أسمر، ومن دون استئذان، ارتمت على الكرسي ذي المسندين قبالتي. فتحتُ الظرف وشاهدتُ الصور. تفاجأتُ من دون أن أتفاجأ حقًّا. لم يصبني الأمر لأنّ القرارات كلّها التي أخذتها في حياتي، إنّما كانت ترمي إلى هذا الهدف الوحيد: ألّا أضعف. وتلك كانت قوّتي.

– لا تبدين بخير يا فينكا، قلتُ وأنا أعيد لها الظرف.

– بل أنتِ مَن لن يكون بخير متى رميتُ صور زوجك الحقير في وجه أهالي التلاميذ.

لاحظتُ أنّها ترتعش بردًا. لا بل تبدو محمومة، متحمِّسة ومنهوكة في الوقت عينه.

– لماذا تطلبين 75.000 إضافي؟ لقد أعطاك ريشار مالًا، لا؟

– أعطاني 100.000 فرنك، وهذا غير كافٍ.

لطالما عاشت أسرة ريشار، المتحدّرة من مدينة سولونيه، صفر اليدين. وكانت أموالنا الزوجيّة كلّها ملكًا لي أنا. فقد ورثتها عن روبيرتو أورسيني، أبي بالتبنّي الذي جناه بتعب يديه من خلال بناء الفيلّات، حجرًا تلو آخر، على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسّط.

– هذا المبلغ ليس في حوزتي الآن يا فينكا.

رحتُ أحاول كسب الوقت، لكنّها لم تحرّك ساكنًا:

– تدبّري الأمر! أريد المال قبل نهاية عطلة الأسبوع.

أدركتُ أنّها على شفا الهاوية وقد فقدَت كلّ سيطرة. هي حتمًا تحت تأثير خليط من الكحول والأدوية.

– لن تحصلي على فرنك واحد، أجبتُها بنبرة قاسية. لا أكنّ للمبتزّين سوى فائق الاحتقار. كم كان ريشار غبيًّا عندما أعطاك المال!

– لا بأس، لقد أعذر مَن أنذر! قالت مهدِّدة وهي تقوم وتصفق الباب خلفها.

بقيتُ جالسةً في مكتبي فترة. فكّرتُ في ابني المجنون بحبّ تلك الصبيّة، والذي بسببها يهمل دراسته. فكّرتُ في ريشار الذي لا يفكِّر ولا يحلِّل إلّا بالجنس ومن خلاله. فكّرتُ في عائلتي التي يجب عليّ حمايتها، وفكّرتُ في فينكا. كنتُ أعي تمامًا من أين تأتي بتلك الهالة المسمومة. فمن المستحيل أن نتصوّر تلك الصبيّة لاحقًا، في المستقبل، وكأنّها شهاب يومِض لحظة واحدة، إذ قدِّر له ألّا يتجاوز عتبة تلك السنّ المميّزة، سنّ العشرين.

بعدما فكّرتُ وفكّرتُ مليًّا، خرجتُ في ظلام الليل وتقدّمتُ بخطى متثاقلة وشبه غارقة في الثلج، وصولًا إلى جناح نيكولا-دو-

ستايل. عليّ أن أحاول إعادتها إلى رشدها. حين فتحت لي باب غرفتها، خالت في طبيعة الحال أنّني أتيتُ أعطيها المال.

– اسمعيني يا فينكا. أنتِ لستِ على ما يرام. وأنا هنا لمساعدتك. فسّري لي الأمر، لماذا تحتاجين إلى المال؟

هنا، ثارت ثائرتها وراحت تهدّدني. اقترحتُ عليها استدعاء طبيب أو مرافقتها إلى مستشفى.

– لستِ في وضعك الطبيعي. سوف نجد حلًّا لمشكلتك.

حاولتُ تهدئتها، بكلّ ما أوتيت من قوّة وقدرة على الإقناع، لكنّها كانت عصيّة وقد خرجت كليًّا عن سيطرتي. باتت كالممسوسة وقادرة على أيّ شيء. راحت تتأرجح بين الدموع وقهقهة شيطانيّة. وفجأةً، أخرجَت من جيبها اختبار حمل:

– زوجك العزيز هو المسؤول عن هذا!

أوّل مرّة... أوّل مرّة منذ زمن بعيد، أفقدُ توازني، أنا، المرأة المحصَّنة ضدّ أيّ مُصاب وأيّ شيء. ثغرة فيّ راحت تكبر وتتّسع، عميقة ومفاجئة، من دون أن أستطيع شيئًا لإيقافها. هزّة شديدة شقّت باطني، بل زلزال حميم هالني وأرعبني. رأيتُ بأمّ العين حياتي تشتعل برمّتها. حياتي وحياة عائلتي كلّها. مستحيل أن أبقى مكتوفة اليدين. مستحيل أن أقبل بأن تحترق حياتنا جميعًا على مرأى منّي وتستحيل رمادًا وغبارًا بسبب المهووسة بنت التسع عشرة سنة تلك، بسبب «نَيرونة» العصر تلك! وفيما استمرّت فينكا تستفزّني، لمحتُ نسخة طبق الأصل من تمثال برانكوزي. تلك الهديّة التي اشتريتُها من متحف اللوفر لابني توماس، والذي هرع ليقدّمها لها. عندذاك، احتجب بصري وبصيرتي. أمسكتُ التمثال وحطّمته على رأسها. كدمية من قشّ، تهاوت فينكا تحت عنف الضربة.

***

دامت ظلمتي طويلًا، حيث توقّف الزمن وتوقّف كلّ شيء. تجمّد وعيي على صورة الثلج الذي جمّد الطبيعة في الخارج. حينَ بدأت أعود إلى رشدي، أدركتُ أنّ فينكا ماتت. كان الأمر البدهي الوحيد آنذاك أن أحاول كسب الوقت. جررتُ فينكا إلى سريرها ومدّدتُها على جانبها، مخبِّئةً جرحها، ومن ثمّ رفعتُ البطّانيّة وغطّيتها.

عبرتُ الحرم الكئيب، أرضًا جنائزيّة تؤمّها الأشباح، عائدةً إلى دفء مكتبي. جالسة على مقعدي، حاولتُ الاتّصال بفرنسيس، ثلاث مرّات على التوالي. لا جواب. هذه المرّة، انتهى كلّ شيء. قضي عليّ.

أغمضتُ عينيّ في محاولة للتركيز على الرغم من اضطرابي. فالحياة علّمتني أنّ التفكير يغلب المشكلات الكثيرة. الفكرة الأولى التي راودتني، والتي بدت بديهيّة: يكفي التخلّص من جثّة فينكا قبل أن يكتشفها أحد. كانت ممكنة لكن صعبة، وللغاية. وضعتُ فرضيّات وسيناريوات عدّة، بيد أنّني ما انفككتُ أعود إلى النقطة عينها وإلى الاستنتاج عينه: اختفاء الوريثة الشابّة روكويل في قلب حرم الليسّيه، سيسبِّب صدمة عارمة. وسوف يُلجأ إلى ترسانة غير معهودة من وسائل وتدابير استثنائيّة للعثور عليها. سوف تقلب الشرطة الليسّيه رأسًا على عقب، منقّبةً في الزوايا كلّها، وتُجري جميع التحاليل العلميّة، وتستجوب التلاميذ، وتحقّق في سائر علاقات فينكا. ولعلّ هناك شهود عيان على علاقتها بريشار. فالشخص الذي التقط الصور، لن يلبث أن يظهر هو الآخر ليواصل ابتزازه أو يساعد الشرطة. ما من مخرج.

أوّل مرّة في حياتي، وجدتُني محاصرة من جميع الجهات. مُجبرة على الاستسلام. في العاشرة ليلًا، قرّرت الاتّصال بالمخفر. كنتُ أهمّ برفع سمّاعة هاتفي، حين لمحتُ فرنسيس في محاذاة مبنى الأغورا، يمشي في اتّجاه مكتبي، يرافقه أحمد. خرجتُ لموافاته. كانت ملامحه هو الآخر كما لم أعهدها يومًا.

– أنابيل! بادرني صارخًا، بعدما أدرك أنّ ثمّة خطبًا حصل معي.

– ارتكبتُ أمرًا فظيعًا، قلت له وأنا أرتمي بين ذراعيه.

***

وها أنذا أروي له مجابهتي المروِّعة مع فينكا روكويل.

– تشجّعي، قال هامسًا حين أفرغتُ كلّ ما في جعبتي، فعليّ مفاتحتك بأمر ما.

كنتُ أظنّ أنّني بلغتُ الهوّة، لكن وللمرّة الثانية في ذلك اليوم، انخطَفت أنفاسي ولبثتُ عاجزة حين حدّثني عن مقتل ألكسيس كليمان، تلك الجريمة التي تورّط فيها توماس وماكسيم. أخبرني بأنّه استغلّ هو وأحمد ورشة البناء في الليسّيه ودفنا الجثّة داخل جدار الجمنازيوم. ثمّ أقرّ بأنّه كان ينوي أن يكتم الأمر عنّي في البداية، بهدف حمايتي.

احتضنني بين ذراعيه، مؤكِّدًا أنّه سيجد حلًّا، وراح يذكّرني بالمحن كلّها التي نجحنا في اجتيازها حتّى الآن في حياتنا.

***

كانت فكرته هو أوّلًا.

فقد أشار إلى مفارقة مهمّة: اختفاء شخصين معًا أقلّ إثارة للقلق والبلبلة منه اختفاء شخص واحد، موضحًا أنّ مقتل فينكا قد يسمح بطمس مقتل ألكسيس والعكس بالعكس إن نجحنا في الربط بين مصير الاثنين.

أخبرتُه بتلك الشائعات عن وجود علاقة بينهما. أخبرته بأنّ ابني قد كلّمني عن رسائل ما، رسائل حطّمت فؤاده، وقد تضفي صدقيّة على الفرضيّة هذه. عاد الأمل إلى فرنسيس، بيد أنّني لم

أواكبه في تفاؤله هذا. حتّى لو استطعنا إخفاء الجثّتين، فسيتمحور التحقيق حول الليسّيه وحرمه بل وسيكون الضغط الذي سينهال علينا فظيعًا، لا يُحتَمَل. وافقني الرأي، وضرب أخماسًا لأسداس، حتّى أنّه فكّر في تسليم نفسه للعدالة بتهمة ارتكاب كلتا الجريمتين. كانت المرّة الأولى في تاريخ حياتنا، المرّة الأولى التي نكون فيها على قاب قوسين من الاستسلام والانهيار. ليس لنقص في عزيمتنا أو شجاعتنا، بل وبكلّ بساطة لأنّ ثمّة معارك في الحياة لا يمكن الفوز فيها.

فجأةً، شقّ سكون الليل طرقٌ متكرِّر أجفلنا. فالتفت كلانا صوب النافذة: كانت فتاة مبهوتة، شاردة الملامح، تقرع بشدّة على الزجاج. لم تكن فينكا وقد عاد شبحها من عالم الأموات ليطاردنا، لا، بل كانت فاني براهيمي اليافعة. فاني التي أذنتُ لها بالبقاء في الحرم أثناء العطلة.

– حضرة المديرة!

تبادلنا أنا وفرنسيس نظرة قلقة. ففاني تقيم في الجناح نفسه، حيث تسكن فينكا. كنتُ على يقين ممّا ستقوله لي: لقد عثرَت على جثّة صديقتها.

– انتهى أمرنا يا فرنسيس. سوف نُجبَر على استدعاء الشرطة، قلتُ له.

لكنّ باب مكتبي ما لبث أن انفتح وانهارت فاني باكيةً بين ذراعيّ. في تلك اللحظة، ما كنتُ أعرف بعد أنّ الإله أرسل إليّ حلًّا لمشكلاتنا كلّها. إله الإيطاليّين. الإله الذي كنّا نصلّي ونتضرَّع إليه في كابيلّا مونتالديسيو ونحن أطفال.

– قتلتُ فينكا! راحَت تتّهم نفسها. قتلتُ فينكا!

15

أجمل صبيّة في المدرسة

خير طريقة لحماية نفسك منهم هي ألّا تشبههم.

مارك أوريل

.1

كانت الثانية فجرًا عندما غادرتُ قسم الطوارئ في مركز مستشفى «لا فونتون» الجامعي. بِمَ أشبِّه رائحة الموت؟ بالنسبة إليّ، هي انبعاثات الأدوية والعقاقير، والمطهِّرات ومستحضرات التنظيف التي تعبق في أروقة المستشفيات.

كان ماكسيم قد سقط من علوّ يفوق السبعة أمتار، قبل أن يهبط على الطريق المُعبَّد. صحيح أنّ كومة من أغصان الشجر عند أسفل المنحدر خفّفت من وقع تدحرجه فارتطامه، لكنّها لم تكن كافية لتجنيبه كسورًا عدّة في الفقرات، وفي الحوض والساقين والضلوع.

بعدما دفعتُ أوليفييه داخل سيّارتي، تبعتُ سيّارة الإسعاف حتّى المستشفى. وقد لمحتُ صديقي لدى وصوله، لمحة خاطفة ليس إلّا: كان جسمه مليئًا بالكدمات، ومثبَّتًا بجبيرة صلبة، فيما لفَّ

طوق عنقه. وقد ذكّرني وجهه الشاحب الجامد والغارق تحت كمّ من الأنابيب، بأنّني كنتُ أعجَز من أن أحميه، ما آلمني حقًّا.

أمّا الأطبّاء القلائل الذين استطاع أوليفييه التحدّث إليهم فقد بادرونا بخطاب جادّ، بل وخطير. لقد دخل ماكسيم في غيبوبة. ضغطه منخفض جدًّا، وعلى الرغم من حقنة النورأدرينالين، لم يرتفع إلّا قليلًا. كان يعاني كسرًا بالغًا في الجمجمة، مرفقًا برضّة شديدة، بل ورم دموي دماغي. لازَمنا قاعة الانتظار، لكنّ الفريق الطبّي لمّح إلى أنّ وجودنا لن ينفع في شيء. فقد فضّل عدم إصدار تشخيص واضح، مع أنّ صورة سكانير للجسم بأكمله قد تسمح بوضع تقرير مفصَّل حول الأعطاب ودرجة خطورتها. والواقع أنّ الساعات الاثنتين والسبعين التالية ستكون حاسمة في تحديد سير المُجريات ومصير المريض. وسط تكتّمه الشديد، قرأتُ ما بين السطور أنّ حياة ماكسيم وقف على خيط رفيع. رفض أوليفييه مغادرة المكان، لكنّه في المقابل ألحّ عليّ لأذهب وآخذ قسطًا من الراحة.

– حالتك مزرية جدًّا، تعلم؟ أفضِّل الانتظار بمفردي.

قبلتُ اقتراحه، ففي قرارة نفسي ما كنت أرغب في الوجود هنا متى أتت الشرطة لاستجواب الشهود. اجتزتُ موقف السيّارات تحت وابل من المطر. كان الطقس قد انقلب جذريًّا في غضون ساعات قليلة. هدأت الريح لتحلّ محلّها سماء مُثقَلة، زغبيّة رماديّة، يتخلّلها برق ورعد.

احتميتُ من غضب الطبيعة في مرسيدس أمّي، ورحت أتفحّص هاتفي. لا خبر من فاني ولا من أبي. حاولتُ الاتّصال بهما، لكن لم يُجب أحد منهما. هذا من شيم ريشار طبعًا. لا بدّ من أنّه عثر على زوجته والآن وقد اطمأنّ قلبه، فليذهب الآخرون إلى الجحيم!

أدخلتُ المفتاح وأدرتُ المحرِّك، لكنّني بقيت في الموقف. كنت أشعر بالبرد. راحت عيناي تغمضان. كان حلقي جافًّا وذهني ما زال مشوَّشًا بأبخرة الكحول. نادرًا ما استبدّ بي إرهاق شديد كهذا، فأنا لم أنم قطّ في الطائرة الليلة الماضية ولا كثيرًا في الليلة التي سبقتها. وها أنا أسدِّد باهظًا فاتورة فارق التوقيت، وكثرة الفودكا وفرط التوتُّر. حاصرني قرع المطر الرتيب فانهرتُ على المقود.

يجب أن نتحدّث يا توماس. اكتشفتُ شيئًا. شيئًا خطيرًا قد... راحت أقوال ماكسيم الأخيرة تهدر في أذني. ما هو ذلك الشيء الطارئ الذي أراد إطلاعي عليه؟ ما الشيء الخطير الذي اكتشفه؟ كم يبدو المستقبل قاتمًا! لم أبلغ خواتيم تحقيقي بعد لكنّني بدأتُ أقرّ بأنّني لن أعاود العثور على فينكا.

ألكسيس، فينكا، فرنسيس، ماكسيم... ما انفكّت لائحة الضحايا تطول. ويجب علي أنا أن أضع حدًّا لها، ولكن كيف؟ أعادتني الرائحة العابقة في السيّارة إلى أيّام طفولتي. تلك الرائحة... العطر الذي كانت أمّي تضعه. «جيكي» من «غيرلان». أريج غامض ومُسكر يمزج نضارة عطور الجنوب الفرنسي – لافندر، بحمضيّات، وإكليل الجبل – وكثافة رائحة الجلد الحادّة والدافئة. تشبّثتُ هنيهة بنفحات العطر. كلّ شيء، كلّ تفصيل كان يعيدني مجدّدًا إلى أمّي...

أنرتُ ضوء السقف. خطر لي سؤال تافه: كم تُكلِّف عربة كهذه؟ 150 ألف يورو على الأرجح. ترى مِن أين أمَّنت والدتي هذا المبلغ لتبتاع سيّارة فخمة كهذه؟ كان لوالديّ راتبا تقاعد لا بأس بهما ومنزل جميل ابتاعاه في أواخر السبعينيّات حين كانت السوق العقاريّة في كوت دازور بمتناول الطبقات المتوسِّطة. لكنّ هذه السيّارة لا تناسب طبعها. وفجأةً، تجلّت لي الحقيقة: لم تترك أنابيل الرودستر لي مصادفة، بل كانت خطّة مُدبَّرة. عاودني مشهد بعد

الظهر. وضعتني أنابيل أمام الأمر الواقع. لم تترك لي خيارًا آخر سوى أن أستعير سيّارتها الخاصّة. ولكن لماذا؟

رحتُ أتفحّص مجموعة المفاتيح. إلى جانب مفتاح السيّارة، استطعتُ تمييز مفتاح البيت، ثمّ مفتاح – أطول بقليل – صندوق البريد إضافة إلى مفتاح آخر، ضخم نوعًا ما، ومغلّف بالمطّاط الأسود. وكانت مفاتيح «مغارة علي بابا» الثلاثة هذه تتدلّى من علّاقة فخمة: شكل بيضاوي من الجلد المُحبَّب، مدموغ بحرفَين مدبَّجين بالكروم: الحرف «أ» يعانق الحرف «ب». إذا كان «أ» يرمز إلى اسم أنابيل، فإلى مَن يرمز «ب»؟

شغّلتُ الـ GPS وألقيتُ نظرة على العناوين المسجَّلة مسبقًا فيه، من دون أن أجد أيّ شيء مشبوه. ضغطتُ على العنوان الأوّل – المنزل – وعجبًا... فيما كان المستشفى على مقربة كيلومترين أو أقلّ من محلّة «لا كوستانس»، أشار الجهاز إلى مسافة عشرين كيلومترًا ومسار معقّد جدًّا يجعلني أمرّ بالشاطئ ليقودني بعد ذلك في اتّجاه نيس.

اعتراني القلق، فحللتُ مكبح اليد وخرجت من الموقف، وأنا أتساءل عن ذلك المكان المجهول الذي تعتبره أمّي منزلها.

.2

في الليل، وعلى الرغم من المطر، بدت حركة السير انسيابيّة وشبه سريعة. ففي أقلّ من عشرين دقيقة، وصلت إلى المكان المقصود، تُرشدني تعليمات الـ GPS: مسكن فخم مزوَّد بجهاز حراسة، ويقع بين كاني-سور-مير وسان-بول-دو-فانس. «أوريليا بارك»، حيث شقّة فرنسيس الخاصّة وموئل مغامراته العاطفيّة. وحيث قُتِل. ركنتُ السيّارة في تجويفة على بُعد ثلاثين مترًا من البوّابة الحديد

المُطرَّق الضخمة التي كانت تحمي المدخل. بعد موجة سرقات العام الفائت، لا بدّ من أنّ حراسة مشدَّدة فُرِضت. كان حارس أشبه بحاجب المكاتب، واقفًا على قدم وساق أمام مركز الحراسة.

تجاوزَتني مازيراتّي، وتقدَّمت إلى بوّابة المدخل. كانت هناك نقطتا دخول. فالزائر يجب أن يمرّ بالحارس إلى جهة اليسار، فيما يسلك سكّان المنزل درب اليمين. وكان جهاز كاشف يمسح لوحة تسجيل السيّارة ويفتح البوّابة في شكل أوتوماتيكي. أخذتُ بعض الوقت للتفكير من دون أن أطفئ المحرِّك. كان الحرفان «أ» و«ب» يرمزان إلى أوريليا بارك، تلك الملكيّة التي كان فرنسيس أحد متعهّديها. وسرعان ما تذكّرتُ عنصرًا معيَّنًا. أوريليا هو اسم والدتي الثاني. اسم كانت تفضّله على أنابيل، على الأرجح. ثمّ تجلّت لي حقيقة أخرى: هو فرنسيس مَن أهدى أمّي سيّارة الرودستر.

هل كان فرنسيس وأمّي عشيقين؟ لم تساورني هذه الفرضيّة يومًا، ولكنّني ما عدت أستغربها حاليًا. شغّلتُ الإشارة، وسلكت الخطّ المخصَّص للمقيمين. كان المطر غزيرًا إلى درجة أنّني كنت شبه واثق في أنّ الحارس لن يستطيع رؤية ملامحي. وبالفعل، مسح الكاشف لوحة المرسيدس وانفتحت البوّابة. إذا كانت لوحتها مسجّلة، فهذا يعني في أيّ حال أنّ أمّي كانت من الزائرين المألوفين.

تتبّعتُ ببطء الطريق الصغير المُعبَّد الذي ما لبث أن توغّل في غابة من أشجار الصنوبر والزيتون. شُيِّد مقرّ أوريليا بارك في أواخر الثمانينيّات، وقد اكتسب شهرةً، ذلك لأنّ متعهِّديه قد أعادوا بناء متنزّه متوسّطي شاسع، وزرعوه نباتات وأزهارًا غريبة ونادرة. أمّا إنجازهم الأكبر الذي أسهبت الصحف والمجلّات في وصفه آنذاك، فيعود فضله أيضًا إلى إنشاء نهر اصطناعي يعبر المنزل من طرف إلى آخر.

لم يكن المتنزّه يعُدّ إلّا ثلاثين بيتًا تقريبًا، وكلٌّ منها بعيد جدًّا من الآخر. تذكّرتُ أنّني قرأتُ في إحدى مقالات الأوبسرفاتور أنّ منزل فرنسيس يحمل الرقم 27. والواقع أنّه شيّد في أعلى نقطة من العقار، وسط غابة كثيفة. من خلال العتمة، لمحتُ ظلال أشجار النخيل ونبتات المانيوليا الطويلة. بعد ذلك، ركنتُ السيّارة أمام البوّابة الحديد المُطرَّق المُشرفة على أسيجة عالية من شجر السرو.

عند دنـوّي من بابها، سمعتُ قلقلة وانفتحت البوّابة على مصرعَيها أمامي. أدركتُ أنّ المفتاح الذي في حوزتي لم يكن في الحقيقة إلّا مفتاحًا عامًّا يفتح الأقفال كلّها ويسمح بدخول المنزل إلكترونيًّا. فيما شرعتُ أتقدّم في الممرّ المبلَّط بالأحجار، فاجأني خرير مياه. لم يكن خريرًا بعيدًا، بل كأنّ نهرًا يجري مباشرةً تحت قدميّ. شغّلتُ مفتاح الإنارة الخارجيّة، فأضاءت الحديقة ومختلف الشرفات الواسعة في آن واحد. لكنّني لم أفهم إلّا بعدما درتُ حول المنزل. على غرار «بيت الشلّال»، تلك التحفة الفنيّة للمهندس المعماري فرانك لويد رايت، كان منزل فرنسيس مبنيًّا مباشرةً على مجرى مياه.

كان بناءً عصريًّا لا يشي بأيّ طابع ريفي فرنسي أو حتّى متوسّطي، بل يذكّر أكثر بأنماط هندسيّة أميركيّة: طابقان علوًّا من دون دعائم ظاهرة كأنّهما معلّقان في الهواء، كان يمزج موادّ عدّة – زجاج، وحجر فاتِح، وإسمنت مُسلَّح – ويندمج بتناغم تامّ مع الخلفيّة الطبيعيّة الخضراء كما المنبسط الصخري الذي شيّد عليه.

انفتح القفل الرقمي عندما اقتربتُ من الباب. كنتُ أخشى أن ينطلق جرس الإنذار فجأة. لاحظتُ علبة مثبّتة ببراغٍ في الجدار، لكنّ شيئًا لم يرنّ أو يرجّ أو ما شابه، بل وكما في الحديقة، ثمّة زرّ كهربائي وحيد يسمح بإضاءة جميع المصابيح. شغّلته فبان الداخل، أنيقًا راقيًا بقدر ما هو مذهل.

كان في الطابق الأرضي الصالون وغرفة الطعام ومطبخ مفتوح. وعلى مثال الهندسات اليابانيّة، كانت المساحة خالية من الحواجز، فلا يفصل بين مختلف الغرف سوى ألواح مفتوحة من الخشب الفاتِح، تسمح بدخول نور النهار.

خطوتُ بضع خطوات داخل المشغل المُستحدَث وأجلت نظري في أرجاء الغرفة. ما كنتُ أتخيّل معقل غراميّات فرنسيس على هذا النحو: كلّ ما فيه كان أنيقًا راقيًا ودافئًا؛ مدفأة الحجر الأبيض الكبيرة، عارضات خشب السنديان الرمليّة اللون، الأثاث المصنوع من خشب الجوز في أشكاله المكوَّرة والمستديرة. على منضدة بار المشروبات، كانت زجاجة جعة نصف فارغة تشير إلى أنّ أحدًا مرّ من هنا منذ بعض الوقت. وفي محاذاة الكورونا، علبة سجائر وولّاعة ملمَّعة يزيّنها ختم ياباني مزخرف.

ولّاعة الزيبو الخاصّة بماكسيم...

طبعًا، فهو مَن أتى إلى هنا بعد حديثنا في بيت والدتي. وما اكتشفه أثار اضطرابه إلى درجة أنّه غادر على عجلة من أمره ناسيًا سجائره وولّاعته.

عندما دنوت من النوافذ الزجاجيّة العريضة المزوّدة بفاصل من حجر الطوب، أدركتُ أنّ فرنسيس قُتل في هذا الموقع بالذات. لا بدّ من أنّه عُذّبَ قرب المدفأة، وربّما تُرِكَ هناك بين الحياة والموت. ومن ثمّ جرّ نفسه على هذه الأرضيّة اللامعة المصقولة حتّى الجدار الزجاجي العريض الذي يطلّ على النهر. وهناك، نجح في الاتّصال بأمّي. لكنّني كنت أجهل ما إذا كانت تلقّت اتّصاله حقًّا.

.3

أمّي...

كانت الأجـواء هنا تتنفّسها، فحضورها يعبق في كلّ زاويـة. استشففتُ يدها خلف كلّ قطعة أثاث، خلف كلّ زينة وزخرفة. فهذا كان بيتها أيضًا. فجأةً أجفلتني خشخشة. استدرتُ ووجدتُني أمامها، أمام أمّي، وجهًا لوجه.

أو بالأحرى، أمام لوحة ذاتيّة لها معلَّقة على الجدار، في الجهة المقابلة من الصالون. توجّهتُ إلى مساحة الأريكة-المكتبة، حيث عُلِّقت صور أخرى. وكنت كلّما دنوت أكثر، فهمتُ أكثر، فهمتُ القصّة التي فاتتني حتّى الآن. ففي مجموعة من خمس عشرة لقطة، ارتسم خطّ مسار الحياة المزدوجة التي عاشها فرنسيس مع أنابيل طوال أعوام عدّة. معًا، سافرا إلى أصقاع العالم الأربعة. في الصور، رحتُ أتعرّف إلى أماكن أنموذجيّة ورمزيّة: الصحراء الأفريقيّة، فيينّا تحت الثلج، ترامواي لشبونة، شلّالات غالفوس في آيسلند، شجر السرو في الريف التوسكاني، قصر إيلان دونان الاسكتلنديّ، ونيويورك قبل انهيار البُرجين.

شعرت بقشعريرة طويلة، وإنّما أثارتها ابتساماتهما وملامحهما الصافية، أكثر منها الأماكن المختلفة التي زاراها. أمّي وفرنسيس كانا متحابّين. وقد عاشا قصّة حبّ مُطلقة لكن خفية، طوال عقود عدّة. علاقة متينة وغير متوقّعة، بمنأى من نظرات العالم.

ولكن لـماذا؟ لماذا لم يجاهرا بعلاقتهما، لماذا لم يجعلاها رسميّة؟

في قرارة نفسي، كنتُ أعرف الجواب. أو بالأحرى، استنتجتُه.

كانت قصّتهما معقّدة ووقفًا فقط على شخصيّتيهما الفريدتين. فأنابيل وفرنسيس صاحبا طبع قاس وصارم، حادّ وعنيد، ولا بدّ من أنّ الواحد وجد في الآخر مواساة متبادلة، فبنيا قوقعتهما الخاصّة. قوقعة

هندسا تفاصيلها بنفسيهما. كيانان فذّان ملؤهما الفرديّة والفرادة، ولطالما وقفا في وجه العالم، بل ضدّ رداءة هذا العالم، ضدّ «الجحيم المتمثّل في الآخرين»، ذلك الجحيم الذي طالما جاهدا للانعتاق منه. الجميلة والوحش. طبعان استثنائيّان يزدريان اللياقات، والقواعد والأصول، والزواج. فبالنسبة إليهما، إمّا أن يكون الحبّ كلّ شيء، أو لا يكون.

فجأةً، لاحظتُ أنّني أبكي. هذا لأنّني عدتُ فاكتشفتُ في صور أمّي المبتسمة، تلك المرأة الأخرى، التي عرفتُها وأنا طفل، امرأة كانت رقّتها تخترق بين الحين والآخر قناع النمسويّة الجامد. لا، لم أكن مجنونًا. لم أتوهَّم هذا كلّه. فتلك المرأة الأخرى حيّة تُرزق، واليوم بتُّ أملك الدليل.

مسحتُ دموعي، ومع ذلك لم تنفكّ تسيل على خدّيّ. فقد تأثّرتُ كثيرًا لمرأى تلك الحياة المزدوجة، وقصّة الحبّ الفريدة، قصّتهما هما، وحدهما. أليس الحبّ الحقيقي خاليًا من جميع اللياقات والقوانين؟ ذلك الحبّ الصافي، النقي بتركيبته، قد اختبرَته أمّي وفرنسيس فيما اكتفيتُ أنا بأن أحلم فيه أو أتخيّله على مرّ صفحات الكتب.

ثمّ لفتت انتباهي صورة أخيرة معلّقة على الجدار: صغيرة الحجم وبلون التراب الداكن، كانت صورة قديمة جدًّا لصفّ مدرسي، التقطت في ساحة إحدى القرى. وتحتها كتابة خُطّت بالريشة: مونتالديسيو، في 12 أكتوبر، 1954. كان الأولاد فيها في العاشرة من العمر تقريبًا، وقد توزّعوا على ثلاثة صفوف من المقاعد الطويلة. ولجميعهم شعر أسود كالليل. ما خلا فتاة صغيرة جالسة على مسافة من المجموعة: كانت شقراء، وعيناها فاتحتَي اللون. وكان الأولاد كافّة ينظرون إلى عدسة الكاميرا، ما خلا فتى صغيرًا، وجهه مستدير لكن عابس. في الواقع، لحظة ضغط المصوِّر الزرّ، أدار فرنسيس رأسه

ليسمِّر نظره في النمسويّة؛ أجمل فتاة في المدرسة. قصّتهما كلّها مدوّنة سلَفًا في هذه الصورة. كلّه رُبط وارتبط هنا، أثناء الطفولة، في تلك القرية الإيطاليّة التي رأتهما ينموان ويكبران.

4.

كان درج معلّق مصنوع من الخشب الخالص يمتدّ صعودًا إلى غرف المنامة. بنظرة خاطفة، رصدتُ تقسيمات الطابق الأوّل: جناحًا رئيسيًّا فخمًا مع ملحقاته من مكاتب، حُجرات ملابس وصالة حمّام. هنا، أكثر منه في الطابق الأرضي، كانت تلك المساحات المزجَّجة الدائمة الحضور قد محت الحدود، لتمزج الداخل بالخارج. وكان الإطار المشهدي استثنائيًّا، إذ في وسعنا تمييز الغابة على مقربة خطوات، فيما يختلِط خرير النهر بصوت المطر. كانت شرفة عريضة، مزجَّجة هي الأخرى، تسمح بالتنزُّه وصولًا إلى حوض سباحة مسقوف، يطلّ على السماء وعلى حديقة معلَّقة تزيّنها النبتات الحُلوة المتعرّشة، والميموزا وشجيرات كرز اليابان.

في أوّل وهلة، كدتُ أعود أدراجي خشية ما قد أكتشفه. لكنّ الوقت ما عاد يسمح بالإرجاء ولا بالتردُّد. دفعتُ باب الغرفة القلّاب لأكتشف فسحة أكثر حميميّة بعد: مزيدًا من الصور، لكن، صوري أنا هذه المرّة. في مراحل طفولتي. عاد الشعور عينه، والذي لم يفارقني طيلة النهار، ليشتدّ وينطبع فيّ أكثر، كلّما تقدّمتُ في تحقيقاتي واكتشافاتي: وأنا أحقّق وأبحث عن فينكا وإنّما كنتُ أبحث أوّلًا وأخيرًا عن ذاتي أنا.

كانت الصورة الأقدم كناية عن لقطة بالأسود والأبيض. قسم الولادات، عيادة جان-دارك، في 8 أكتوبر، 1974، يوم ولادة ت. صورة «سَلفي» قبل الأوان.

كان فرنسيس يمسك بالكاميرا، معانقًا أمّي التي تحمل طفلًا أنجبته للتوّ. وهذا الطفل... هو أنا.

اعتراني ذهول مصحوب باليقين. صعقتني الحقيقة ببداهتها. اجتاحتني موجة من الانفعالات، وحينَ انحسَرَت، كانت غسلتني بفورتها من سمومي كلّها، وتركتني مترنّحًا شبه دائخ. كلّ شيء بات واضحًا، كلّ قطعة استعادت مكانها، لكن، بعدما أبرحتني وجعًا. بقيت عيناي مسمّرتين في الصورة. رحتُ أحدّق في فرنسيس، كأنّني أنظر إلى نفسي في مرآة. ولكن كيف كنت أسير مُغمض العينين طوال هذا الوقت؟ وإنّما فهمتُ المسألة كلّها الآن: لِمَاذا لم أشعر يومًا بأنّني ابن ريشار حقًّا، ولماذا كنتُ أعتبر ماكسيم شقيقًا لي، ولماذا أهبّ للدفاع عن فرنسيس مدفوعًا بغريزة شرسة، أقوى منّي، كلّما تعرّض للإهانة.

تحت وابل مشاعري المتناقضة، جلستُ على حافّة السرير، أمسح دموعي. أن أعرف أنّني ابن فرنسيس حرّرني من عبء مهمّ، لكن أن أدرك أنّني لن أستطيع التحدّث إليه بعد الآن أثقلني بالندم والأسى. راح سؤال واحد يدور في ذهني: هل كان ريشار على علم بسرّ العائلة هذا وبحياة زوجته المزدوجة؟ على الأرجح، لكنّ الأمر غير أكيد. ربّما فضّل طمر رأسه في الرمال طوال سنين عدّة، من دون أن يفهم حقًّا لِمَاذا تسمح أنابيل بخياناته الكثيرة وتتقبّلها برحابة صدر.

هممت بمغادرة الغرفة، لكنّني ما لبثتُ أن عدتُ أدراجي وفي نيّتي إنزال صورة الأمومة عن الجدار. كنتُ أحتاج إلى أخذها معي دليلًا على جذوري. فيما كنتُ أرفع الإطار، اكتشفتُ خزنة صغيرة مخفيّة في الجدار. إلى جانب لوحة رقميّة صغيرة تدعو إلى الضغط على ستّة أرقام. تاريخ مولدي؟ ما كنت أسلّم بذلك ولو ثانية واحدة، لكنّني لم أستطع منعَ نفسي عن المحاولة. ففي بعض الأحيان، ما هو بدهي...

انفتَح باب الخزنة بقلقلة واحدة. لم تكن التجويفة الفولاذيّة عميقة. دسستُ يدي فيها لأخرج مسدّسًا. السلاح الشهير، ذلك السلاح الذي لم يتسنّ لفرنسيس أن يستعمله حينَ هوجِم. وفي جعبة من قماش صغيرة، وجدتُ أيضًا حوالى عشر خراطيش من عيار 38. لم أحبّ الأسلحة يومًا، بل كانت تثير اشمئزازي. لكنّني اضطررتُ في فترة من الفترات إلى الاهتمام بها من كثب، من أجل صدقيّة مَراجِع رواياتي. قلّبتُ المسدَّس في يدي، وأنا أحاول تقدير وزنه. ثقيل ومتين، كان يشبه مسدّسات سميث أند ويسون، الطراز 36: «تشيفس سباشل» بقبضته الخشبيّة وهيكله الفولاذي.

ما معنى وجود هذا السلاح خلف تلك الصورة؟

هل يعني حماية الحبّ والسعادة بشتّى الوسائل؟ أم إنّ الفوز بهما يجعلنا ندفع الثمن، دمًا ودموعًا؟

أدخلتُ خمس خراطيش في الملقِّم، ودسستُ المسدَّس في حزامي. لم أكن واثقًا في أنّني قد أجيد استعماله لكنّني كنتُ متأكّدًا من أنّ الخطر يحدق بنا من كلّ حدب وصوب، من الآن فصاعدًا. ذلك لأنّ هناك مَن عزم على تصفية كلّ الذين يحمّلهم مسؤوليّة وفاة فينكا. وربّما كنتُ أنا التالي على لائحة المطلوبين.

كدتُ أصل إلى أسفل الدرج حين رنّ هاتفي. تردّدتُ قبل أن أفتح الخطّ. فحينَ يتّصل بكم أحد من رقم محجوب عند الثالثة فجرًا، لا يكون ذلك بشرى خير في الأغلب. في النهاية، قرّرتُ أن أجيب. كانت الشرطة. المفوَّض فينسان ديبروين، يتّصل بي شخصيًّا من مخفر أنتيب ليخبرني بأنّ أمّي وُجدَت، مقتولة، وأنّ أبي يتّهم نفسه بقتلها.

أنابيل

أنتيب

السبت 13 مايو 2017

أنا أنابيل دوغاليه. وِلدت في إيطاليا في أواخر الأربعينيّات، في قرية صغيرة من بييمون. واللحظات التي ستلي ربّما تكون الأخيرة في حياتي.

حينَ اتّصل فرنسيس بيانكارديني بي في منتصف ليل 25 ديسمبر الفائت، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لم يتسنّ له الوقت ليتلفّظ إلّا بجزء صغير من جملته: عليك حماية توماس وماكسيم...

تلك الليلة، أدركتُ أنّ الماضي قد عاد أدراجه إلينا. هو وموكب التهديدات والخطر والموت. في وقت لاحق فيما كنت أقرأ مقالات الصحف التي تروي العذابات الفظيعة التي عاناها فرنسيس قبل أن يموت، أدركتُ كذلك أنّ تلك القصّة القديمة لن تنتهي إلّا كما بدأت: بالدم والرعب.

مع أنّنا كنّا نجحنا على مدى 25 سنة، في إبقاء الماضي بعيدًا منّا. ولحماية أولادنا، أوصدنا جميع الأبواب بأقفال محكمة مع الحرص على عدم ترك أيّ أثر. لقد بات التيقّظ طبعنا الثاني، مع أنّ

حذرنا خسر طابعه الهوسي المرضي على مرّ الزمن. حتّى أنّ القلق في بعض الأيّام، ذلك القلق الذي ما انفكّ يقضّ مضجعي، راح يتلاشى في نظري. طبعًا، فقد أرخيتُ قبضتي. وهنا، يكمن خطإي.

كادت وفاة فرنسيس تقضي عليّ. انفطر قلبي، وظننتني راحلة عن هذا العالم. حينَ نُقلت إلى المستشفى، في سيّارة إسعاف، كان جزء منّي يرغب في الاستسلام وموافاة فرنسيس، بيد أنّ قوّة رهيبة أعادتني إلى الحياة.

ما زال عليّ الكفاح لحماية ابني. ولئن انتزع التهديد العائد فرنسيس من أحضاني، فلن يأخذ منّي توماس، أبدًا.

وسيقضي كفاحي الأخير بإنهاء المهمّة، أي، إبادة الشخص الذي يهدِّد مصير ولدي. وجعله يدفع ثمن موت الرجل الوحيد الذي أحببته.

بعد أن غادرتُ المستشفى، عدتُ لأغوص في ذكرياتي، وباشرتُ تحقيقي الشخصي لأفهم مَن الذي يسعى إلى الانتقام بعد مُضي هذه الأعوام كلّها. والانتقام بعنف فظيع، وحقد وعزم رهيبين. ما عدتُ في زهرة شبابي، لكنّ دماغي ما زال سليمًا وما انفكّ يعقل. ومع أنّني كرّستُ وقتي كلّه في البحث عن إجابات عن أسئلتي، إلّا أنّني لم أجد خيطًا واحدًا. فالأخصام الذين قد تعتريهم نزوة الثأر، إمّا ماتوا أو طعنوا في السنّ. ثمّة ما نجهله وقد أتى يُطبِق على دفّة حياتنا الهادئة الآمنة، مهدِّدًا بتخريبها. لقد رحَلَت فينكا ومعها سرّ خطير. سرّ فاتنا، لكنّه يعاود الظهور اليوم، زارعًا الموت في طريقه.

بحثتُ في كلّ مكان، لكنّني لم أعثر على أيّ شيء. إلى أن أخرج توماس منذ قليل أغراضه العتيقة من المستودع وبسطها أمامي على طاولة المطبخ. فجأةً، بان الدليل، صارخًا، أمام عينيّ. رغبتُ في

البكاء غيظًا وغضبًا. لطالما كانت الحقيقة هنا، أمام أعيننا، ومنذ زمن بعيد، يحجبها تفصيل بسيط لم يتمكّن أحد منّا من تبيّنه.

تفصيل بسيط إنّما يقلب المعادلة كلّها.

***

مكتبة t.me/ktabrwaya

كنّا لا نزال في وضح النهار حينَ وصلتُ إلى كاب دانتيب. توقّفتُ أمام واجهة بيضاء تطلّ على جادّة بايكون، لكنّها لا تكشف الكثير عن حجم المنزل وامتداده. تركتُ سيّارتي وسط الشارع، في موازاة سيّارة أخرى، وهرعتُ أقرع جرس الإنترفون. قال لي بستاني كان يعمل على تشذيب الشجيرات أنّ الشخص الذي أبحث عنه ذهب في نزهة مع كلابه إلى ممرّ تير-بوال، ذلك الممرّ الساحلي الضيّق.

ركبتُ سيّارتي وسرتُ بضعة كيلومترات وصولًا إلى موقف شاطئ كيلير، عند ملتقى طريق الغاروب وجادّة أندريه-ستيلّا. كان المكان فارغًا، مهجورًا. فتحتُ صندوق السيّارة لآخذ بندقيّة الصيد التي أخذتُها خلسةً من ريشار.

لأتشجّع وأسير قدمًا، رحتُ أستعيد جولات الصيد القديمة التي كنتُ أقوم بها مع أبي بالتبنّي، وسط كتل الغابات المتراصّة، خلال صبيحة كلّ أحد. كنتُ أهوى مرافقته. مع أنّنا ما كنّا نتحادث كثيرًا، فقد كانت النزهات هذه من لحظاتنا المتبادلة، لحظات وجيزة وإنّما تعني أكثر من الخطابات الطويلة. ما زلتُ أذكر بتأثّر، كلبنا السيتير الإيرلندي، بوتش. دومًا في أثر طيور الحجل، ودجاج الأرض والأرانب البريّة، لم يكن له مثيل في الدنوّ منها والحملقة فيها قبل أن نُطلق النار عليها.

قلّبتُ السلاح في يدي، مُداعبةً قبضة خشب الجوز المُزيَّنة، منعمةً هنيهة في دقّة النقوش التي تزيّن البندقيّة. بحركة واحدة،

فتحتُ القلّاب الفولاذي، ودسستُ خرطوشتين في الملقِّم. ثمّ سلكتُ الدرب الضيّقة التي تضربها الأمواج.

بعد أن اجتزتُ خمسين مترًا تقريبًا، أوقفني سياج: «منطقة خطرة-ممنوع الدخول». مَن المسؤول؟ على الأرجح موجات المدّ البحري التي ضربت الموقع يوم الأربعاء الفائت، مسبّبة انهيارات صخريّة وفق ما يبدو. تفاديتُ العائق عبر القفز على الصخور.

حسّن هواء البحر حالي، فيما أعادني إلى جذوري المشهد الخلّاب المترامي على مدّ النظر حتّى جبال الألب. وعند منعطف الشطّ المتعرِّج، لمحتُه... طيفًا طويلًا ونحيفًا. طيف قاتِل فرنسيس. كانت الكلاب الضخمة المحيطة به تتقدَّم جوقة واحدة في اتّجاهي.

ثبّتُّ بندقيّتي على كتفي. تركّز نظري على هدفي. لقد بات في مرمى تصويبي. إنّها فرصتي الأخيرة.

حين دوَّت الطلقة، واضحة، قصيرة وخاطفة، تفجّر كلّ شيء في رأسي.

مونتالديسيو، مناظر إيطاليا، المدرسة الصغيرة، ساحة القرية، الإهانات والشتائم، الدماء، فخر الصمود، ابتسامة توماس، الطفل ابن الثلاث السنوات، الساحرة ببراءتها، وحُبّ رَجل طويل الأمد، رجل غير الرجال كلّهم.

وكلّ ما عنى وقد يعني لي في حياتي...

16

ما زال الليل ينتظرك

ما زال الليل ينتظرك، فلتقتنع بذلك.

رينيه شار

.1

في الليل العاصف، بدت شوارع أنتيب ملطَّخة بطلاء سميك ولزج سقط سهوًا من ريشة رسّام أخرق.

كانت الرابعة فجرًا. رحتُ أجول ذهابًا وإيابًا تحت المطر، أمام مخفر الشرطة في جادّة فرير-أوليفييه. كنت قد ارتديتُ معطفي المشمَّع لكنّ شعري كان مبلّلًا بأكمله فيما يتسرّب سيل من الماء إلى ياقة قميصي. هاتفي المحمول قرب أذني، كنت أحاول إقناع مُحامٍ نخبوي من نيس بأن يساند أبي إن طالت مدّة احتجازه.

– كأنّ فيضًا من الكوارث المتتالية أطبق على خناقي. فقبل ساعة فقط، حينَ غادرتُ أوريليا بارك، أوقفتني شرطة السير لأنّني تجاوزتُ السرعة المحدّدة. فتحت وطأة الانفعال، كنتُ أطلقتُ العنان للرودستر، بأسرع من 180 كلم/ساعة على الطريق السريع. جعلتني أنفخ في الأنبوب لقياس نسبة الكحول في دمي، وقد دفعتُ باهظًا

ثمن مشروبات الكوكتيل وأقداح الفودكا: تعليقًا فوريًا لرخصة قيادتي. ولأتمكّن من متابعة مساري، لم أجد خيارًا آخر أمامي سوى اللجوء إلى ستيفان بيانيلي، طلبًا للنجدة. كان الصحافي قد علم بوفاة أمّي، فأكّد لي أنّه آتٍ في الحال. وقد أتى فعلًا لاصطحابي بسيّارته: داسيا الرباعيّة الدفع، وعلى مقعدها الخلفي إرنستو، مستغرقًا في النوم. كانت تفوح منها رائحة الخبز بالزنجبيل وفي ما يبدو، لم تلتقِ يومًا «الفيل الأزرق» المتربِّع على لافتة مغسله. في طريقنا إلى المخفر، كان هو مَن لخّص لي آخر المجريات، مكملًا المعلومات التي زوّدني بها المفوَّض ديبروين: عُثِر على جثّة أمّي في كاب دانتيب، على صخور الممرّ الساحلي. وكانت شرطة البلديّة التي استدعاها سكّان المحلّة بعدما أقلقهم ضجيج الطلقة الناريّة، أوّل مَن اكتشف وفاتها.

– آسف جدًّا أن أعلمك بالأمر يا توماس، لكنّ الظروف التي قُتِلت فيها مروِّعة حقًّا. لم نر يومًا شيئًا من هذا القبيل في أنتيب.

كان نور سقف داسيا قد بقي مضيئًا. وكان بيانيلي يرتجف: شاحب الوجه، ومصابًا في الصميم بالفظاعة التي اقتحمت فجأةً دائرة علاقاته الراقية. ففي النهاية، كان هو الآخر يعرف والديّ. أمّا أنا، فكنتُ مخدَّرًا، أبعد من حدود التعب، وأبعد من حدود الحزن والوجع.

– وُجِدت بندقيّة صيد قربَ ساحة الجريمة، لكنّ أنابيل لم تمُت بالرصاص، بدأ يشرح.

عانى صعوبة فائقة في سرد باقي القصّة، وقد وجب عليّ الإصرار ليفصح عن الحقيقة كاملة.

وهذا تمامًا ما كنتُ أحاول شرحه لـ«دوبوند-موريتي»[1] محامينا، بعدما غادرتُ المخفر: لقد سُحق وجه أمّي شرّ سحقة،

[1] إريك دوبوند موريتي، من أشهر المحامين الجنائيين في فرنسا.

فغرق في الدماء نتيجة وابل من الضربات العنيفة نفّذها القاتل بمقبض البندقيّة. وبالطبع، ليس أبي مَن فعل ذلك. فقد ذهب ريشار إلى ذلك المكان فقط لأنّني أرشدته إليه، وكانت أنابيل قد قضت حين وصل. فانهار باكيًا على الصخور، أمّا ذنبه الوحيد فكان أنّه نظر إلى جثّة زوجته وهو ينتحب: «أنا مَن فعل هذا! أنا!» وهذا التوكيد كما شرحتُ للمحامي ما كان ليؤخذ حرفيًّا في طبيعة الحال. فقد كان واضحًا أنّه يعني الندم لعجزه عن منع هذه الجريمة، أكثر منه اعترافًا بالذنب. وافقني المحامي من دون عناء وأكّد لي أنّه سيساعدنا.

حين أقفلتُ الخطّ، كانت السماء لا تزال تصبّ أمطارها وبالغزارة عينها. انزويتُ تحت سقف إحدى محطّات الباص المهجورة، في ساحة الجنرال ديغول، حيث أجريتُ مكالمتين أصابتا منّي مقتلًا، واحدة إلى بورت-أو-برانس وأخرى إلى باريس لإخطار أخي وأختي بوفاة أمّنا. ظلّ جيروم كما عهدته، رزينًا متماسكًا ولو مصابًا في الصميم. أمّا حديثي مع أختي فاتّسم بشيء من السورياليّة. ففيما كنتُ أظنّها في بيتها في الدائرة السابعة عشرة، كانت تُمضي عطلة الأسبوع مع حبيبها في استوكهولم. حتّى أنّني لم أكن أعرف أنّها انفصلت عن زوجها العام الفائت. أخبرتني بطلاقها ومن ثمّ أطلعتها أيضًا على الكارثة التي ألمّت بأسرتنا، لكن مع التكتُّم عن فظاعة الظروف. انتابتها نوبة من البكاء والنحيب وعجزتُ عن تهدئتها، شأني شأن الرجل النائم جانبها.

ثمّ بقيتُ وقتًا أجوب الساحة كطيف تائه، تحت غضب العاصفة. لقد غمرت المياه المكان. لا بدّ من أنّ إحدى قنوات التصريف قد انكسرت، جارفةً معها جزءًا من الزفت. راحت النوافير التي لا تزال مُضاءة، تقذف مياهها عاليًا، دفقات طويلة تلتمع كالذهب في عتمة الليل، لتمتزج بالمطر فتستحيل ضبابًا شفّافًا يطفو في الأجواء.

وقفتُ مُبلَّلًا، يغمرني الرذاذ من كلّ صوب، قلبي رماد، أعصابي جمر حارق وجسمي مسحوق. كان الضباب الرقيق يُغرِق خطواتي، ماحيًا معالم الساحة وحدودها، حوافي الأرصفة والإشارات على الأرض، كأنّه كان يغرق معه أيضًا قيمي ومراجعي ونقاط استدلالي كلّها. ما عدتُ أعرف دوري في قصّة تعيث فيّ فسادًا منذ سنين. سقوط لا نهاية له. سيناريو فيلم قاتم نفَّذتُه ولم أكتبه.

فجأةً، اخترق الضباب ضوء مصباحين راحا يتمدّدان صوبي: لقد عادت داسيا، تلك العربة المنتفخة الجانبين؛ داسيا ستيفان بيانيلي.

– هيّا اركَب يا توماس! قال لي بعدما أنزل زجاج نافذته. كنتُ أعلم أنّك لن تجد سبيلًا للعودة. هيّا سأقلّك إلى بيتك.

لا حول ولا قوّة لي، قبلتُ اقتراحه. كان المقعد لا يزال مليئًا بالخردة. كما في المرّة السابقة، جلستُ على المقعد الخلفي، قرب إرنستو الذي لا يزال نائمًا.

شرح لي بيانيلي أنّه عائد من وكالة نيس-ماتان. بما أنّ الجريدة قد اختتمت عددها في المساء الباكر، فلن يصدر أيّ خبر عن وفاة أمّي في العدد الأوّل، صباح الغد. لكنّ الصحافي قد عاود المرور بمكتبه ليحرّر مقالة مخصّصة لموقع الجريدة الإلكتروني.

– الشبهات الطفيفة التي تدور حول والدك لن يؤتى على ذكرها حتّى، أكّد لي.

وفيما كنّا نسير في محاذاة الشاطئ في اتّجاه «لا فونتون»، أسرّ بيانيلي لي بأنّه صادف فاني وهو يغادر المستشفى، حيث ذهب يتقصّى من جديد حول ماكسيم في ساعات المساء الأولى.

– كانت على وشك الانهيار. لم أرها يومًا في هذه الحال.

في الحال، رنّ جرس إنذار في غياهب ذهني المُرهَق.

– وماذا قالت لك؟

كنّا قد توقّفنا عند تقاطُع سيبستا. إشارة الوقوف الحمراء الأطول في العالم...

– أخبرَتني كلّ شيء يا توماس. قالت لي أنّها قتلت فينكا وقد ساعدها فرنسيس ووالدتك في طمس فعلتها.

فهمتُ أكثر سبب اضطراب بيانيلي وانزعاجه منذ قليل: لم يكن تحت وطأة ظروف وفاة أمّي القاسية فحسب، بل وكان مبهوتًا لاكتشافه قضيّة اغتيال.

– وهل قالت لك ما حدث لكليمان؟

– لا، أقرّ صادقًا. تلك المعلومة الوحيدة الناقصة في القصّة.

تحوّلت الإشارة خضراء. سلكت داسيا الطريق الرئيسي لتعاود الصعود نحو «لا كونستانس». كنتُ مُزهَقًا بالكامل وقد تشوّش ذهني. بدا لي أنّ النهار هذا لن ينتهي أبدًا. وأنّ موجة جارفة ستودي بكلّ شيء. اعترافات واكتشافات كثيرة، موتى كُثُر، وتهديدات عدّة ما زالت تحوِّم فوق أحبّائي. عندذاك، فعلتُ ما لا يجدر فعله. تخلّيتُ عن حذري. خرقتُ خمسًا وعشرين سنة من الصمت المُطبق لأنّني أردتُ وتمنّيتُ أن أؤمن بالمرء وإنسانيّته. أردتُ التصديق أنّ بيانيلي رجل صالح وسوف يمنح صداقتَنا لا عمله صحافيًّا الأولويّة.

كشفتُ أوراقي كلّها: جريمة قتل كليمان وكلّ ما عرفتُه اليوم. فور وصولنا إلى منزل والديّ، ركن بيانيلي السيّارة أمام البوّابة من دون إطفاء المحرِّك. بقينا نصف ساعة إضافيّة نتناقش داخل السيّارة العتيقة علّنا نتبيّن الأمور في شكل أوضح. بكثير من الصبر والتعاطف، ساعدَني في استعادة تسلسل مجريات بعد الظهر. لقد استرقت والدتي السمع على الأرجح حينَ كنّا نتحدّث أنا وماكسيم. وعلى غراري، لا بدّ من أنّها لاحظت الفروقات بين الإهداء المخطوط في

الكتاب وبين الملاحظات والتنقيحات التي دوّنها ألكسيس كليمان بيده على أوراق امتحاناتي. ولكن، على عكسي أنا، قد ساعدها هذا التفصيل في التعرُّف إلى هويّة قاتل فرنسيس. فضربت له موعدًا أو ربّما تقفّت أثره وصولًا إلى كاب دانتيب، وذلك بنيّة تصفيته. بكلمة واحـدة، نجحت هي حيث فشلنا نحن: كشف النقاب عن الوحش الذي لا حدّ لشراسة جنونه المُميت ولا قيد.

تَبَصُّر كلّفها حياتها.

– حاول أن تستريح بعض الوقت، قال ستيفان وهو يعانقني سريعًا. أتّصل بك غـدًا. سنذهب معًا إلى المستشفى لنستعلم عن أحوال ماكسيم.

مع أنّني نادرًا ما أستشفّ لديه هذا الدفء والودّ في الكلام، لم أقوَ على الإجابة، بل اكتفيتُ بإغلاق باب السيّارة خلفي. بما أنّ جهاز التحكُّم لم يكن في حوزتي، اضطررتُ إلى تسلّق البوّابة. فقد تذكّرتُ أنّنا نستطيع دخول البيت عبر مساحة مخصَّصة للمرأب في القبو الذي عـادةً ما لا يقفله والـداي. فور دخولي الصالون، لم آخذ عناء إنارة الضوء حتّى، بل وضعتُ حقيبتي على الطاولة، وجانبها مسدَّس فرنسيس. خلعتُ ملابسي المبلَّلة واجتزتُ الصالون كَمَن يمشي في نومه قبل أن أتهاوى على الأريكة. تكوّمتُ هناك، مستدفئًا ببطّانية صوف، واستسلمتُ للنوم.

لقد لعبتُ... وخسرتُ، على جميع الأصعدة. سحقتني محنتي. من دون أن أتهيّأ لذلك، عشتُ النهار الأسوأ في حياتي. فهذا الصباح حينَ اجتزتُ عتبة كوت دازور، أدركتُ جيّدًا، بل ومسبقًا أنّ زلزالًا وشيكًا سيقع، لكنّني لم أتوقَّع جنونه هذا وجموحه، ولا طابعه العنيف المُدمِّر.

17

حديقة الملائكة

ربّما حين نموت وحسب، وربّما حينذاك فقط، يعطينا الموت مفتاح تلك المغامرة الضائعة وما بقي منها.

آلان-فورنييه

الأحد 14 مايو 2017

حين فتحتُ عينيّ، كانت شمس الظهيرة تسود سائر أرجاء الصالون. لقد نمت حتّى الواحدة بعد الظهر، نومًا ثقيلًا، عميقًا، فصلني تمامًا عن واقعي الأسود.

استيقظتُ على رنين هاتفي المحمول. لم أكن سريعًا ما يكفي للردّ، لكنّني اطّلعتُ على الرسالة الصوتيّة التي تركها المتّصل. كان والدي يُخطرني من هاتف محاميه أنّهم أطلقوا سراحه وأنّه في طريقه إلى المنزل. حاولتُ الاتّصال به على عجل، لكنّ بطّاريّة هاتفي كانت قد فرغت. وبما أنّ حقيبة سفري بقيت في السيّارة المُستأجرة، رحت أبحث في المنزل بلا جدوى عن شاحن يلائم هاتفي، ومن ثمّ عدلتُ عن الفكرة كلّها. اتّصلتُ من الهاتف الثابت بمستشفى أنتيب

الجامعي، حيث لم أوفّق بمن يزوّدني بمعلومات شافية عن وضع ماكسيم.

استحممت سريعًا وارتديتُ ملابس عثرتُ عليها في خزانة أبي: قميص شارفيه وسترة من صوف الفيكونيا. خرجتُ من الحمّام لأبتلع ثلاثة فناجين قهوة إسبريسّو على التوالي، وأنا أحدّق من خلال النافذة بالبحر يتدرَّج تلوينات زرقاء برّاقة. في المطبخ، وجدتُ أغراضي كما هي، حيث تركتُها البارحة: صندوق الكرتون الكبير مستقرًّا في شبه توازن على مقعد بلا ظهر، وعلى منضدة الخشب الصلب، أوراق الإنشاء العتيقة، ودفاتر علاماتي، وأشرطة المنوَّعات، وديوان شعر تسفيتاييفا الذي فتحتُه ثانيةً لأقرأ الإهداء الجميل من جديد:

إلى فينكا،
كم أودّ أن أكون روحًا من دون جسد فلا أنفصل عنك أبدًا.
أن أحبّكِ يعني أن أحيا.
ألكسيس

تصفّحتُ الكتاب، بدايةً شارد الذهن والنظرات، ومن ثمّ بتركيز أكبر. لقد صدر ضمن منشورات مركور دو فرانس، لم يكن «مون فرير فيمينان» ديوان شعر كما كنتُ أظنّ، بل مقالة حشاها أحدهم – سواء فينكا أو الشخص الذي أهداها إيّاها – بالملاحظات والتعليقات. استوقفتني جملة مُسطَّرة: «وتلك [...] هي الثغرة الوحيدة في ذلك الكيان الكامل المكتمل الذي تجسّده امرأتان متحابّتان. فالمستحيل لا يقضي بأن نحارب إغراءات الرجل، بل أن نقاوم الحاجة إلى طفل».

لَمسَت العبارة وترًا حسّاسًا: ذلك الكيان الكامل المكتمل الذي تجسّده امرأتان متحابّتان. جلستُ على أحد المقاعد وواصلتُ القراءة.

امـرأتـان مـتحـابّـتـان... كـان الـنصّ الـذي وضـع فـي بـدايات الثلاثينيّات، مكتوبًا بأسلوب رائع، وعبارة عن وصف شعري لمفهوم الحبّ بين اثنين من جنس واحـد. لم يكن بيانًا، بل تأمّلًا متوجّسًا ومضطربًا حول استحالة إنجاب طفل من امرأتين، طفل يكون حقًّا منهما.

وعندذاك، فهمتُ... فجأةً أدركتُ ما فاتني منذ اليوم الأوّل. وفهمتُ ما يبدِّل كلّ شيء.

كانت فينكا تحبّ النساء. أو في أيّ حال، قد أحبّت فينكا امرأة. ألكسيس. اسم مُختلط. اسم مذكّر حصرًا في فرنسا، بيد أنّه يحتكر الغالبيّة المؤنَّثة في البلدان الأنغلوسكسونيّة. هالني هذا الاكتشاف فيما رحت أتساءل عمّا إذا كنتُ أضلّ طريقي مرّة جديدة.

قُرِع جرس البوّابة. ظنًّا منّي أنّه والدي، فتحت القفل تلقائيًّا وخرجتُ أستقبله على التّراس. لكن عوضًا عن ملاقاة ريشار، وجدتُني وجهًا لوجه أمام شابّ هزيل جدًّا، ناعم الملامح وصاحب نظرة يصيبك صفاؤها بالصميم.

– أنا كورانتان ميريو، معاون السيّد بيانيلي، قال معرِّفًا بنفسه وهو ينزع خوذة الدرّاج وينفض خصلات شعره الصهباء.

أسند الصحافي المبتدئ درّاجته إلى الجدار: درّاجة هوائيّة غريبة من البامبو مع مقعد جلدي مركّب على رفّاصات.

– تعازيّ الحارّة، بادرني بملامح آسفة تكاد تختفي تحت لحيته الكثّة الصهباء والمتنافرة تمامًا مع وجهه اليافع.

دعوته إلى الدخول لشرب القهوة.

– بكلّ سرور، شرط ألّا تكون كبسولات جاهزة.

تبعني إلى المطبخ، وفيما راح يتفحّص غلاف الأرابيكا قرب إبريق القهوة، ربّت بزهو على ظرف من الكرتون كان يضمّه إلى صدره.

– لديّ معلومات من أجلك!

فيما كنتُ أعدّ القهوة، جلس كورانتان ميبريو على مقعد من دون ظهر وأخرج رزمة من الوثائق المليئة بالملاحظات. بينما كنتُ أضع فنجانًا أمامه، لمحتُ عناوين العدد الثاني لنيس-ماتان مرميًا في حقيبته. صورة للممرّ الساحليّ دوِّن عليها: «هلع شديد يرخي بظلاله على المدينة».

– لم تكن بالمهمّة السهلة، لكنّني استطعتُ جمع معلومات مهمّة من هنا وهناك حول مسألة تمويل الليسّيه، بدأ يقول.

جلستُ قبالته وبحركة من رأسي حثثته على المتابعة.

– كنتَ على حقّ: تمويل ورشة سانت-إكز يرتكز بأكمله على تبرُّع ضخم وغير متوقَّع تلقّته المؤسّسة أخيرًا.

– وماذا تعني بـ«أخيرًا»؟

– بداية العام.

بعد أيّام قليلة من وفاة فرنسيس.

– ومن قدّمه؟ أسرة فينكا روكويل؟

فقد خطر لي أنّ آلاستير روكويل، جدّ فينكا، لم يتقبّل قطّ اختفاء حفيدته وربّما نظّم حملة ثأريّة بعد الوفاة.

– أبدًا، أجاب ميبريو وهو يضع قطعة سكّر في قهوته.

– مَن إذًا؟

استشار الفتى«الهيبّي» الملاحظات التي كان دونّها.

– جمعيّة ثقافيّة أميركيّة قدّمت التبرُّع: جمعيّة هاتشينسون دوفيل.

أوّل وهلة، لم يعن لي الاسم شيئًا. ارتشف ميبريو قهوته دفعة واحدة.

– وفق ما يـدلّ اسمها، تتولّى تمويل الجمعيّة أسرتـان؛ آل هاتشينسون وآل دوفيل، وكلتاهما جمعت ثروة مهمّة في كاليفورنيا خلال مرحلة ما بعد الحرب، وذلك عبر إنشاء شركة سمسرة تملك اليوم مئة وكالة في سائر أنحاء القارة الأميركيّة.

واصل الصحافي قراءة ملاحظاته.

– تؤدّي الجمعيّة دور مُناصر الفنون والثقافة وراعيها. فتموِّل بصورة أساسيّة المدارس، الجامعات والمتاحف: ثانويّة سان-جان باتيست، بيركلي، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، متحف الفنّ العصري في سان-فرانسيسكو، متحف فنون ولاية لوس أنجلوس...

رفع ميبريو كمَّي قميصه الجينز الذي كان مُلتصقًا بصدره إلى درجة أنّه بدا واحدًا مع جلده.

– أثنـاء عقد اجتماع مجلس إدارة الجمعيّة الأخـير، طُرِحَ اقتراح غير معهود على التصويت: أوّل مرّة، عرض أحد الأعضاء فكرة الاستثمار خارج الولايات المتّحدة.

– توسيع الليسّيه سانت-إكزوبيري وتجديد مبانيه؟

– بالضبط. وقد احتدّ النقاش. فالمشروع بحدّ ذاته لم يخلُ من الأهميّة، لكنّه يتضمّن بنودًا غريبة مثل إنشاء واحة تنزّه في محاذاة البحيرة: «حديقة الملائكة».

– كلّمني ستيفان عن أرض واسعة مشجَّرة.

– أجل، تمامًا. ينوي مُقترح الفكرة أن يحوِّلها ملاذًا خشوعيًّا لذكرى فينكا روكويل.

– ولكنّه جنون مُطبِق، لا؟ كيف صادقت الجمعيّة على حماقة كهذه؟

– الواقع أنّ قسمًا كبيرًا من المجلس عارض الفكرة، لكنّ إحدى الأسرتين لم تعد تمثّلها سوى وريثة واحـدة. وبسبب علّة نفسيّة

تعانيها، ما عاد أعضاء إداريّون كثر يثقون فيها. ومع ذلك، نظرًا إلى مكانتها العالية، كانت تتمتّع بعدد كبير من الأصوات وقد استطاعت إقناع ما يكفي من المقترعين بالتصويت لمصلحتها، ففازت بالأغلبيّة بفارق بسيط.

رحتُ أدلِّك جفنيّ. انتابني شعور غريب ومتناقض: ما كنتُ أفقه شيئًا وإنّما في الوقت عينه، بتُّ قريبًا جدًّا من هدفي. وقفتُ لأحمل حقيبة الظهر. كان عليّ التحقُّق من أمر. وجدتُ داخلها مجلّد العام الدراسي 1992-1993. وفيما كنتُ أقلّب صفحاته، أنهى ميبريو شرحه:

– الوريثة التي تسيطر على قرارات الجمعيّة هاتشينسون ودوفيل تدعى ألكسيس شارلوت دوفيل. أظنّك تعرفها. فقد علّمت في سانت-إكز حين كنتَ تلميذًا هناك.

ألكسيس دوفيل... أستاذة الأدب الإنكليزي، صاحبة الكاريزما القويّة.

لبثتُ مصعوقًا، فيما تسمّرت عيناي في صورة التي كان الجميع يسميها آنذاك الآنسة دوفيل. حتّى في المجلّد السنوي، كان اسمها مخبّأً خلف الحرفين أ. ك. أخيرًا، عثرتُ على «قاتل» والدتي، و«قاتل» فرنسيس. وتلك التي حاولت قتل ماكسيم. وتلك التي في شكل غير مباشر، دفعت فينكا صوب مصيرها الجنائزي.

– بعد أن أودِعَت مرّات عدّة دار الراحة، عادت لتعيش ستّة أشهر في العام، في كوت دازور، تابع ميبريو، موضحًا. وقد عاودت شراء فيلّا فيتزجيرالد القديمة في كاب دانتيب. هل تعلم أين تقع؟

اندفعتُ كالسهم إلى الخارج قبل أن أدرك أنّني ما عدت أملك سيّارة. تردّدتُ. لن أخطف درّاجة الصحافي. عوضًا عن ذلك، نزلتُ إلى القبو عبر المرأب، وأزلتُ الغطاء البلاستيك عن درّاجتي

الموبيليت العتيقة. اعتليتُ مقعد الـ 103 وحاولتُ أن أدير محرِّكها مثلما كنتُ أفعل في الخامسة عشرة: بالدوّاسة.

لكنّ المكان كان باردًا ورطبًا والمحرِّك جامدًا، يأبى الاستجابة. سرعان ما وجدت علبة العدّة وعدتُ أدراجي إلى الدرّاجة. أزلتُ الجهاز المضادّ للتشويش، وفككتُ الشمعة بمفكّ: كانت سوداء مكسوّة بالسخام. وكما اعتدتُ أن أفعل مئات المرّات قبل الانطلاق إلى المدرسة، مسحتُها بخرقة عتيقة ثمّ فركتها بورق الزجاج قبل أن أعيدها إلى مكانها. عادت إليّ الحركات المألوفة، الواحدة تلو الأخرى. فقد انطبعت في زاوية ما من ذاكرتي، ذكريات بعيدة من حقبة غير بعيدة، حيث كانت الحياة تبتسم لي، وتعدني بألف وعد.

حاولتُ مجدّدًا أن أشغّل المحرِّك. لمستُ تحسُّنًا طفيفًا لكنّ الموبيليت ما عادت تستجيب للسرعة المُبطّأة. نزعتُ عكازها، وقفزتُ على مقعدها وتركتها تنزلق بي على المنحدر. أصدر المحرِّك حشرجة كأنّه يختنق، ثمّ انتهى بالزمجرة. اندفعتُ على الطريق، راجيًا أن تصمد الموبيليت بضعة كيلومترات. فأنا ما عدتُ أحتاج إلى السرعة المُبطّأة.

مكتبة t.me/ktabrwaya

ريشار

راحت المشاهد تتصادم في دماغي. صور لا واقعيّة، صور لا تُحتمل، بل وأفظع من أسوإ الكوابيس. وجه زوجتي مهشَّمًا، متفجِّرًا، مسحوقًا. وجهها، وجه أنابيل الجميل تحوَّل غشاءً أحمر، قناعًا من أشلاء جلديّة مخضّبة بالدماء.

أنا ريشار دوغاليه وقد سئمتُ العيش.

إن كانت الحياة حربًا، فهي لم تشنّ عليّ هجومًا فحسب، بل وفي خنادق الوجود، راحت تطعن بطني وأحشائي بحربتها، طعنة تلو أخرى. وأنا عاجز، أعزل، مُلزَم الاستسلامَ من دون شروط في أكثر المعارك إيلامًا.

أمكث جامدًا وسط الشذر الذهبي التي تنثره أنوار الصالون. من الآن فصاعدًا، منزلي فارغ وسيبقى فارغًا إلى الأبد. لستُ أقوى على تقبّل حقيقة المحنة: خسرتُ أنابيل، خسرتُها إلى الأبد. ولكن، متى خسرتها حقًّا؟ منذ بضع ساعات، على شاطئ كاب دانتيب؟ أم منذ بضع سنوات؟ أم ربّما من عقود عدّة؟ أو من الأجدى أن أقرّ بأنّني لم أخسرها. لم أخسر أنابيل قطّ، بما أنّها لم تكن ملكي يومًا...

أمكث مكاني، مأخوذًا بمسدَّس صغير على تلك الطاولة قبالتي. سلاح أجهل تمامًا سبب وجوده هنا. سميث أنـد ويسون بقبضة خشبيّة، كما في الأفلام السينمائيّة القديمة. وهو محشوّ: خمس خراطيش، من عيار 38. أمسك المسدّس وأقلّبه بين يديّ، أحسّ بثقل هيكله الفولاذي. أشعر به يناديني. حلّ وحيد، بدهي سريع ونهائي لمشكلاتي كلّها مجموعة. صحيح أنّ فكرة الموت تريحني وتطمئنني، أو أقلّه في الأمد القصير. نسيتُ سنوات زواجي الغريب، سنوات أربعين عشتها جانب تلك المرأة الغامضة، والتي لطالما قالت أنّها «تُحبّني على طريقتها»، أي أنّها لا تحبّني.

والواقع أنّ أنابيل كانت فقط تتقبّلني، ليس إلّا، وفي نهاية المطاف، هذا أفضل من لا شيء. أجل، أن أعيش معها كان يعذّبني، لكن أن أعيش من دونها يقتلني. كانت لنا اتّفاقاتنا السريّة التي لطالما أظهرتني للعيان زوجًا متلهّيًا خائنًا – وهذا ما كنتُه حقًّا – فيما حمتها من القيل والقال وأنظار المتطفّلين. لا أحد ولا شيء كان ليؤثّر في أنابيل، بل كانت عصيّة على أيّ تصنيف، وأيّ معيار وأيّ قاعدة أو عرف. والواقع أنّ حريّتها المطلقة هذه هي ما كان يسحرني. ففي النهاية، ألسنا نُحبّ الغموض وحسب في الآخر؟ كنتُ أحبّها، لكنّ قلبها لم يكن شاغرًا. كنتُ أحبّها، لكنّني عجزتُ عن حمايتها.

صوّبتُ فوهة الـ«تشيف سبشيل» إلى صدغي وفجأةً، تنفّستُ الصعداء: أودّ لو أفهم مَن ذا الذي وضع هذا السلاح أمامي؟ توماس، ربّما؟ هذا الولد الذي ليس ابني. وهذا الولد الذي هو الآخر لم يحبّني يومًا. أغمضتُ عينيّ فظهر وجهه، ومعه عشرات الذكريات الواضحة التي رافقت طفولته. مشاهد طبعتها الدهشة والأسى. دهشة قبالة هذا الولد الذكي، الفضولي والعاقل؛ وأسى ليقيني أنّني لستُ والده.

اضغَط على الزناد إن كنتَ رجلًا بحقّ!

ليس الخوف ما جعلني أعدل، بل موزار. نوتات القيثار والمزمار، تلك النوتات الثلاث التي تُخطرني حالما تبعث أنابيل لي برسالة نصيّة. جفلتُ في الحال. تركتُ المسدَّس لأهرع إلى هاتفي. ريشار، لديك رسالة. أ.

بلى، لقد بُعِثت الرسالة في هذه اللحظة بالذات، ومن هاتف أنابيل. إلّا أنّ هذا مستحيل فهي ماتت وقد تركت هاتفها المحمول في البيت. التفسير الوحيد إذًا، هو أنّها برمجت وصول تلك الرسالة النصيّة قبل أن تموت.

ريشار، لديك رسالة. أ.

أيّ رسالة؟ أيّ رسالة؟ استعرضتُ بريدي كلّه في الهاتف، لكنّني لم أجد ما يجدي نفعًا. خرجتُ من المنزل ونزلتُ عبر ممرّ الإسمنت إلى صندوق بريدنا. إلى جانب منشور دعائي لخدمة توصيل السوشي إلى المنازل، وجدتُ ظرفًا سميكًا من الأزرق السماوي، ذكّرني برسائل الحبّ التي كنّا نتبادلها في الماضي الغابر. فضضتُ الظرف الذي لم يكن يحمل طابعًا بريديًّا. ربّما أنابيل وضعته هنا مباشرةً بعد ظهر يوم أمس، أو على الأرجح قد أتى به ساعٍ خاصّ. قرأتُ الجملة الأولى: «ريشار، إذا استلمتَ الرسالة هذه، فذلك يعني أنّني قُتلتُ، على يد ألكسيس دوفيل».

استغرقتُ ما بدا دهرًا لقراءة الصفحات الثلاث. وما اكتشفته فيها شوّشني وبلبلني. كان اعتراف ما بعد الوفاة، أشبه برسالة حبّ على طريقتها لكنّها، تنتهي على هذا النحو: «والآن، مصير أسرتنا بين يديك أنتَ. فأنتَ الأوّل والأخير الذي يملك ما يكفي من قوّة وشجاعة لحماية ابننا وإنقاذ حياته».

18

الصبيّة والليل

في النهاية، كنّا نملك قطع لغز صوري، ولكن مهما حاولنا تركيبها، تبقَّت ثغرات [...] بحجم بلدان لا نستطيع تسميتها.

جفري أوجينيدس

1.

كانت الموبيليت قد لفظت أنفاسها. خلف مقودي، رحتُ أضغط وأضغط على الدوّاسة كالمجنون: كراقصة باليه، وقوفًا، بعدما انفصلتُ كليًّا عن مقعدي كأنّني أتسلّق جبل فانتو وعلى ظهري حمولة من خمسين كيلوغرامًا.

حيث يقع في جادّة بايكون، مباشرةً عند تخوم كاب دانتيب، أطلّ منزل فيتزجيرالد على الشارع في شكل أشبه بالمستودع أو المخزن العملاق. فعلى الرغم من اسمه، لم يسكنه الكاتب الأميركي الشهير قطّ، بيد أنّ الأساطير والنجوم غالبًا ما لا تنصفهم الحياة، سواء في كوت دازور أو في أيّ بقعة أخرى من العالم.

تركتُ الدرّاجة على الرصيف قبل خمسين مترًا من النقطة التي كنتُ أقصدها، وقفزتُ فوق الدرابزين المحاذي الشاطئ. في هذا الموقع من الكاب، تتلاشى شواطئ الرمل الذهبي لتفسح في المجال أمام خطّ ساحلي وعر ومتعرِّج يصعب سلوكه: كتل صخريّة نحتتها ريح الشمال الباردة، وجروف شديدة الانحدار تصبّ في البحر. سرتُ بصعوبة على الصخور وكدت أدقّ عنقي وأنا أتسلّق السفح المُنحدِر عموديًّا الذي يسمح بالوصول إلى فناء الفيلّا الخلفي.

تقدّمتُ بضع خطوات على المساحة الخرسانيّة المُلمَّعة حول المسبح – مستطيل طويل من الزُرقة يطلّ على البحر، ويمتدّ عبر دَرْجات منحوتة في الصخر، نزولًا إلى جسر صغير عائم. متشبّثة بالمنحدر الصخري، كانت أقدام عقار فيتزجيرالد تُلامس المياه بكلّ ما للكلمة من معنى: فيلّا ببناء معاصر، مشيّدة في العشرينيّات الصاخبة، أيّام الطيش الجميل، تتأرجح هندستها بين زخارف الفن الزخرفي وبين لمسات الفنّ المتوسِّطي. كان سقف مسطَّح يعلو الواجهة المطليّة بالأبيض ذات الأشكال الهندسيّة، تزيّنه شرفة عريضة مفتوحة، مُحتمية في فيء تعريشة. في هذا الوقت من النهار، كان الجَلَد يمتزج بالبحر ليتّحد الاثنان في زرقة ساطعة: زرقة اللانهاية.

كان رواق طويل، تتخلّله القناطر، يتضمّن صالة صيفيّة. سرتُ على امتداده إلى أن عثرتُ على نافذة زجاجيّة عريضة نصف مفتوحة سمحت لي بدخول المنزل.

إذا ما استثنينا منظرها المطلّ على المحيط الأطلسي عوضًا عن خليج هادسون، كانت القاعة الرئيسيّة تشبه إلى حدّ بعيد شقّتي في تريبيكا: مساحة عصريّة لا تحوي سوى اللازم من الأثاث وذات تفاصيل دقيقة ومدروسة. ديكور داخلي أشبه بالتصاميم التي نراها في الصور سواء في صفحات المجلّات أو المدوِّنات الإلكترونيّة.

في صالة المكتبة، وجدتُ الكتب عينها التي تفترش رفوفي، والتي تنمّ عن النمط الثقافي ذاته: كلاسيكيّة، أدبيّة، عالميّة.

وكذلك تلك النظافة المريبة التي تميّز المنازل الخالية من الأولاد. برودة كئيبة تؤمّ المساكن التي لا يغذّيها لبّ الحياة: ضحكات الأطفال، الدمى الزغبيّة وقطع الليغو في كلّ زاوية، وفتات البسكويت الملتصقة على الطاولات وما تحتها...

– يبدو أنّ اللعب بالنار بات من شيم عائلتكم.

استدرتُ في الحال لأجد نفسي على بعد من ألكسيس دوفيل. كنتُ قد لمحتها البارحة أثناء احتفال ذكرى الخمسين في سانت-إكز. كانت ترتدي ثيابًا جدّ عاديّة – جينز، قميصًا مقلّمًا، كنزة بياقة مفتوحة على شكل V، حذاء كونفرس – لكنّها تنتمي إلى تلك الطبقة التي تتمتّع بالأناقة والتميّز مهما كانت الظروف. طلّة تزيد أبّهتها ثلاثة كلاب شرسة تتبعها كظلّها: دوبرمان مقطوع الأذنين، تيرييه أميركي أصهب وروتوايلر مفلطَح الرأس.

حالما رأيتُ الكلاب، انقبض جسدي بأكمله. رحتُ أتأسّف متندِّمًا على مجيئي من دون وسيلة للدفاع عن نفسي. فقد غادرتُ بيت والـديّ من دون تفكير، مدفوعًا بالغضب والغيظ. ولطالما اعتبرتُ دماغي سلاحي الأوحد. وذلك درس تلقّنته بفضل أستاذي، جان-كريستوف غراف، ولكن إذ أعـدت التفكير الآن في ما فعَلته ألكسيس دوفيل بوالدتي وبفرنسيس وبماكسيم، أدركت أنّني أخطأتُ في تهوُّري هذا.

الآن وقد بلغتُ آخر الخيط ومعه الحقيقة، أشعر بأنّني عاجز، أعزل. الواقع أنّني لم أعد أنتظر أيّ اعتراف من فم ألكسيس دوفيل. أولـم أفهم كـلّ شـيء؟ هـذا إن كنّا نفهم حقًّا أيّ شيء في الحبّ والغرام... ومع ذلك، كنتُ أتصوَّر جيّدًا ذلك الانبهار المتبادل الذي

ألمّ آنذاك بتينك المرأتين الفطنتين الحسناوين والحرّتين. حماسة ذاك التواطؤ الفكري الحميم وإثارته، سكرة الجسد، ودوار انتهاك القواعد. ولئن كان الأمر يزعجني، فألكسيس دوفيل وأنا نفسي، ما كنّا مختلفَين في النهاية. فقد أحببنا الصبيّة عينها منذ خمس وعشرين سنة، ولم ننجح في تخطّي ذلك قَطّ.

ممشوقة القوام، ناعمة البشرة – بشرة تمنع ناظرها من تحديد سنّها إذ لا شائبة فيها، كانت دوفيل قد عقصت شعرها إلى الوراء. بدت واثقة، سيّدة الموقف. وفيما لم تنفكّ كلابها تراقبني وتترصّدني، اكتفت هي بأن أدارت ظهرها باستخفاف وازدراء، لتتأمّل الصور الفوتوغرافيّة المعلَّقة على الجدران عشوائيًا. صور فينكا المثيرة التي حدّثني دالانيغرا عنها. مع عارضة لاهبة مثلها أمام عدسته، قد بذل المصوِّر أفضل ما أوتي من موهبة. فقد نجح في التقاط جمال المرأة اليافعة، ذلك الجمال الغامض والمُسكِر. نجح في تجسيد ذلك الجانب العابر، بل والخاطف ليفاعتها النضرة. ما تعيشه الورود...

.2

قرّرتُ تسديد ضربتي.

– تتوهّمين أنّكِ ما زلت واقعة في حبّ فينكا، وهذا غير صحيح. لا نقتُل مَن نُحبّ.

ابتعدَت مكرهةً من الصور وتأمّلاتها لتحدجني بنظرة جامدة كالصقيع، ملؤها الاحتقار.

– قد أجيبُ بسهولة أنّ قتل أحد إنّما هو أعظم فعل حبّ، في بعض الأحيان. لكنّ المشكلة لا تكمن في هذا. لستُ أنا مَن قتلت فينكا، بل أنتَ.

– أنا؟

– أنتَ، ووالدتك، وفاني، وفرنسيس بيانكارديني وابنه... كلّكم مسؤولون ولو بدرجات مختلفة. كلّكم مذنبون.

– أخبرَكِ أحمد، أليس كذلك؟

تقدّمَت نحوي، تواكبها وحوشها الثلاثة. فكّرتُ في هيكات، إلهة الظلمات في الميثولوجيا الإغريقيّة، إلهة تظهر على الدوام متوسِّطة جوقة من الكلاب الزائرة في وجه القمر. هيكات التي تسود سيّدة مطلقة على الكوابيس، والرغبات المكبوتة، ومَجاهل الفكر، حيث يكون الرجال والنساء في ذروة الدنس والوهن.

– على الرغم من الشهادات القاطعة، لطالما عرفت أنّه من المستحيل أن تهرب فينكا مع ذلك الرجل، قالت ألكسيس بنبرة محمومة. تقصّيتُ الحقيقة سنين طويلة. ويا لسوء الحظّ وقساوته، ففي اللحظة التي تخلّيتُ عن مطاردتها، قُدِّمت إليّ على طبق من فضّة.

راحت الكلاب تتململ مزمجرة في وجهي. بدأ الهلع ينال منّي وقد شلّني منظر الحيوانات. حاولتُ جاهدًا ألّا أحملق فيها بيد أنّها كانت تشتَمّ ارتباكي وخوفي، لا محالة.

– حدث ذلك منذ أكثر من سبعة أشهر، تابعت ألكسيس موضحة. وتحديدًا في قسم الفاكهة والخضار، في السوبرماركت. تعرَّف أحمد إليّ فيما كنتُ أتسوَّق. وطلب أن يكلّمني. ليلة وفاة فينكا، أرسله فرنسيس ليأتي ببعض أغراضها وينظّف غرفتها وذلك لمحو أيّ أثر قد يوجّه الشبهات نحوكم. وهو يفتّش في جيوب معطفها، وقع مصادفة على رسالة أخرى وصورة. كان الوحيد الذي أدركَ منذ البداية أنّ المدعوّ ألكسيس هو أنا. وهذا سرّ كتمه ذلك المغفَّل طوال خمس وعشرين سنة.

لمستُ غضبها وحنقها خلف هدوئها الظاهر.

– كان أحمد في حاجة إلى المال ليعود إلى دياره، وأنا إلى تلك المعلومات. أعطيته خمسة آلاف يورو فاعترف لي بكلّ شيء: الجثّتين المدفونتين في جدار الجمنازيوم، فظاعة تلك الليلة من ديسمبر 1992 التي لطّخت سانت-إكزوبيري بالدماء، وحصانة فريقكم.

– لن تتحوّل القصّة حقيقة إن ردّدناها مرارًا وتكرارًا. ثمّة مسؤول واحد عن موت فينكا وهو أنتِ. فمُرتكِب الجريمة ليس بالضرورة الذي أو التي أمسكت سلاح الجريمة وهذا ما تعرفينه تمامًا.

انقبضت ملامح ألكسيس دوفيل من شدّة الغيظ، كأنّها تستجيب لأمر أملته إلهتها باطنيًّا، دنت الكلاب الثلاثة وحاصرتني. تجمّد أسفل ظهري بفعل سيل مفاجئ من العرق البارد. خرج هلعي عن السيطرة. لطالما منعتُ الرُهاب من التعشُّش في نفسي، فعقلتُ وتعقّلتُ بأنّ مخاوفي إنّما هي غير منطقيّة، بل ومبالغ بها. إلّا إنّني في هذه الحالة تحديدًا، في مواجهة كلاب شرسة ومتمرِّسة في الهجوم. على الرغم من هلعي، واصلتُ حديثي:

– أذكركِ تمامًا في تلك الفترة. أذكر هالتك وجاذبيّتك. كان التلاميذ جميعهم معجبين بك. وأنا أوّلهم. أستاذة شابّة في الثلاثين من العمر، لامعة وجميلة، تحترم التلاميذ وتُجيد تحفيزهم للارتقاء إلى أعلى. في الصفوف التمهيديّة الأدبيّة، كانت الفتيات كلّهنّ يتشبّهنَ بك. كنتِ رمزًا للحريّة والاستقلاليّة. وبالنسبة إليّ، كنتِ تجسِّدين انتصار الذكاء والفكر على رداءة العالم وحماقته. كنتِ نسخة نسائيّة عن جان-كريستوف غراف و...

عند ذكر أستاذي السابق، أفلتت منها قهقهة رديئة.

– آه! غراف المسكين! كان مغفّلًا هو الآخر لكن من غير نوع: مغفّلًا مثقّفًا. فهو لم يحزر ولم يكشِف شيئًا، بل وسنوات طويلة ثابر على مغازلتي. كتب إليّ القصائد والرسائل المفعمة بالحبّ.

كان يعتبرني المثل الأعلى ويبجّلني كما كنتَ أنتَ تفعَل مع فينكا. هذا من شيم الرجال أمثالكم. تدّعون أنّكم تحبّون النساء، لكنّكم لا تفقهون شيئًا ولا تحاولون حتّى أن تعرفونا من كثب. لا تسمعوننا، بل وترفضون الإصغاء إلينا. بالنسبة إليكم، نحن مجرّد دعامة لنزواتكم الخياليّة والرومانسيّة!

ولتوكيد أقوالها، ذكرت ستندال وعمليّة تبلور الحبّ كما وَصَفها: «لحظة تبدأون الاهتمام بامرأة، لا تعودون ترونها على ما هي حقًّا، لكن كما يروق لكم ويناسبُكم أن تكون».

بيد أنّني ما كنتُ لأدعها تفلت بهذه السهولة هي وتحليلاتها الفكريّة الألمعيّة. فقد دمّرت فينكا لحظة أحبّتها، وكنتُ أريدها أن تقرّ بذلك.

– على عكس ما تقولين، كنتُ على معرفة وثيقة بفينكا. أقلّه، قبل أن تلتقيكِ. ولستُ أذكرها فتاةً تعاقر الخمر وتبتلع الأدوية. أردتِ تأكيد سطوتك الفكريّة عليها، وقد نجحتِ. كانت طريدة سهلة جدًّا بالنسبة إليك: شابّة مفعمة بفرح الحياة تتفتّح على الجنس.

– تقول أنّني أفسدتُ أخلاقها، أليس كذلك؟

– لا، بل أظنّكِ جعلتِها فريسة المخدِّرات والكحول، لأنّ ذلك كان يشوِّش حسّ إدراكها فتصبح طيّعة بين يديك.

بارزة الأنياب، راحت الكلاب تحتكّ بي وتشتَمّ يديّ. التصق فكّ الدوبرمان بأعلى فخذي، فأرغمني على التراجع حتّى لامستُ ظهر إحدى الأرائك.

– رميتُها في أحضان والدكَ لأنّها كانت الطريقة الوحيدة لنحظى بطفل.

– الواقع أنّ ذلك الطفل، أنتِ مَن أراده، ولا أحد غيرك!

– لا، بل أرادته فينكا أيضًا!

– في هذه الظروف؟ أشكّ في الأمر.

ثارت ثائرة ألكسيس دوفيل:

– لا يمكنك أن تحكم علينا. فاليوم، تقبَّل المجتمع ميل أمثالنا من النساء إلى تربية الأطفال، وافق عليه، بل ويحترمه في الأغلب. لقد تغيّرت الذهنيّات، وتطوّرت القوانين كما تقدّمت العلوم. لكنّه في أوائل التسعينيّات، كان ينكر الأمر بأكمله وينبذه.

– كنتِ تملكين ما يكفيك من المال. إذًا، كان في إمكانك إيجاد حلّ آخر.

صاحت مستنكرة:

– ما كنتُ أملك شيئًا في الواقع! فالتقدُّميّون الأصيلون ليسوا ما تظنّون مطلقًا. وأمّا تسامُح آل دوفيل في كاليفورنيا فمجرَّد مظاهر خدّاعة. أعضاء أسرتي من المُرائين، جميعهم من دون استثناء جبناء وعديمو الرأفة. كانوا يستهجنون طريقة عيشي وميولي العاطفيّة. وآنذاك، كانوا قد قطعوا عنّي المدخول منذ أعوام عدّة. مع التصويب نحو والدكَ، كنّا «نصطاد عصفورين بحجر واحد»: الطفل والمال.

راح حديثنا يدور في حلقة مفرغة، وكلٌّ منّا متشبّث بموقفه. ربّما لأنّ البحث عن أيّ لوم أو مسؤوليّة، أمر مفروغ منه.

أم ربّما لأنّ كِلينا مذنب وبريء، ضحيّة وجلّاد. أو على الأرجح لأنّ الحقيقة الوحيدة هي أن نعترف بأنّه في العام 1992، في ليسّيه سانت-إكزوبيري التابِع لصوفيا-أنتيبوليس، قد عاشت ذات يوم، فتاة مذهلة، فتاة تَلعَن بالجنون الأبدي كلّ مَن تسمح له بدخول حياتها. ولأنّكم متى كنتم في حضرتها، دهمكم ذاك الوهم الجنوني بأنّ وجودها في هذه الحياة إنّما هو بحدّ ذاته جواب عن السؤال الذي يقضّ مضجعنا جميعًا: كيف نجتاز الليل؟

.3

كان الجوّ مشحونًا، بل وعلى أهبة التفجُّر. وكانت الكلاب الثلاثة قد حاصرتني دافعةً بي إلى الجدار، بحيث لم تعُد تشكّ في غَلَبَتِها. شعرتُ بالخطر، وشيكًا، وشعرتُ بنبضات قلبي الجفلة، فيما التصق قميصي بجلدي لفرط تعرُّقي، واستشعرتُ المسيرة المحتمَّة نحو الموت. بحركة واحدة، بكلمة واحدة، قد تُنهي دوفيل حياتي. الآن وقد بلغتُ خواتيم تحقيقي، أدركتُ أنّ خياراتي تختصر بواحد فقط: أن أقتُل أو أُقتَل. واصلتُ على الرغم من الخوف:

– كان في وسعكِ تدبّر الأمر لتبنّي طفل أو لإنجاب واحد بنفسك.

مسكونة بعصبيّة مجنونة ومدمِّرة، راحت تدنو منّي أكثر فأكثر، وما لبثَت أن صوَّبت سبّابتها المُهدِّدة على بُعد سنتيمترات قليلة من وجهي:

– لا! كنتُ أريد طفلًا من فينكا. طفلًا يرث جيناتها، كمالها، أناقتها وجمالها. ويكون امتدادًا لحبّنا.

– أنا على علم بوصفات الروهيبنول التي كنتِ تزوّدينها بها من طريق الدكتور روبينز. كم غريب ذاك الحبّ الذي لا يتفتَّح ولا ينمو ما لم يبقِ الآخر في إدمان مستمرّ، ألا توافقينني الرأي؟

– أيّها القذر الـ...

خانتها الكلمات. حتّى أنّها باتت عاجزة عن احتواء عدائيّة الكلاب. انقبَض صدري، وشعرتُ بطعنة في قلبي فيما انتابني دوار شديد. حاولتُ تجاهله وسدّدتُ الضربة القاضية:

– هل تعرفين ما كانت جملة فينكا الأخيرة قبل أن تلفظ أنفاسها؟ قالت لي: «ألكسيس مَن أرغمني على ذلك». لم أشأ أن أنام معه! طوال خمس وعشرين سنة، أسأتُ فهم تلك الجملة وهذا ما كلّفنا

حياة رجل بريء. لكنّني أدركتُ اليوم ما كانت تعنيه: «ألكسيس دوفيل مَن أرغمني على النوم مع والدكَ، وأنا لم أكن أريد ذلك».

ضاقت أنفاسي. وراح جسمي يرتجف. شعرتُ بأنّ المخرج الوحيد من الكابوس المُرعب هذا هو بأن أنشطر اثنين.

– أترين الآن، فينكا ماتت وهي تُدرك تمامًا أيّ حثالة أنتِ. مهما صنعتِ، ومهما بنيتِ، ولو أنشأتِ ألف حديقة ملائكة، لن تتمكّني من إعادة كتابة القصّة.

أعماها الغضب، فأطلقت ألكسيس دوفيل إشارة الهجوم.

كان التيريه الأميركي الذي انقضّ عليّ أوّلًا. قذفتني قوّته الناسفة بعنف إلى الخلف. وفيما تهاويتُ على الأرض، ارتطم رأسي بالجدار، ومن ثمّ بزاوية الكرسي الحديد الحادّة. شعرتُ بالأنياب تنغرز في عنقي، بحثًا عن شرياني السباتي. حاولت ردع الوحش، من دون جدوى.

ثـمّ... ثلاث طلقات ناريّة. الأولى أطاحت الكلب الذي كان يمزّق عنقي وأجفلت شبيهيه اللذين لاذا بالفرار. أمّا الثانية فقد أُطلقت فيما كنت لا أزال طريح الأرض. وما كدتُ أستعيد أنفاسي حتّى رأيتُ جسد ألكسيس دوفيل متكوّمًا قرب المدفأة حيث سقط مضرّجًا بدمائه بعدما راقص الموت. التفتُّ صوب النافذة العريضة، فأطلّ عليّ ظلّ ريشار المتشامخ.

– لا بأس يا توماس، طمأنني بنبرة دافئة.

النبرة عينها التي كانت وأنا في السادسة من عمري حينَ كان ينتابني كابوس في الليل. لم ترتجف يده حتّى. كانت مطبقة بإحكام على قبضة السميث أند ويسون الخشبيّة، مسدَّس فرنسيس بيانكارديني.

ساعدني أبي في النهوض وهو يتلفّت حوله حذرًا في حال عاد الوحش النابح لينقضّ علينا. حينَ وضع يده على كتفي، عدتُ بضع لحظات، طفل الستّة أعوام. رحتُ أفكّر في ذاك الجنس المهدَّد بالانقراض، والذي يشمل الرجال من أبناء جيله وجيل فرنسيس: رجالًا أشدّاء، منحوتين في الصخر، أصحاب سيماء حادّة، وسلّم قِيَم من زمن آخر. هم رجال يبصق مجتمع اليوم في وجوههم، إذ يعتبر رجولتهم متخلِّفة، بل ومُعيبة. لكنّهم رجال سررتُ بمصادفتهم مرّتين في دربي. رجال لم يتردّدوا في تلطيخ أيديهم، لإنقاذ حياتي.

بل وغمسها عميقًا في حمّام من الدماء.

خاتمة

ما بعد الليل

اللعنة التي تُلاحِق الطيّبين

كانت الأيام التي تلت مقتل ألكسيس دوفيل واحتجاز أبي الأغرب في حياتي. كنتُ أصحو كلّ صباح وأنا على قناعة بأنّ تحقيقات الشرطة ستفضي إلى إعادة فتح ملفّ القضيّة المتعلّقة باختفاء فينكا وكليمان. لكنّ أبي، من خلف قضبانه، بَرَعَ في استئصال الخطر. فقد زعم أنّه كان على علاقة غراميّة بألكسيس دوفيل خلال الأشهر الأخيرة القليلة، وإذا بزوجته، كما شرح، تكتشف خيانته فتزور بيت عشيقته، متأبّطةً بندقيّة. أمّا ألكسيس وحالما استشفّت الخطر، دافعت عن نفسها وقرّرت تصفية أمّي، قبل أن تَقضي هي بدورها، على يد أبي. بدا السيناريو متماسكًا حتّى الآن، بعدما أبرز دوافع واضحة ومعقولة بالنسبة إلى المعنيّين كلّهم. أمّا حسنته الأولى فهي أنّه حَصَر الجرائم تلك كلّها في دائرة «جرائم الشغف». ومع دنوّ موعد المحاكمة، راح محامي أبي يتلذّذ سلفًا بطعم الانتصار؛ الواقع أنّ الطابع العنيف والفظيع لجريمة القتل التي نفّذتها ألكسيس دوفيل بحقّ أمّي – ناهيك بسوابق القاتلة النفسيّة ومُجريات الاعتداء الذي نفّذه كلابها في حقّي – حوَّل فِعلة أبي إلى انتقام مشروع، فيما فتحَ الباب واسعًا ليس أمام تبرئته، بل لفرض عقوبة مخفّفة إلى أقصى درجة، خصوصًا، كانت

لفرضيّة الجريمة العاطفيّة تلك الميزة بأن حالَت دون ربط الحادثة بفينكا أو كليمان.

ومع ذلك، كان تسلسل الأحداث أجمل من أن يُصدّق.

***

لكنّني اقتنعتُ بضعة أسابيع ليس إلّا بأنّ الحظّ السعيد سيلازمنا. خرج ماكسيم من غيبوبته، وراحت صحّته تتحسَّن بسرعة مذهلة. وفي يونيو، انتُخِب نائبًا، فيما ذكرت بعض الصحف اسمه كمرشَّح إلى منصب وزير دولة. وبفضل التحقيق الحثيث حول عمليّة الاعتداء التي طاولت شخصه، تحوّلت ساحة الجريمة، أي الموقع المُحيط بالجمنازيوم، منطقةً أشبه بقُدس أقداس. عليه، لم تُباشَر عمليّة الهدم في التاريخ المُحدَّد. وحينَ قرّر «مجلس» جمعيّة هاتشينسون ودوفيل، وذلك نظرًا إلى الظروف المستجدّة، العزوف عن تبرّعه لسانت-إكزوبيري، أرجئت ورشة الأعمال إلى أجل غير مسمًّى، وراحت إدارة الليسّيه تُطلق خطابات تنقض كلّ ما اعتادت تلاوته على جمهورها. متسلّحين بذرائع بيئيّة وثقافيّة، أخذ ممثّلو الليسّيه يسلّطون الضوء على أخطار وموانع شتّى، فبالنسبة إليهم، تعديل موقع طبيعي كهذا قد يعرّضه لخسارة جزء مهمّ من طابعه الفريد، والذي لطالما ثمّنه أعضاء الهيئتين التعليمية والتربوية قاطبةً. انتهَى البيان؛ وهذا ما وجب إثباته.

***

عادت فاني تتواصل معي عندما أُعِلن توقيف أبي. وقد أمضينا أمسية كاملة في غرفة ماكسيم في المستشفى، مع أنّه كان لا يزال فاقد الوعي، نتجاذب أطراف الحقيقة حول ليلة العام 1992. فأن

تكتشف أنّها بريئة من وفاة فينكا قد سمح لها باستعادة زمام حياتها. وبعد مضي وقت وجيز، أنهت علاقتها بتييري سينيكا، وما لبثت أن اتّصلت بعيادة إخصاب في برشلونة، حيث خضعت لتلقيح بالأنبوب. عدنا نحن الاثنين نجتمع مرارًا في المستشفى حول ماكسيم، مُذ تحسَّنت حاله.مكتبة

وخلال بضعة أيّام، صدّقتُ... صدّقتُ أنّنا نحن الثلاثة سنفلت من المصير المأسوي الذي يُحدق بنا، ذلك القدر المحتوم الذي تقودنا إليه لا محالة جثّتان مدفونتان في الجدار. وخلال بضعة أيّام ليس إلّا، سلَّمتُ حقًّا بأنّنا انتصرنا على «لعنة سوء طالِع الأشخاص الطيّبين».

لكنّني لم أتوقّع قطّ أن تأتينا الخيانة على يد الشخص الذي أوليته ثقتي عن خطإ، وأيُّ خطإ! ستيفان بيانيلي.

***

– أعرف أنّ الأمر لن يسرّك، لكنّني سأصدر كتابًا يروي الحقيقة كاملة حول وفاة فينكا روكويل، زفّ لي الصحافي بهدوء ذات مساء من أواخر شهر يونيو، فيما كنّا جالسَين إلى منضدة تقديم المشروبات، في إحدى حانات أنتيب العتيقة، حيث كان قد دعاني إلى شرب كأس.

– أيّ حقيقة؟

– الواحدة والوحيدة، أجاب بيانيلي برباطة جأش. يحقّ للمواطنين الأعزّاء بأن يعرفوا ما حلّ بفينكا روكويل وألكسيس كليمان. يحقّ لأهل تلاميذ سانت-إكز بأن يعرفوا أنّهم يسجّلون أولادهم في معهد تؤوي جدرانه جثّتين منذ خمس وعشرين سنة.

– ولكن، إن فعلتَ يا ستيفان، أرسَلتَنا جميعًا إلى السجن: فاني وماكسيم وأنا.

– لا بـدّ للحقيقة أن تظهر للعيان، عاجَلَني وهـو يقرع على المنضدة براحة يده.

ثمّ انطلق في خطبة مسهبة، ومن ثمّ مُموِّهًا ومُراوغًا قبل توجيه ضربته النهائيّة، كلّمني عن أمينة صندوق خسرت وظيفتها نتيجة خطإٍ بسيط في فكّة اليورو، وعن التسامُح غير المبرَّر الـذي يبديه القضاء في رأيه وعن غير حقّ تجاه رجال السياسة أو أرباب الأعمال. ومنها قفز إلى خطابه الأبـدي السرمدي – الخطاب عينه الـذي ما انفكّ يجترّه مُذ تخرّجنا في الليسّيه – حول صراع الطبقات والنظام الرأسمالي، أداة استعباد في خدمة أصحاب الأسهم.

– لكن يا ستيفان، ما علاقة هذا كلّه بنا؟

تحدّتني نظرته بمزيج من الجديّة والبهجة، كأنّه يتطلّع منذ اليوم الأوّل إلى هذه المواجهة، مواجهة غير متكافئة القوى. وشعرتُ أوّل مرّة على الأرجح، بذاك الحقد المتجذِّر الذي يكنّه بيانيلي لأمثالنا وكلّ ما نجسِّده.

– لقد قتلتُم شخصين. ويجب أن تدفعوا الثمن.

أخذتُ جرعة من جعتي، محاولًا التظاهر باللامبالاة.

– لا أصدِّقك. لن تكتب الكتاب أبدًا.

عـنـدذاك، أخـرج من جيبه ظـرفًا سميكًا وناولني إيّـاه. عقد وقّعه مع دار نشر باريسيّة لإصدار كتاب بالعنوان: «قضيّة عجيبة – الحقيقة كاملة عن فينكا روكويل».

– لا تملك أدنى دليل على ما تقول، عزيزي المسكين! سوف تودي بصدقيّتك كصحافي عندما تنشُر هذا الكتاب.

– الأدلّـة موجودة في الجمنازيوم، قـال مقهقهًا. ومتى صدر الكتاب، يمكنك الاتّكال عليّ لتحريض أهالي التلاميذ. وسيكون الضغط هائلًا إلى درجة أنّ الإدارة لن تجد أمامها سوى هدم ذلك الجدار.

– لقد أسقِطَت جريمتا قتل فينكا وألكسيس وكليمان بفعل التقادُم.

– ربّما، مع أنّ الأمر قابل للنقاش قانونًا، بيد أنّ جريمة قتل والدتك وألكسيس دوفيل لم تُسقَط بعد. وستضع العدالة اليد عليها، وتجد الرابط بين هذه الجرائم كلّها.

كنتُ على معرفة بالناشِر. لم تكن داره شهيرة ولا متشدِّدة، لكنّها تملك من الإمكانات ما يضمن للكتاب حملة دعائيّة ضخمة. إن أصدر بيانيلي كتابه هذا حقًّا، فسوف يُطيح كلّ شيء.

– لستُ أفهم لماذا تطعننا في الظهر يا ستيفان. لتنعم بلحظات من الشهرة، أليس كذلك؟ هذا ليس من شيمك عادةً.

– أمارس مهنتي وحسب.

– وممارسة مهنتك تقضي بطعن أصدقائك؟

– كفى، مهنتي تقضي بأن أكون صحافيًّا، ونحن لم نكن أصدقاء يومًا.

تذكّرتُ حكاية العقرب والضفدع. «لماذا لسعتني؟»، سأل الضفدع العقرب حين اجتازا نصف النهر. «بسببكَ، سنموت نحن الاثنين معًا». «لأنّ هذا طبعي والطبع يغلب التطبُّع»، أجابه العقرب.

طلب الصحافي كأسًا أخرى من الجعة المضغوطة، وسدّد الضربة القاضية.

– قصّة مذهلة جدًّا! آل بورجيا لكن بنسخة عصريّة! أتُراهِن على أنّها تصلُح أن تكون مسلسلًا على نيتفليكس؟

رمقتُ ذاك الأجير الدؤوب يستمتعُ بخراب عائلتي، فرغبتُ في قتله على الفور.

– أفهم الآن لماذا هجرتك سيلين، قلتُ له. هذا لأنّك حقير مسكين، حثالة قذرة...

حاول بيانيلي رشقي بكأس جعته، لكنّني كنتُ أسرع منه. تراجعتُ خطوة وسدّدتُ لكمة مباشرة إلى وجهه، وأتبعتها بضربة شديدة على كبده، أوقعته أرضًا على ركبتيه.

عندما غادرتُ الحانة ليلًا، كان خصمي ممدّدًا على الأرض، لكنّني كنتُ أنا الخاسر الأكبر. وهذه المرّة، لم يعُد هناك مَن يحميني.

جان-كريستوف

أنتيب، في 18 سبتمبر 2002

عزيزي توماس، بعد أشهر من الصمت، أكتب لك لأقول: وداعًا. بالفعل، حالما تعبر سطوري هذه المحيط الأطلسي، أكون قد غادرتُ هذا العالم الفاني.

لكن، قبل أن أرحل عن الوجود، أردتُ إلقاء التحيّة عليك آخر مرّة. وأردتُ أن أؤكّد لك مجدّدًا كم أسعدني أن أكون أستاذك وكم تغمرني الفرحة حينَ أتذكّر حواراتنا واللحظات كلّها التي عشناها معًا! كنتَ يا توماس، التلميذ الأفضل الذي صادفته في مسيرتي المهنيّة. ربّما ليس الألمع أو الذي يُراكِم العلامات الأفضل، لكنّك كنت بلا ريب الأكرم، والأرهف، والأكثر إنسانيّة وإصغاءً إلى الآخرين.

أرجوك لا تحزَن! أنا راحل لأنّني ما عدت أقوى على الاستمرار. كُن واثقًا في أنّني لستُ راحلًا لجبن أو قلّة جرأة، بل أرحل لأنّ الحياة أرسلت إليّ محنة أخرى، لا أقوى على احتمالها. أرحل لأنّ الموت فرض نفسه كالمخرج المشرِّف الوحيد من الجحيم الذي هبطتُ

إليه. حتّى الكتب، رفيقة دربي، باتت أعجز اليوم من أن تمنعني من الغرق.

صحيح أنّ مأساتي تافهة إلى أقصى حدّ، لكنّ تفاهتها هذه لا تقلّل من العذاب والألم. فطوال سنين، أحببتُ امرأة خفية من دون أن أجرؤ على البوح بمشاعري خشيةً أن ترذلني. زمنًا طويلًا، كنتُ أحيا وأتنفّس فحسب حين أراها تحيا وتبتسم وتتكلّم. كانت شراكتنا في نظري لا بل تواطؤنا الفكري لا يُضاهى، وأن أشعر أحيانًا قليلة بأنّها تبادلني مشاعري، هو ما أبقاني في قيد الحياة، حتّى في لحظاتي الأسوإ.

أقرّ بأنّني بين حين وآخر، أعدتُ التفكير في نظريّتك تلك حول اللعنة التي تُلاحِق الشخاص اللطفاء والطيّبين، متمنّيًا في سرّي وبكلّ سذاجة وحماقة أن تكون كاذبة، بيد أنّ الحياة لم تثبت لي العكس.

للأسف أدركتُ خلال الأسابيع القليلة الماضية أنّ حبّي هذا سيبقى من طرف واحد، وأنّ تلك المرأة ليست على الإطلاق الشخص الذي أظنّه! لن أكون أبدًا في عداد الذين ينجحون في تطويع قدرهم.

اعتنِ بنفسك جيّدًا يا عزيزي توماس، خصوصًا، لا تحزن بسببي أرجوك! لن أعود حاضرًا لنصحك وإرشادك، لكن فلتُحسِن اختيار معاركك. فكلّها لا تستحقّ عناء خوضها. فلتُحسِن يا توماس التشبّث بالآخرين بين الفينة والأخرى، ولتنجح حيث أنا فشلت. أغرِق واستغرِق في حياتك، فالعزلة قاتلة.

وأودّ أن أتمنّى لك التوفيق في الأيّام المقبلة. لستُ أشكّ ثانية واحدة في أنّك ستنجح، حيث فشلت أنا: البحث عن توأم روح، شريكة عُمر أواجه معها عواصف الحياة. فكما ذكر أحد كتّابنا المفضّلين، «ليس ثمّة أسوأ من أن تكون وحدك وحيدًا بين البشر».

حافظ على شروطك وأبقِ على تطلّبك. حافظ على ما جعلك فتى غير الفتيان كلّهم. واحمِ نفسكَ من المغفّلين. وأسوةً بأهل العزيمة والصبر الجميل، لا تنسَ أنّ خير وسيلة للاحتماء من المغفَّلين هي: ألّا تُشبههم.

وحتّى ولو كان مصيري يؤكِّد العكس، فأنا ما زلتُ مقتنعًا بأنّ قوّتنا العظمى تكمن في ضعفنا.

قبلاتي.

جان-كريستوف غراف

قسم الولادات

عيادة جان-دارك، أنتيب
في 9 أكتوبر 1974

دفع فرنسيس بيانكارديني باب الغرفة برفق. كانت أشعّة شمس الخريف الدافئة الضاربة إلى البرتقالي المتوهِّج، تتدفّق من الأبواب-النوافذ المطلّة على الشرفة. مع دنوّ أولى ساعات المساء، كان الصمت التامّ يسود قسم الولادات، فلا يخرقه بين الفينة والأخرى إلّا صدى حركة التلاميذ الذين يغادرون المدارس.

دخل فرنسيس الغرفة، محمَّلًا بالهدايا: دبّ-دمية زغبي لابنه توماس، سوار لأنابيل، علبَتي بسكويت وحقّ من كرز الأمارينا للممرِّضات اللواتي اعتنين بهما خير عناية. بهدوء، وضع هداياه على الطاولة المتحرِّكة وهو يحاول ألّا يُحدث ضجيجًا، حرصًا على عدم إيقاظ أنابيل.

حين انحنى فوق المهد، حدجه الرضيع بنظرته الأولى.

– كيف حالك أنت؟

أخذ الصغير بين ذراعيه قبل أن يجلس على كرسي، لينعم بتلك اللحظات التي تلي ولادة الطفل، لحظات ساحرة ومهيبة في آن واحد.

كان يشعر بفرح عميق، عارم، يشوبه ندم وعجز. فحينَ تغادر أنابيل العيادة، لن تعود معه إلى البيت، بل ستعود إلى ريشار، زوجها الذي سيكون هو الأب الشرعي لتوماس. وضع مُزعج لا بل شديد الإزعاج ولكنّه مرغم على التعايش معه. فأنابيل هي حبّ حياته، لكنّها في الوقت عينه شخص خارج عن المألوف. امرأة عاشقة بامتياز، تأخذ الالتزام على محملٍ شخصي جدًّا وتضع الحبّ فوق كلّ اعتبار.

وقد نجحَت في النهاية، إذ أقنعَت فرنسيس بعدم كشف علاقتهما. «فسريّة حبّنا في نهاية المطاف، هي ما يجعله قيّمًا»، كانت تؤكّد له باستمرار. «أن نُعلن حبّنا جهارًا للعالم إنّما يُفقده غموضه وسحره، ويجعله عاديًّا تافهًا». أمّا هو فكان يرى في الأمر ميزة أخرى: إخفاء أثمن ما يملكه في الحياة عن أنظار أعدائه المُحتملين. فلا حاجة لنا أن نكشف للعالم ما يهمّنا ويعنينا، وإلّا بتنا أضعف الضعفاء. عرضة لأيّ محنة.

***

تنهّد فرنسيس. فالشخصيّة العنيدة في تحفّظها، والتي ما انفكّ يتلهّى بتأدية دورها، مجرّد مهزلة في الواقع. ما خلا أنابيل، لا أحد يعرفه حقًّا، بل ولا أحد يُدرك كَمّ العنف وغريزة الموت الذي يسكنه. فقد هاج غضبه الوحشي أوّل مرّة في مونتالديسيو العام 1961، حين كان في الخامسة عشرة، وذلك في أمسية من أمسيات الصيف، على مقربة من ينبوع الساحة. بالفعل، ثمل شبّان القرية، وقد دنا أحدهم من أنابيل، كثيرًا. رَدَعَتهُ الفتاة مرارًا، لكنّ الرجل استمرّ يتحرّش بها. أمّا فرنسيس فكان التزم الحياد حتّى إشعار آخر. فالشبّان هؤلاء يكبرونه سنًّا: زمرة من الرسّامين والزجّاجين، أتوا من تورينو بغية تشييد وترميم بعض الدفيئات في أحد منازل القرية. لكن وبعدما أدرك أنّ أحدًا لن

يتدخّل، اقتربَ من المجموعة طالبًا من الرجل أن يرحل على الفور. آنذاك، لم يكن طويل القامة وكان يبدو ضخمًا وثقيلًا بعض الشيء. راحوا يستهزئون به، فما كان منه إلّا أن أطبقَ على خناق المُتحرِّش، مسدِّدًا لكمة خاطفة إلى وجهه. على الرغم من مظهره، كان يتمتّع بقوّة الثيران، وكان مسكونًا بعنف غاضب. وإذ بدأ، استمرّ في ضرب العامل الشابّ من دون أن يقوى أحد على تحرير الأخير من قبضته. في الواقع، كان فرنسيس يعاني منذ نعومة أظافره صعوبات في اللفظ، صعوبات طالما أثنَته عن التحدّث إلى أنابيل. فما انفكّت كلماته تعلق في حلقه. إذًا، في تلك الأمسية، تكلّم... بقبضتيه: وهو يَسحق رأس ذلك الرجل المسكين، كان يُلمِّح لأنابيل بما معناه: «معي أنا، لن يؤذيك أحد».

مكتبة t.me/ktabrwaya

حينَ فرغ من تهشيمه، تركه فاقد الوعي، مُدمَّم الوجه، وباصقًا أسنانه.

آنذاك، أثارت الحادثة بلبلة شديدة في المنطقة. ففي الأيّام التي تلت، حاول رجال الشرطة أن يستجوبوا فرنسيس، لكنّه كان غادر إيطاليا إلى فرنسا.

حينَ التقى أنابيل مجدّدًا بعد أعوام عدّة، شَكَرَته ممتنّة إذ دافع عنها، لكنّها اعترفت له أيضًا بأنّه يخيفها حقًّا. مع ذلك، تقارب الاثنان، وبفضلها هي، استطاع هو أن يُدجِّن طبعه العنيف.

فيما راح فرنسيس يهدهد ابنه، لاحظ أنّ الصغير قد استغرق في النوم. عندذاك، تجرّأ وطبع قبلة على جبين توماس. غمرته رائحة الرضيع الناعمة والمُسكرة، فذكّرته بأريج الخبز بالحليب وزهر الليمون. بين ذراعيه، بدا توماس صغيرًا منمنمًا. وكان سكون وجهه الجميل يَعِد بألف وعد للمستقبل. لكنّ جوهرته الصغيرة هذه بدت هشّة للغاية.

فجأةً، أدرك فرنسيس أنّه يبكي. ليس لأنّه حزين، بل لأنّ هشاشة الصغير أرعبته. مسح دمعة كانت تسيل على وجنته، وبكلّ ما أوتي من رقّة، أعاد توماس إلى مهده من دون أن يوقظه.

***

في غرفة المستشفى، حرّك زلّاق نافذة الزجاج العريضة، ليخرج إلى شرفة ذات هندسة تروبيزيّة. أخرَج علبة الغولواز من جيب سترته القصيرة، أشعل عودًا وفجأةً قرّر من دون تفكير، أنّها ستكون سيجارته الأخيرة. الآن وقد بات مسؤولًا عن عائلة، عليه الاعتناء بصحّته. تُرى كَم من الوقت يظلّ الأبناء في حاجة إلى والدهم؟ خمس عشرة سنة؟ عشرين؟ أو طوال حياتهم؟ وبينما راح يستنشق دخان التبغ الحادّ، أغمض عينيه ليتنعّم بخيوط الشمس الأخيرة تشقّ طريقها وسط وريقات شجرة الزيزفون العملاقة.

صحيح أنّ ولادة توماس سوف تثقل كاهله بمسؤوليّة مهمّة، بيد أنّه كان مستعدًّا لتحمُّلها. فتربية الولد وتأمين حمايته، يفرضان نضالًا طويل الأمد، نضالًا يستلزم تيقّظًا متواصلًا في كلّ لحظة. فقد يحدث الأسوأ من دون سابق إنذار. عليه، يجب عدم التراخي. نعم، فرنسيس لن يتنصّل من المسؤوليّة. فـ«جلده قاسٍ كجلد التمساح».

انتشلَه من دوّامة أفكاره صوت النافذة تفتح. استدار ليرى أنابيل تتقدّم نحوه والابتسامة على شفتيها. حين اندسّت بين ذراعيه، شعر بمخاوفه تتبخّر. وفيما غمرهما نسيم دافئ، راح فرنسيس يردّد في سرّه أنّه قادر على مجابهة المحن كلّها وكلّ شيء طالما أنابيل جانبه. فالقوّة الجسديّة البحت لا تساوي شيئًا بلا الذكاء. وإذا ما وحّدا قواهما، فسيظلّان دومًا متقدِّمَين – ولو قيد أنملة – على الخطر.

مُتقدِّمون على الخطر

على الرغم من سيف التهديد الذي سلّطه كتاب بيانيلي على رؤوسنا نحن الثلاثة، ماكسيم وفاني وأنا، استمررنا في أمور حياتنا كأنّ شيئًا لم يكن. فقد تجاوَزنا سنّ العيش في ظلّ الخوف. تجاوزنا زمن التبرير والتعليل. ما عُدنا نسعى إلى إقناع الغير مهما كلّف الأمر. لكنّنا تعاهدنا على أمر واحد: مهما تأتّى علينا، فسوف نواجهه معًا من الآن وصاعدًا.

رحنا نستمتع بالعيش معًا، يومًا بيوم ولحظة بلحظة، فيما ننتظر العاصفة، عاصفة كنت آمل في سرّي بأنّها لن تهبّ.

ثمّة ما تبدّل فيّ، بل ومحضني ثقة جديدة. فالقلق الذي كان يتآكلني على نار هادئة قد زال كليًا. أمّا الجذور النامية، تلك الجذور الجديدة التي اكتشفتها فيّ، فقد صنعت منّي رجلًا آخر. طبعًا، كنت نادمًا بعض الشيء: نادمًا لأنّني لم أتصالح مع أمّي إلّا من خلال موتها، ونادمًا لأنّني انتظرتُ ريثما يصبح ريشار خلف القضبان لأشعر بأنّني قريب منه. وأيضًا لأنّني لم أحظ بفرصة التحدّث إلى فرنسيس وأنا عارف ومُدرِك مَن يكون حقًّا.

بيد أنّ مسارات «أهلي» الثلاثة، طرحت عليّ تساؤلات.

كانت دروبهم فريدة، تتخلّلها عذابات وأوجاع، أهواء وتناقضات. ولئن خانتهم الشجاعة في بعض الأحيان، فقد أظهروا في أحيان أخرى، حسًّا عاليًا من التضحية، فَرَض احترامهم فرضًا. لقد عاشوا، وأحبّوا، وقَتَلوا. لعلّهم تاهوا في شغفهم وولعهم حينًا، لكنّهم حاولوا، بل وبذلوا لا محالة، أفضل ما لديهم. بذلوا أفضل ما لديهم لئلّا يُمنوا بمصائر عاديّة. وأفضل ما لديهم أيضًا ليوفّقوا بين مغامرة شخصيّة حميمة وبين حسّ المسؤوليّة. وكذلك الأمر بذلوا ما في وسعهم ليُصرِّفوا كلمة «عائلة» وفق علم القواعد الخاصّ بهم.

أن أتحدَّر من سلالتهم، ما كان يُلزمني بأن أحذو حذوهم، بل فقط بأن أدافع عن ذلك الإرث وأتقبَّل بعض دروسه.

فلا جدوى من نكران معضلة المشاعر وتنوُّع البشر. حياتنا متعدّدة الوجه. حروفٌ لا تُقرأ في الأغلب، بل وتقوّضها طموحات متناقضة. حياتنا هشّة، ثمينة وتافهة في آن واحد. تعوم في صقيع مياه الوحدة تارةً، وتتمرَّغ في دفء ينبوع الشباب الأزلي طورًا. خصوصًا، أنّ حياتنا لم تكن يومًا تحت سيطرتنا. فأيّ شيء قد يقلبها رأسًا على عقب: كلمة مهموسة همسًا، نظرة ملتمعة حماسة، أو ابتسامة تطول أكثر من هنيهة، قد تُحلِّق بنا إلى سماء النعيم أو تدفعنا إلى لجّة العدم. على الرغم من عدم يقيننا، ما كان أمامنا من حلّ سوى أن نتظاهر بالسيطرة على تلك الفوضى الهائجة، على أمل أن تجد ميول قلوبنا مكانها في مخطَّط العناية الإلهيّة.

***

مساء الرابع عشر من يوليو، واحتفاءً بخروج ماكسيم من المستشفى، اجتمعنا كلّنا في بيت والديّ: أوليفييه، ماكسيم، الطفلتان، فاني وحتّى بولين دولاتور التي تبيّن أنّها فتاة حذقة، طريفة وممتعة. فتاة

تصالحتُ معها، في نهاية المطاف. كنتُ قد حمّرتُ شرائح الستيك على منقل الشواء فيما أعـددتُ بعض النقانق لإسعاد الطفلتين. وكنّا فتحنا زجاجة نوي-سان-جورج، ثمّ جلسنا على الترّاس لنشاهد الألعاب الناريّة التي ستنطلق من خليج أنتيب. كان العرض على وشك البدء، حينَ سمعنا رنين جرس المدخل.

تركتُ المدعوّين وأضأتُ المصابيح الخارجيّة قبل أن أعبر الممرّ نزولًا إلى البوّابة. كان ستيفان بيانيلي ينتظرني خلف السياج. لم يكن في أفضل أحواله: شعره طويل ولحيته كثّة، وقد طوّقت عينيه الحمراوين كالدم، هالات سوداء عميقة.

– ماذا تريد يا ستيفان؟

– مرحبًا يا توماس.

كانت أنفاسه عابقة بالكحول.

– هل ستدخلني؟ سألني وهو يتشبّث بقضبان البوّابة الحديد.

تلك البوّابة التي لن أفتحها، والتي ترمز إلى الحاجز الذي سيرتفع بيننا، من الآن وصاعدًا وإلى الأبد. فبيانيلي مجرّد خائن. لن يكون يومًا من أهل البيت.

– تبًّا لك، اغرب عن وجهي يا ستيفان.

– أحمل إليك خبرًا سارًّا، حضرة الفنّان. لن ينافسكَ كتابي!

أخرج من جيبه ورقة مثنيّة إلى أربعة، وناولني إيّاها من خلال قضبان البوّابة.

– كان فرنسيس وأمّك مجرّد محتالين! صاح الصحافي على عجل. لحسن الحظّ أنّني وجدتُ هذه المقالة قبل أن يصدر كتابي، كنت سأبدو مغفّلًا بالكامل!

فتحتُ الورقة لحظة انطلاق الألعاب الناريّة، أسهمًا ومفرقعات مُلوَّنة في السماء. كانت نسخة من مقالة قديمة من نيس-ماتان،

في تاريخ 28 ديسمبر، 1997، أي بعد مضي خمس سنوات من وقوع المأساة.

أعمال تخريب وشغب في ليسّيه سانت-إكزوبيري

تعرَّضت المؤسّسة التربويّة في مجمَّع صوفيا-أنتيبوليس للتكنولوجيا والعلوم، إلى موجة من التخريب والتشويه، وذلك عشيّة عيد الميلاد. وقد طاولت أعمال الشغب في شكل خاصّ، جمنازيوم الليسّيه الدولي الذي شهد أفظع التشويهات.
هذا وقد كانت السيّدة أنابيل دوغاليه، مديرة الصفوف التمهيديّة، أوّل مَن اكتشف حجم الأضرار في صبيحة الخامس والعشرين من ديسمبر. وبالفعل، قد اكتسَت جدران قاعة الرياضة بالرسوم المهينة والعبارات المقزِّزة والشتائم. والواقع أنّ المخرِّب أو المخرِّبين عملوا أيضًا على تحطيم زجاج نوافذ عدّة، وإفراغ مَطافئ الحريق وتشويه أبواب خزائن الطلّاب.
وبحسب المديرة – التي تقدّمت بشكوى رسميّة – لا شكّ في أنّ المرتكبين هؤلاء ليسوا من سكّان الحرم وهُم غرباء كليًّا عن المنطقة. وقد باشرت الشرطة التحقيق في القضيّة بعد أخذ الإجراءات اللازمة. وفي انتظار نتائج التحقيقات، استهلّت إدارة المدينة المدرسيّة حملة تنظيف وتصليح، استكمالًا لترميم الجمنازيوم قبل انتهاء العطلة وعودة التلاميذ إلى الحرم، في الخامس من يناير المقبل.

كلود أنجوفين

وقد أرفقت المقالة بصورتين. الأولى تُظهر حجم الأضرار التي لحقت بالجمنازيوم: الجدار المكسوّ بالرشوش المشينة، المطفأة المرميّة على الأرض، وزجاج النوافذ المكسور.

– لن يُعثَر على جثّتي فينكا وكليمان أبدًا، قال بيانيلي وهو يستشيط غضبًا. كان الأمر بدهيًا، أليس كذلك؟ فوالدتك وفرنسيس أذكى وأدهى من أن يتركا أيّ أثر. اسمعني جيّدًا يا فنّان: تَدين أنتَ ورفيقاك لأهلكَ فقد انتشلوكُم من ورطة خطيرة.

وفي الصورة الثانية، ظهرت أمّي واقفة، في طقمها الرسمي، مكتوفة الذراعين، معقوصة الشعر وباردة الملامح. وخلفها مباشرةً، بُنية فرنسيس بيانكارديني الضخمة مع سترته الجلديّة التي لا تُحرق ولا تُغرق. كان أخذ الوضعيّة المطلوبة أمام العدسة، مِسَجّة في يد ومِحفَرة في اليد الأخرى.

وفجأةً، فهمتُ كلّ شيء. ففي العام 1997، أي بعد مرور خمس سنوات على الجريمتين وقبل بضعة أشهر من استقالة أمّي، قرّرَت بالتعاون مع عشيقها، سحب الجثّتين من جدار الجمنازيوم. فمن المُحال أن يعيشا وسيف الموت هذا مسلّط عليهما. ولتبرير تدخُّل فرنسيس في ورشة الترميم، اختلقا أعمال التخريب والشغب هذه. وقد أُجريَت التصليحات كاملة أثناء عطلة عيد الميلاد، أي خلال الفترة الوحيدة في السنة التي يكون حرم الليسّيه فيها شبه مهجور. أو بالأحرى أشبه بطريق معبَّد واسع مكّن فرنسيس – هذه المرّة من دون عون أحمد – من نقل الجثّتين والتخلّص منهما نهائيًا.

كم خشينا أن يكتشف أحد الجثّتين المذكورتين، في حين أنّهما رُحِلَّتا من حرم الليسّيه منذ خمس وعشرين سنة!

مصعوقًا دائخًا، عدتُ لأحملق في صورة فرنسيس، كأنّ عينيه الثاقبتين تخترقان المصوِّر، ومن خلاله، جميع مَن قد تُساوره نفسه

بأن يقف في طريقه. نظرة فولاذيّة، تحاكي حدّ الاستبسال كأنّما تقرأ: لستُ أخشى أحدًا لأنّني سأكون دائمًا مُتقدِّمًا على الخطر.

كان بيانيلي قد عاد أدراجه خائبًا. صعدتُ الممرّ على مهل لموافاة أصدقائي. استغرقتُ هنيهة لأدرك أخيرًا أنّنا أصبحنا في مأمن من أيّ تهديد. حين وصلتُ إلى مدخل البيت، عاودتُ قراءة المقالة مرّة أخيرة. وإذ نظرتُ إلى أمّي من كثب في الصورة، لاحظتُ أنّ يدها تُمسك بمجموعة مفاتيح. مفاتيح الجمنازيوم اللعين حتمًا. مفاتيح الماضي. مع أنّها ستفتح لي أبواب المستقبل.

حظوة الروائي

لا يكتب المرء ليصبح كاتبًا، بل ليوافي ذاك الحبّ بصمت وهدوء. الحبّ الذي يفتقر إليه كلّ حبّ.

كريستيان بوبين

على الطاولة أمامي، قلم حبر جافّ كريستال، يساوي ثلاثين سنتًا، ودفتر ملاحظات بمربّعات سييس. سلاحاي الوحيدان منذ البداية.

وأنا جالس في مكتبة الليسّيه، في موقعي المعهود، في ظلّ تلك التجويفة التي تطلّ على الباحة المبلَّطة ونافورتها المكسوّة باللبلاب المتعرّش. القاعة غارقة في روائح الفتيل المُحترق والشمع الذائب. وخلفي مجموعة لاغارد وميشار الهرمة قابعة على الرفوف تستقبل الغبار طبقة تلو أخرى.

بعد تقاعُد زيلي، قرّرت إدارة الليسّيه تسمية المبنى الذي يستضيف نادي المسرح باسمي أنا. لكنّني رفضتُ هذا الاقتراح، وطلبت استبداله باسم جان-كريسوف غراف. في المقابل، وافقتُ على إلقاء خطاب افتتاحي وجيز أمام الطلّاب.

ها أنا أنزع سدادة قلمي وأشرع أدوّن ملاحظاتي. فطوال حياتي، لم أفعل سوى هذا. أكتُب وأكتُب. في حركة مزدوجة متناقضة: أبني جدرانًا وأفتح أبوابًا، جدرانًا لردع وحشيّة الحياة وقساوتها، وأبوابًا للهروب إلى عالم آخر، موازٍ – وأكتب الحقيقة لكن ليس كما هي حقًّا، بل كما يجب أن تكون.

لا يفلح الأمر على الدوام، لكن في بعض الأحيان، تكون القصّة الخياليّة أقوى منها الواقع. ربّما تلك هي حظوة الفنّانين عمومًا والروائيين خصوصًا: القدرة في بعض الأحيان على الفوز في المعركة ضدّ الواقع والحقيقة.

أكتب، وأشطب، وأكتب من جديد. وتتكدّس الصفحات، سطورًا سوداء. وشيئًا فشيئًا، تتشكّل قصّة أخرى. قصّة بديلة تشرح ما جرى حقًّا في ذلك المساء الشهير من العام 1992، وتحديدًا في التاسع عشر من ديسمبر ليلة العشرين منه.

تخيّلوا... الثلج، الصقيع، الليل... وتلك اللحظة تحديدًا، حينَ عاد فرنسيس إلى غرفة فينكا وفي نيّته دفنها داخل الجدار. دنا من الجثّة الراقدة في فراشها الدافئ. رفع الصبيّة عن السرير، وبقوّته الشرسة، قوّة الثيران، حملها كما الأمير يحمل أميرته. لكن ليس إلى قصر رائع، بل حملها إلى ورشة بناء يلفّها الظلام والصقيع، عابقة بروائح الإسمنت والرطوبة العفنة. كان وحده. لا تواكبه إلّا هواجسه وكوابيسه. وكان قد صرف أحمد إلى منزله. وضع جثمان فينكا على شادر يفترش الأرض وأنار مصابيح الورشة كلّها. كان مأخوذًا بجسم الصبيّة وأعجز من أن يقنع نفسه بأنّه يوشك صبّ الإسمنت عليها. كان تخلّص بسهولة ومن دون تردّد من جثّة ألكسيس كليمان منذ ساعات خلت. لكنّ الوضع كان مختلفًا هنا. أصعب من أن يحتمله. حدّق فيها طويلًا. ثمّ دنا منها ليضع بطّانية على جسمها برفق وتأنٍّ،

كأنّها لا تزال عرضة للفحة برد. وفيما راحت الدموع تسيل على وجنتيه، تخيّلها هُنيهة ليس إلّا، حيّة تُرزَق.

كان ذلك الوهم حقيقيًّا إلى درجة أنّه لمح صدرها يعلو ويهبط بعض الشيء.

إلى أن... أدرك أنّ فينكا ما زالت تتنفّس حقًّا.

يا إلهي! ولكن، هل يُعقَل؟ ألم تسحق أنابيل رأسها بتمثال من الحديد المصبوب؟ حسنًا، كانت أمعاء الصغيرة مليئة بالكحول والأقراص المهدّئة. صحيح أنّ مضادّات القلق تبطئ نبضات القلب، لكنّه هو نفسه لم يشعر بأيّ نبض حينَ تفحّصها منذ قليل. ألصق أذنه بصدر الصبيّة فسَمِع... سَمِع قلبها. وكان أجمل ما سمعه من موسيقى...

لم يتردّد فرنسيس. لن يطمر الصغيرة بضربة رفش لإنهاء المهمّة. لا، هو لا يقوى على ذلك. نقل فينكا إلى عربته الرباعيّة الدفع، ومدّدها على المقاعد الخلفيّة. من ثمّ سار بها في اتّجاه مرتفعات مركانتور حيث يملك كوخًا للصيد. هو شاليه صغير يمضي ليلته فيه حينَ يذهب إلى صيد ظبيان الجبال، ناحية أنترون. عادةً ما يصل إليه في غضون ساعتين، لكن وبسبب حركة السير المزدحمة، استغرق مساره هذه المرّة، أكثر من ضعف المدّة. كان الفجر ينبلج عندما بلغ حدود الألب-دو-هوت-بروفانس. أجلس فينكا على الأريكة داخل الكوخ، وأشعل نارًا في المدفأة، ثمّ عاد بمؤونة كافية من الحطب، وشرع يغلي بعض الماء.

فكّر مليًّا في طريقه إلى هنا، وأخذ قراره. إن صحت الصغيرة، فسوف يساعدها في الاختفاء والانطلاق من جديد، من الصفر. تمامًا كما يحدث في برامج حماية الشهود. إلّا أنّه لن يطلب المساعدة من مديريّة الشرطة، بل قرّر دقّ باب أسياد المافيا.

كانت المافيا الكلابريّة تحوم حوله منذ فترة بهدف تبييض أموالها. سوف يطلب منها إذًا أن تستخدم فينكا عميلة سريّة لديها. كان يدرك جيّدًا أنّه يلعب بالنار لا بل يدخل بملء إرادته دوّامة شيطانيّة، لكنّه كان يهوى تلك الفكرة القائلة أنّ الحياة لا تُرسل لنا إلّا المحن والمشقّات التي نقوى على تحمّلها. فالخير يستجلب الشرّ، والشرّ يستجلب الخير. وتلك قصّة حياته.

أعدّ فرنسيس ركوة كبيرة من القهوة، وتموضع على الكرسي، وانتظر. وَصَحَت فينكا.

ثمّ مرّت الأيّام، فالأشهر فالأعوام. وفي مكان ما، عادت امرأة شابّة إلى الحياة بعدما تركت خلفها رمادًا وغبارًا، كأنّها وُلِدَت من جديد.

***

وفي مكان ما إذًا، فينكا لا تزال حيّة ترزق.

***

هذه نسختي عن القصّة. نسخة تستند إلى العناصر والأدلّة كلّها التي استطعتُ جمعها من هنا وهناك أثناء تحقيقي: علاقات فرنسيس المفترضة مع المافيا، الحوالات الماليّة إلى نيويورك، ومن ثمّ لقائي بفينكا في مانهاتن، من طريق المصادفة.

يروقُ لي أن أفكِّر في أنَّها الحقيقة. ولو لم يكن هناك احتمال واحد في الألف بأن تكون الأمور قد سارت فعلًا على هذا النحو. مع ذلك، في هذه المرحلة المتقدِّمة من القصّة ونظرًا إلى سير التحقيق، لا أحد يستطيع نقض نسختي. هذه هي مساهمتي كروائي في قضيّة فينكا روكويل.

ها أنـذا أنهي نصّي، أوضِّـب أغـراضي وأغـادر المكتبة. وفي الخارج، مجموعة من الوريقات، وريقات مصفَرّة، محمولة على أجنحة ريح الشمال الباردة، تتراقص ملتمعةً تحت شمس الخريف. أشعر بالراحة. ما عادت الحياة تُرعبني. هاجِموني ما شئتم، احكُموا عليّ إن شئتم، أفلِسوني ودمِّروني. سوف أجابهكم بسلاحيّ الوحيدين: قلم حبر جافّ عتيق ومقضوم، ودفتر ملاحظات مُتجعِّد، سلاحين تافهين وفتّاكين في آن واحد.

لم يخذلاني يومًا، ولطالما توكّأتُ عليهما لأجتاز الليل ويبزغ فجر جديد.

للحصول على كتبنا قبل الجميع
سجل في القناة .. اضغط اللينك

t.me/ktabrwaya مكتبة

ST EXUPERY COLLEGE

CLASS OF 1992

25 YEARS REUNION

Celebrate the good old days

MAY 13
SATURDAY

تنويه

لأنّ نيويورك كانت دائمًا بالنسبة إليّ حكاية شغف حقيقيّة، نَسجتُ حبكة رواياتي الأولى كلّها في أميركا الشمالية. ورويدًا رويدًا، رحتُ أنقلُ أجزاء منها إلى فرنسا. فمنذ سنوات عدّة، تراودني رغبة في تأليف قصّة تدور حوادثها في كوت دازور، مسقط رأسي، حيث أمضيتُ سنوات طفولتي. وكنتُ أرغبُ، على وجه التحديد، في أن تتّخذ الرواية مجراها في أنتيب، حيث لي ذكريات كثيرة جدًّا.

غالبًا، لا تكون الرغبة وحدها كافية، فتأليف الروايات هو عبارة عن عمليّة دقيقة ومتشعّبة وغير واضحة المعالم. عندما شرعتُ أكتب عن الحرم التعليمي الذي شلّت حركته عاصفة ثلجيّة هوجاء، وعن الأشخاص الرازحين تحت وطأة أيّام الصبا المرعبة التي عاشوها، عرفتُ أن الوقت قد حان لأُحقّق رغبتي الدفينة. هكذا، اتّخذَت رواية «الصبيّة والليل» جنوب فرنسا مسرحًا لها. والحقّ يُقال، لقد استمتعتُ حقّ استمتاع بذكر الأماكن في حقبتين مختلفتين.

على رغم المقاربات كلّها، تبقى هذه الرواية من نسج الخيال المحض، والراوي لا يمتّ للكاتب بصلة بتاتًا، فما عاشه توماس في هذه الصفحات ليس مستوحًى من واقع معيّن. صحيحٌ أنّ طريق لا

سوكيت، وصحيفة نيس-ماتان، ومقهى الأركاد، ومستشفى لا فونتون أماكن موجودة فعليًا في أنتيب، إلّا أنّ الراوي غيّر معالمها بما يخدم هدفه. فمدرسة توماس، والليسّيه، والأساتذة، والأقارب، والأصدقاء كلّهم مُختَلقون. وأنا أقسم إنّني لم أضع جثّة في جدار الجمنازيوم...

للحصول على كتبنا قبل الجميع
سجل في القناة .. اضغط اللينك

مكتبة t.me/ktabrwaya

حرم جامعي تحت وطأة عاصفة ثلجيّة. أصدقاء يجمعهم سرّ مأسوي. صبيّة خطفها الليل.

كوت دازور، شتاء 1992

في ليلة من ليالي الشتاء القارس، وفيما شلّت عاصفة ثلجيّة هوجاء الحياة في الحرم الجامعي، هربت فينكا روكويل، البالغة 19 سنة، وكانت تُعرف بأنها الطالبة الألمع في الصفوف الإعداديّة، مع أستاذها في مادّة الفلسفة، إثر علاقة غراميّة أبقياها طيّ الكتمان. فبالنسبة إلى الصبيّة، «الحبّ هو أن تُبذل الذات كلّها أو لا شيء». ومنذ ذلك الحين، لم يرها أحد قطّ.

كوت دازور، ربيع 2017

لم يلتقِ توماس بفاني وماكسيم منذ أيّام الدراسة، مع أنّهم كانوا أعزّ الأصحاب، تجمع بينهم صداقة فينكا المميّزة. وها هي حفلة لقدامى الليسيه تلمّ شملهم. فمنذ 25 سنة، وفي ظروف غامضة جدًّا، ارتكبوا جميعًا جريمة مروّعة، وواروا جثّة القتيل في حائط الجمنازيوم الذي سيُهدّ بعد الحفلة لتشييد مبنى جديد. قنبلة موقوتة ستنفجر حتمًا لتُظهر الحقيقة وتكشف الأسرار.

© Emanuele Scorcelletti

غيوم ميسو — كاتب وروائي فرنسي برتبة عالميّة (مواليد أنتيب، 1974) يعشق الأدب والمسرح منذ نعومة أظافره. تحتلّ كتاباته قوائم أكثر الكتب مبيعًا في فرنسا والعالم، وقد بلغ ذروة نجاحاته برواية «وبعد»، فاكتسب شُهرة كبيرة، لا سيّما أنّها حُوّلت فيلمًا حقّق نجاحًا كبيرًا في دور السينما.

في رصيده أكثر من عشر روايات، تُرجم معظمها إلى أربعين لغة، منها: «وبعد»، «أنقذني»، «هل ستكون هنا؟»، «لأنّني أحبك»، «عائد لأبحث عنك»، «نداء الملاك»، «بعد 7 سنوات»، «غدًا»، «سنترال بارك»، «اللحظة الراهنة»، «فتاة بروكلين»، «شقة في باريس».

t.me/ktabrwaya

ISBN 978-614-469-303-2

9 786144 693032

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان

المركز الثقافي العربي